



التأطوير الفني

في القرآن



تسليم قطب

دار الشروق

التصوير الفني
في القرآن

الطبعة الشرعية العاشرة
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الشرعية الحادية عشرة
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الطبعة الشرعية الثانية عشرة
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الطبعة الشرعية الثالثة عشرة
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الطبعة الشرعية الرابعة عشرة
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الطبعة الشرعية الخامسة عشرة
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

الطبعة الشرعية السادسة عشرة
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

الطبعة الشرعية السابعة عشرة
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيديويه المصري

رابعة العدوية - مدينة نصر - ص.ب : ٣٣ الجانوراما

تليفون : ٤٠٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢-٣)

البريد الإلكتروني : email: dar@shorouk.com

سَيِّدُ قُطَيْبٍ

التَّصْوِيرُ الْفَنِّيُّ فِي الْقُرْآنِ

دار الشروق —

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الهدوء

إليك يا أماء ، أرفع هذا الكتاب .
لظالما تسمعت من وراء « الشيش » في القرية ، للقراء يرتلون في دارنا
القرآن ، طوال شهر رمضان . وأنا معك - أحاول أن ألغز كالأطفال -
فتردني منك إشارة حازمة ، وهمسة حاسمة ؛ فأنصت معك إلى الترتيل ،
وتشرب نفسي موسيقاه . وإن لم أفهم بعد معناه .

وحيثما نشأت بين يديك ، بعثت في إلى المدرسة الأولية في القرية ،
وأول أمانيك أن يفتح الله عليّ ، فأحفظ القرآن ؛ وأن يرزقني الصوت
الرخيم ، فأرتله لك كل آن . ثم عدلت بي عن هذا الطريق في النهاية إلى
الطريق الجديد الذي أسلكه الآن ؛ بعد ما تحقق لك شطر من أمانيك ،
فحفظت القرآن !

ولقد رحلت عنا - يا أماء - وآخر صورك الشاخصة في خيالي ،
جلستك في الدار أمام المذبح . تستمعين للترتيل الجميل ؛ ويبدو في قسمة
وجهك النبل أنك تدركين - بقلبك الكبير ، وحسك البصير - مرامي
وخطاياها .

فإليك يا أماء . ثمرة توجيهك الطويل . لطفلك الصغير . ولفتاك
الكبير . ولئن كان قد فاتته جمال الترتيل ، فعسى ألا يكون قد فاتته جمال
التأويل . والله يرعاك عنده ويرعاه .

ابنك

سيد

لَقَدْ وَجَدْتُ الْقُرْآنَ !

لهذا الكتاب في نفسي قصة .
ولقد كان من حقّي أن أحفظ بهذه القصة لنفسي ، ما ظلّ هذا الكتاب
خائطراً في ضميري . أما وقد أخذ طريقه إلى المطبعة ؛ فإن قصته لم تعد ملكاً
لي ، ولا خاصة بي .

لقد قرأت القرآن وأنا طفل صغير ، لا ترفي مداركي إلى آفاق معانيه ،
ولا يحيط فهمي بجليل أغراضه . ولكنني كنت أجده في نفسي منه شيئاً .
لقد كان خيالي الساذج الصغير ، يحسّ لي بعض الصور من خلال
تعبير القرآن . وإنما لصور ساذجة ، ولكنها كانت تشوق نفسي وتلد حسني ،
فأظّل فترة غير قصيرة أتملاها ، وأنا بها فرح ، ولها نشاط .
من الصور الساذجة التي كانت ترسم في خيالي إذ ذاك صورة كانت
تتمثل لي كلما قرأت هذه الآية :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْبِدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ،
وَإِنْ أَصَابَتْ فِتْنَةٌ أَلْقَى عَلَى وَجْهِهِ ، خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ .

ولا يضحك أحد ، حينما أطلعه على هذه الصورة في خيالي :
لقد كان يشخص في مخيلتي رجل قائم على حافة مكان مرتفع :
مصطبة - فقد كنت في القرية - أو قمة تل ضيقة - فقد رأيت التل المجاور
للوادي - وهو قائم بصلي ؛ ولكنه لا يملك موقفه ، فهو يتأرجح في كل
حركة ، ويهم بالسقوط وأنا بإزائه ، أنتبح حركاته ، في لذة وشغف عجيبين !
ومن تلك الصور الساذجة صورة كانت تتمثل لي كلما قرأت هذه الآية :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ، فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ ،

فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ . فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ : إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ، أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ﴿١﴾ .

لم أكن أدرك من معاني هذه الآية شيئاً ولا من مراميها . ولكن صورة كانت تشخص في مخيلتي . صورة رجل ، فاغر القم ، متدلي اللسان ، يلهث ويلهث في غير انقطاع . وأنا بإزائه ، لا أحول نظري عنه ، ولا أفهم لم يلهث ، ولا أجرو على الدنو منه !

وصور من هذه شتى ، كانت ترسم لخيالي الصغير ؛ وكنت ألتذ التأمل فيها ، وأشتاق قراءة القرآن من أجلها ، وأبحث عنها - كلما قرأت - في ثناياه .

• • •

تلك أيام ... ولقد مضت بذكرياتها الحلوة ، وبخيالاتها الساذجة . ثم تلتها أيام ؛ ودخلت المعاهد العلمية ؛ فقرأت تفسير القرآن في كتب التفسير ، وسمعت تفسيره من الأساتذة . ولكنني لم أجِد فيما أقرأ أو أسمع ذلك القرآن اللذيذ الجميل ، الذي كنت أجده في الطفولة والصبيا .

وأأسفاه ! لقد طُيِّبَتْ كُلُّ معالم الجمال فيه ؛ وخلا من اللذة والتشويق . ترى هما قرآنان ؟ قرآن الطفولة العذب الميسر المشوق ؛ وقرآن الشباب العسر المعقد الممزق ؟ أم إنها جنابة الطريقة المتبعة في التفسير ؟

وعدت إلى القرآن أقرؤه في المصحف لا في كتب التفسير . وعدت أجِد قرآني الجميل الحبيب ؛ وأجِد صوري المشوقة اللذيذة . إنها ليست في سذاجتها التي كانت هناك . لقد تغيَّرَ فهمي لها ، فعدت الآن أجِد مراميها وأغراضها ، وأعرف أنها مثل يضرب ، لا حادث يقع .

ولكن سحرها ما يزال . وجاذبيتها ما تزال .

الحمد لله . لقد وجدت القرآن !

• • •

وخطر لي أن أعرض للناس بعض الماذج مما أجده في القرآن من صور ؛ ففعلت ، ونشرت بحثاً في مجلة المقتطف عام ١٩٣٩ تحت عنوان :

« التصوير الفني في القرآن » . تناولت فيه عدة صور فأثبتها ، وكشفت عما فيها من جمال فني ، وبيّنت القدرة القادرة التي تصوّر بالألفاظ المجردة ، ما تعجز عن تصويره الريشة الملونة ، والعدسة المشخصة . وقلت : إن هذا البحث يصلح أن يكون موضوعاً لرسالة جامعية .

* * *

ومرت السنوات ، وصور القرآن تخايل لي ، وتراءى فيها آثار الإعجاز الفني . وكلما عدت إليها قويت في نفسي أن أتولى البحث الذي تركته فلم يحاوله أحد ، وأن أكمله وأتوسع فيه . وظللت أعكف على القرآن بين الحين والحين ، أتملى صورته الفريدة ، فتزداد فكرة البحث في نفسي رسوخاً ، ثم تشغلني عنه الشواغل ، فيرتد أمنية في الضمير ، ورغبة في الشعور . إلى أن شاء الله أن أتوفر عليه في هذا العام .

* * *

لقد بدأت البحث ومرجعي الأول فيه هو المصحف ، لأجمع الصور الفنية في القرآن ، وأستعرضها ، وأبين طريقة التصوير فيها ، والتناسق الفني في إخراجها - إذ كان همي كله موجهاً إلى الجانب الفني الخالص ، دون التعرض للمباحث اللغوية أو الكلامية أو الفقهية أو سواها من مباحث القرآن المطروقة .

ولكن ماذا أرى ؟

إن حقيقة جديدة تبرز لي . أن الصور في القرآن ليست جزءاً منه يختلف عن سائرهِ . إن التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل . القاعدة الأساسية المتبعة في جميع الأغراض - فيما عدا غرض التشرّيع بطبيعة الحال - فليس البحث إذن عن صور تُجمَع وترتّب . ولكن عن قاعدة تكشف وتبرز .

ذلك توفيق . لم أكن أتطلع إليه ، حتى التّيت به ! وعلى هذا الأساس قام البحث ، وكل ما فيه إنما هو عرض لهذه

القاعدة ، وتشريع لظواهرها ، وكشف عن هذه الحاصية التي لم يتعرض
من قبلها

* * *

وحيث انتهيت من التحضير للبحث وجدني أشهد في نفسي موند
القرآن من جديد لقد وجدته كما لم أعده من قبل أبداً لقد كان القرآن
جميلاً في نفسي نعم ولكن جماله كان أحرأ وتمازق أما اليوم فهو
عدي جملة موحده ، نقوم على قاعده حاصه ، قاعده فيها من التماسق
المعجب ، ما لم أكن أحلم من قبل به ، وما لا أظن أحداً تصوره
فلن كنت قد وفقت في نقل هذه الصورة كما أراها في نفسي ؛
وفي إبرازها لناس كما أحسب في صميمي ، فليكون هذا - بلا شك
بجاً كاملاً لهذا الكتاب

سيد قطب

سحر القرآن

سحر القرآن العرب منذ اللحظة الأولى ، سواء منهم في ذلك من شرح الله صدره للإسلام ، ومن جعل على نصره منهم عشاوة وإذا تجاوزنا عن النقر القليل الذين كانت شخصية محمد - صلى الله عليه وسلم - وحدها هي داعيتهم إلى الإيمان في أول الأمر ، كزوجه خديجة ، وصديقه أبي بكر ، وابن عمه علي ، ومولاه زيد ، وأمثالهم ، فإن سحر القرآن كان العامل الحاسم ، أو أحد العوامل الحاسمة ، في إيمان من آمنوا أوائل أيام الدعوة ، يوم لم يكن لمحمد حق ولا طوق ، ويوم لم يكن للإسلام قوة ولا منعة .

وقصة إيمان عمر بن الخطاب ، وقصة تولي الوليد بن المغيرة ، ومودحات من قصص كثيرة للإيمان والتولي ، وكتاتهما تكشفان عن هذا السحر القرآني الذي أخذ العرب منذ اللحظة الأولى ، وتبينان - في النماذج المحتملين - عن مدى هذا السحر القاهر ، الذي يستوي في الإقرار به المؤمنون والكافرون .

فأما قصة إيمان عمر فيها روايات كثيرة .

مها رواية لعطاء ومجاهد نقلها ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي مبيح تذكر أن عمر - رضي الله عنه - قال : « كنت للإسلام معادياً ، وكنت صاحب حمر في الجاهلية أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش ... فحزرت أريد جسدني

أولئك ، فلم أحد منهم أحداً ، فقلت لو أني حثت فلان الحمار !
 وحرثت فحنته ، فلم حده ، فبت لو أني حثت الكعبة قطعت
 بها سبعاً أو سبعين ! فحثت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة ،
 فإذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائم يصلي ؛ وكان إذا
 صلى استقبل الشام ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، واتخذ مكانه
 بين الركبتين الركى الأسود ، والركى السمائي فثبت حين رأته
 والله لو أني استمعت محمد الله حتى أسمع ما يقول ؛ وقم بنفسي
 أني لو دوت به أسمع لأروعه ، فحثت من قبل الحجر ، فحدثت
 تحت ثيابها ، ما بي ربه إلا ثاب لكعبة فلما سمعت القرآن
 رق به قسي فكيت ، ودخلي الإسلام ؛

ومما رواية لابن اسحاق تقول : ملخصه : ب عمر خرج
 متوشحاً ببيعه يريد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورهطاً من
 أصحابه قد اجتمعوا في بيت عبد الصماء ، وهم قريب من أربعين
 بين رجال ونساء

وفي الطريق لقيه نعيم بن عبد الله فآله عن وجهته ، فأخبره
 بعرضه ، فحذره بني عبد مناف ، ودعاه أن يرجع إلى بعض هذه
 حنته سعيد بن زيد بن عمرو ، وأخته فاطمة بنت الخطاب روح
 سعيد ، فقد صاباً عن دينها

فذهب إليهما عمر ، وهناك سمع حاكماً يتلو عنهما القرآن ،
 ففتحهم الباب ، وبطش بكنهه سعيد ، وشج أخته فاطمة ثم
 أخذ النصيحة بعد حور ، وفيها سورة طه ، فلما قرأ صدرها منها
 قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! ثم ذهب إلى النبي
 - صلى الله عليه وسلم - فأعلن إسلامه فكثر النبي تكبيرة عرف

أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسسم^(١)
 وكل الروايات تجمع على أنه سمع أو قرأ شيئاً من القرآن ، فكان
 هذا داعيه إلى الإسلام ومن العمل الذي لا داعي له أن بعض النظر
 عن العوامل النفسية الأخرى في تاريخ عمر ، ولكن هذه العوامل
 لا تنفي أنه كان لسحر القرآن ، ذلك الأثر الحاسم في الإسراع
 به إلى الإسلام .

تلك قصة إيمان عمر بن الخطاب وما قصة تولي الوليد بن
 المعيرة ، ففيها روايات كثيرة ملخصها :

بن الوليد بن المعيرة سمع شيئاً من القرآن الكريم فكأنما رقى
 له فقالت قريش صأ والله الوليد ، وتتصور قريش كلهم
 قد عهدوا إليه بأهل جهل بشر كبرياءه وعزرائره بسسه وماله وسلب
 به أن يقول في القرآن قولاً يعلم به قومه أنه له كدره قال « هاد
 أقول فيه ؟ والله ما منكم رجل أعظم مني بالشعر ولا برحمة ولا
 بقصيدة ولا بالشعر الحسن والله ما بسسه الذي يقوله شئت من هذا
 والله إن لقوله بحلاوة ، وإن عليه بطلاوة ، وبه ليحطم ما يحته .
 وبه ليعمر وما يعلى » قال أبو جهل والله لا يرصني فومث حتى تقور
 فيه قال : عدعي أفكر فيه فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر
 يؤثر . أما رأيتموه يرق بين الرجل وأهله ومواليه^(٢) ؟
 وفي ذلك يقول القرآن الكريم

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ

(١) عن السيرة لابن هشام

(٢) عن السيرة لابن هشام ، وتفسير ابن كثير من روايات متعددة

ثم نظر ، ثم عس ونسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا
إلا سحر يؤثر ﴿

سحر يؤثر ، يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه .. تلك
قولة رجل يتقاعس عن الإسلام ، وينكر أن يسلم لمحمد ، ويعتر
نفسه وماله وورثه . وليست قولة رجل آمن ، فهو يعامل إيمانه بهذا
السحر الذي لا يعاب ! وبها لأدع على «سحر القرآن» للعرب ،
من كل كلام يقوله المؤمنون ، لأب لا تقل ولدي قاتلها حيلة
للسكوت عنها ، أو مفتر من الاعتراف بها !

ومن هنا تلتقي قصة الكفر بقصة الإيمان ، في الإقرار بسحر
هذا القرآن ، وتلتقي على الإقرار به شخصيتان قويتان ، بينهما من
المدى في الاختلاف ما بين عمر بن الخطاب والوليد بن المغيرة .
فتشرح التقوى صبراً عمر للإسلام ، وتصد الكبرياء الوليد عن
الإدعاء ، ويدهان في طريقيهما متدابران ، بعد أن يلتقيا في
نقطة واحدة : نقطة الإقرار بسحر القرآن .

♦ ♦ ♦

ولا يقل عن هاتين القصتين في الدلالة على هذا السحر ما
حكاه القرآن عن قول بعض الكفار « لا تسمعوا هذا القرآن
وانعوا فيه لعنكم تعيون » فإن هذا لبيل على الذعر الذي كان
يصطرب في نفوسهم ، من تأثير هذا القرآن فيهم وفي أئاعهم ،
وهم يرون هؤلاء الأتباع يسحرون بين عشية وضحاها من تأثير
الآية والآيتين ، والسورة والسورتين ، تنفوها محمد أو أحد أتباعه
السابقين ، فتقاد إليهم النفوس ، ونهوي إليهم الأفئدة ، ويهرع
إليهم المتحولون

وم يهل رؤساء قريش لأشباعهم وأشباعهم هذه المقالة ، وهم
في بحوة من سحر القرآن فلو لا أنهم أحسوا في أعماقهم هزة
روعتهم ، ما أمروا أتباعهم هذا الأمر ، وما أشاعوا في قومهم هذا
التحذير ، الذي هو أدل من كل قول على عمق التأثير !

وقد قالوا في لحاجة الإبداع كما حكى عنهم القرآن « أساطيرُ
الأولين اكتسبها فهي تملئ عليه نُكرةً وأصيلاً » .

وقالوا . « قد سمعنا ، لو شاء نقلنا مثل هذا إن هذا إلا
أساطيرُ الأولين » وقالوا « أضغاثُ أحلام من افترة مل
هو شاعر » .

فتحداهم مرة ومرة « قل فأتوا بعشر سور مثله مقريات »
« قل فأتوا سورة مثله » ولكم لم يأتوا بعشر سور ولا سورة
مفردة ! ولم يحاولوا هذه المحاولة أصلاً ، إلا ما قيل من محاولة
بعض المتشككين بعد محمد ، وليس هذا من الحد في شيء ، ولا
يخبر أن يحسب له في هذا المحاول حساب أما الرأي القائل بصرفهم
عن المحاولة فليس له وزن يقام !

• • •

وبل من تمام القول في هذا الفصل ، أن ثبت بعض السور
التي وردت في القرآن لتأثيره في نفوس بعض الدين أونوا العلم من
قله ، وبعض الدين صغت قلوبهم إياه .

جاء في صدد الحديث عن اليهود والنصارى :

﴿ نَجِدُنْ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ شَرَكُوا .
وَنَجِدُنْ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا النَّصَارَى . إِنَّا نَبْصَرُ ، ذَلِكَ

لَنْ مِنْهُمْ فَسِيْسٌ وَرَهْبَانًا . وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا
أُتِيَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ
يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٠﴾ .

فذلك صورة من صور التأثير الوجداني سماع القرآن وإن
أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، وإن للطريقة التي
يعرض بها هذا الحق لأثرًا لا شك فيه ، بهصح عنه ما ورد في
موضع آخر

﴿إِنَّ الدِّينَ أَوْتُوهُ الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجْرُونَ لِلآذِقَانِ
مُحَدِّثًا . وَيَقْبِضُونَ . مَسْجُودًا رَبًّا . كَانُوا وَعَدُ رَبِّنَا لْمُفْعُولِ .
وَيَجْرُونَ لِلآذِقِ يَتَكُونُ . وَيُرِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾

وكذلك هذه الصورة عن الدين يحشون ربهم

﴿اللَّهُ سَرَّلَ أَحْسَنَ لِحْدِيثٍ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَلًا تَقْشَعُرُ مِنْهُ
خُبُودُ الدِّينِ يَحْشُونَ رَبَّهُمْ . ثُمَّ تَلْبِسُ خُبُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾

هكذا «تقشع من خبود الدين يحشون ربهم» «يجرون
للآذقان يكون ويريدهم خشوعاً» «ترى أعينهم تفيض من
الدمع» فهو التأثير الذي يلحس الوجدان ، ويحرك المشاعر ،
ويفيض الدموع يسمعه الدين تهبأوا للإيمان ، يسارعون إليه
حشعين ، ويسمعه الدين يستكبرون عن الإدعان ، فيقولون «إن
هذا إلا سحر مبين» ، أو يقولون «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا
فيه لعلكم تعملون» فيقرون بالإعجاز العلاب من حيث لا يشعرون ،
أو يشعرون !

منع السحر في القرآن

كيف استحوذ القرآن على العرب هذا الاستحواذ ؟ وكيف
اجتمع على الإقرار بسحره المؤمنون والكافرون سواء ؟

نص الـ حثي في مراتب القرآن ، يطر إلى القرآن حسنة ثم بحسب
وبعضهم يذكر غير النسق الفني للقرآن أسباب أخرى يستمد منها من
موضوعاته بعد أن صار كاملاً : من تشريع دقيق صالح لكل
زمان ومكان ، ومن إخبار عن أعين ينحقق بعد أعوام ، ومن
علوم كونية في خلق الكون والإنسان

ولكن البحث على هذا النحو إنما شئت المزية للقرآن مكتملاً
فما القول في السور القلائل التي لا تشريع فيها ولا عيب ولا علوم ،
ولا جمع طبيعة الحال كل الزمان المتفرقة في القرآن ؟ إن هذه
السور القلائل قد سحر العرب بها منذ اللحظة الأولى ، وفي وقت
لم يكن التشريع المحكم ، ولا الأعراض الكبرى ، هي التي تسرعني
إحسانهم ، وتستحق منهم الإعجاب

لا بد إذن أن تلك السور القلائل كانت تحتوي على العنصر
الذي يسحر المستمعين ، ويستحوذ على المؤمنين والكافرين وإد
حسب الأثر القرآني في إسلام المسلمين ، فهذه السور الأولى تصور
منه بالصيب الأولى ، مهما يكن عدد المسلمين من القلة في ذلك
الأوان ذلك أنهم قد تأثروا بهذا القرآن وحده - على الأغلب -
فأمروا ، أما الكثرة الكثيرة التي أصبحت بعد أن ظهر المسلمون ،
وبعد أن عتب الدين - فقد كان أممها بحسب القرآن عو من يتأثر
بها من مسلمون ، كل على طريقته ، وكل من ركب في طبيعته

وم يكن القرآن وحده هو العامل الحاسم في إسلامهم ، كما كان ذلك أيام الدعوة الأولى

وَأَمَّنْهُمْ لَأَنَّهُمْ تَأَثَّرُوا بِخُلَاقِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْلَاقِ صَحَابَتِهِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ .

وَأَمَّنْهُمْ لَأَنَّهُمْ وَجَدُوا الْمُسْلِمِينَ يَحْتَمِلُونَ لِأَدَى وَالْفُسْكَ وَالْعَدَبِ ، وَيَتْرَكُونَ مَالَهُمْ وَلِأَهْلِهِمْ وَلِأَصْحَابِهِمْ ، لِيَسْجُودُوا لِيَدِيهِمْ ، وَيَهْرُؤُوا بِهِ إِلَى رَبِّهِمْ

وَأَمَّنْهُمْ لَأَنَّهُمْ وَجَدُوا مُحَمَّدًا - وَمَعَهُ قَلَّةٌ - لَا يُعْصِمُهُمْ أَحَدٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُمْ وَحَافِظُهُمْ مِنْ كَيْدِ الْكَافِرِينَ

وَأَمَّنْهُمْ لَعَدَمِ طُفُفِ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ قَرَأُوا فِيهَا مِنَ الْعَدْلِ وَالسَّيَاحَةِ مَا لَمْ يَرَوْهُ مِنْ قَبْلُ فِي نَظْمٍ

وَأَمَّنْهُمْ لَعَدَمِ غَيْرِهِمْ وَعَدَمِ غَيْرِهِمْ عَلَى طَرِيقِ شَيْءٍ ، قَدْ يَكُونُ السَّحَرُ الْقُرْآنِي عَصْرًا مِنْ عَصَرِهِمْ ، وَكَهْ بِسِّ الْعَصْرِ الْحَاسِمِ فِيهَا ، كَمَا كَانَ فِي أَيَّامِ الدَّعْوَةِ الْأُولَى

° ° °

يَحْتَجُّ إِدْرَأُ سَحَرُ عَنْ «سَمْعِ السَّحَرِ فِي الْقُرْآنِ» قَبْلَ التَّشْرِيعِ الْمَحْكَمِ ، وَقَبْلَ الْبُوءَةِ الْعَيْبَةِ ، وَقَبْلَ الْعُيُومِ الْكُوفِيَةِ ، وَقَبْلَ نَصْحِ الْقُرْآنِ وَحْدَهُ مَكْتُمِهِ تَشْمِلُ هَذَا كَيْهَ فَقَلِيلِ الْقُرْآنِ الَّذِي كَانَ فِي يَوْمِ الدَّعْوَةِ الْأُولَى كَانَ مَحْرُودًا مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي جَاءَتْ فِيمَا بَعْدَ ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مَحْتَوِيًّا عَلَى هَذَا الْبَيْعِ الْأَصِيلِ الَّذِي تَذَوَّقَهُ الْعَرَبُ ، فَقَالُوا : إِنْ هَذَا إِلَّا سَحَرٌ يُؤْثَرُ

قِصَّةُ تَوَلَّى الْوَلِيدُ مِنَ الْمَعْبُورَةِ وَرَدَتْ فِي سُورَةِ «الْمُدَّثِّرِ» - وَهِيَ

لسوره الثالثة عانداً في ترتيب الروول - سبقه سوره «العلق» وسوره «المزمل» أو هي على العموم من السور الأولى في القرآن (١١)

فسطر في هذه السور - على سبيل المثال - نرى في سحر كان فيها اضطرب له الوليد هذا الإضطراب

إن نقرأ الآيات المكية في هذه السور فلا نجد فيها تشريعاً محكماً ، ولا عمومًا كوكبية - إلا إشارة خفيفة في السوره الأولى بحق الإنسان من علق - ولا نجد إخباراً ، نعيم يقع بعد مسير كائني ورد في سورة «الروم» وهي السوره الرابعه ولثامول

فإن هو السحر الذي تحدث عنه من المعرة بعد التكمير والتهدير ؟

لا بد إذن أن السحر الذي عناه كان كاملاً في مظهر آخر غير التشريع والعبيات والعموم الكوكبية لا بد أنه كامر في صميم السبق القرآني ذاته ، لا في الموضوع الذي نتحدث عنه وحده وإن لم بعض ما في روحانية العقيدة الإسلامية وساطتها من حادية

فسطر في السوره الأولى «سوره العلق» بها نصم خمس عشرة فصلة قصيره ، ربما يلوح في أول الأمر أنها تشبه «سجع الكهان» أو «حكمة السحاج» مما كان معروفاً عند العرب إذ ذلك ولكن المهد في هذه وتنك أنها حمل متاثرة ، لا رابط بينها ولا تناسق ، فهل هذا هو الشأن في «سوره العلق» ؟

(١١) اعتمدت في ترتيب سور القرآن على المصحف الأميري وعلى نفسي الطبري وعلى بعض اسباب الترتيل في مصادر أخرى ثم عو برحمتي الشحهي بين بروايات وليس هناك يقين

أحبوب لا ، عهد بين متسارق ، يربط هوصه سمسو
دخلي دقيق

« أَقْرَأُ بَاعْتُمْ رَبُّكَ لَأَيِّ حَقٍّ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، قَرَأَ
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . كَلَّا
إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ، إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلُّجُوعِي ، أَرَأَيْتَ
الَّذِي يُهَيِّئُ عِندَ إِدِّ صَبًى ، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ، أَوْ أَمَرَ
بِالتَّقْوَىٰ ، أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ، أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بَرِيٌّ . كَلَّا
لَنْ يَنْفَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَسْفُهُا ذَا النِّاصِبِ ، نَصِيحَةٍ كَادِبَةٍ خَاطِئَةٍ ، فَبَدَعَ
رَدِيئَةً ، سَدَّعُ الرَّدَايَةِ ، كَلَّا لَا نَطْعُهُ وَأَشْجَدُ وَقَرُّبُ »

هذه هي السورة الأولى في القرآن ، فهاصب أن سنسجها بالإقراء ،
واسم الله لإقراء ، لنقرآن ، واسم الله ، لأنه هو الذي يدعو
اسمه إلى الدين والله « رب » فالقرءة بلربية والتعظيم « قر
دشم ربك » .

وإيها لبدء للدعوة ، فليحتر من صفات « الرب » صفته التي
بمعنى لبدء دلحية « الذي خلق » وليبدأ من الحق مرحلة
أولية صغيره « خلق الإنسان من علق » مشأ صغير حمير ،
وكس الرب الخالق كرم ، كريم جداً ، فقد رفع هذا العنق إلى
يسار كامل ، يُعَلِّمُ هِتَعَلَّمُ « اقرأ وربك الأكرم ، الذي علَّمَ
بالقلم ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »

وإيها لطفة بعدة بين ذلك المشأ وهذا المصير وهي تصوّر
هكذا مفاحدة بلا تدرج ، ونعمل امر حل التي توات بين المشأ

والمصير لتلمس الواحدان الإنساني لمسة قوية في مجال الدعوة
لدنية ، وفي مجال التأملات الوجدانية

ونقد كان المتوقع أن يعرف لإنسان هذا الفصل العظيم ، وأن
يشعر بتلك الثقة البعيدة ولكن « كلا ! إن الإنسان ليطغى
أن رآه استعصى » لقد برزت إذن صورة الإنسان الطغوي الذي
سي مشأه وأظهره العبي ، فالتعقيب التهديدي السريع على بروز
هذه الصورة هو : « إن إلى ربك الرجعى »

هذ رد الأمر إلى نصائه هكذا سريعاً ، لم يكن هناك ما يمنع
من المضي في حديث الطغيان الإنساني ، وإكمال الصورة الأولى
إن هذا الإنسان الذي يطغى ، ليتحور طغيانه نفسه إلى سواء
« رأيت الذي بهي عدداً إذا صلى » « رأيت » إنها لكبيرة ! وإيها
تندو أكثر إذا كان هذا العدو على الهدى آمراً بالتقوى « رأيت
إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ؟ » فما زال هذا المخلوق
الإنساني عاجلاً عن كل شيء عصته عن شأته وقتلته ؟ « رأيت
إن كذب وتولى » ألم يعلم بأن الله يرى ؟ « فالهديد إذن يأتي في
إنابه « كلا ! لئن لم تنته لسمعاً بالناصية » هكذا « لسمعاً »
بذلك اللفظ الشديد لمصور يحرسه لعناه . وإيه لأوقع من مراده .
بأنه شدة « لسمعاً بالناصية » صورة حسية بالأحد الشديد
السريع ، ومن أعلى مكاب يرفعه الطغوية المتكرر ، من مقدم الرأس
المتشامع إنها ناصية تستحق السمع « ناصية كادبة خاطئة »
وإنها للحظة سمع وصرع ، فقد يحظر له أن يدعو من بعتر بهم من
هله وصحه « فليدع ياديه » ومن فيه ، أما نحن فإب « استدعوا
الزناينة » وهه يحيل السياق للسامع صورة معركة بين المدعويين

بين الزبابة وأهل ديه ، وهي معركة تحييدية تشعل الحس والحجبان ،
ولكنها على هذا النحو معروفة للصير . فلتقرأ لمصيرها المعروف ،
ويمض صاحب الرسالة في رسالته ، غير متأثر بطغيان الطاعني
وبكديته « كلا ! لا تطعه واسجد وقرب » .

هذا ابتداء قوي مد اللحظة الأولى للدعوة . وهذه الفواصل
التي تبدو في الظاهر متناثرة ، هي هكذا - من الداخل - متساقطة
وهذا سبق من القرآن في السورة الأولى ، الشبهة في طاهرها سمح
الكهان ، أو حكمة السحاح

فلسطر في السورة الثانية . وهي عالياً سورة المزل - ورعا
كانت قد سبقها أوائل سورة « القلم » - فلعلمها هي التي سمعها الوليد
ابن المعيرة ، فقال قوله المشهورة .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ، وَكَانَ الْحِجَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً
إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ،
فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ، فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً فَكَيْفَ تَتَّقُونَ - إِن
كَفَرْتُمْ - يَوْمًا يجعل الولدان شيباً ، السماء منقطره ؟ كان وعده
مفعولاً ، إن هذه تذكيره ، فمن شاء فليتحذّر إلى ربه سيلاً ﴾

فها هي ذي صورة للهول تحاور الإنسان ونفسه إلى الطبيعة كلها ،
ولإنسان من حميتها . « يوم ترجف الأرض والجبال ، وكانت
الجبال كتيلاً مهيباً » فليتمل الجبال - إن استطع - صورة ذلك
الهول الذي ترجف له الطبيعة في كبر محاسنها الأرض وحدها
وإن لا تعرضكم هذا اليوم إلا بعد أن ترسل بكم رسولاً يحذرون
هذابتكم ، ويشهد عليكم . « إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِداً عَلَيْكُمْ ،

كما أرسلنا إلى فرعون رسولا « وإيكم تُدعون بقوتكم ، فانتم من فرعون في قوته ؟ » فعصى فرعون الرسول فأخذناه أضداداً رسلاً ، أقربون أن تؤولوا إذن كما أحد فرعون القوي ؟ وإذا است هذه الدنيا « فكيف تنقون - إن كهرتم - يوماً تحل الولدان شيئاً ، السماء مسطرٌ به ؟ » إن صورة الهول لها تشطر لها لسماء ، ومن قبل ارتجفت ها لأرض والحال ، وإياها تشب الولدان وإيه هول ترتسم صورته في الطبيعة الصدمية ، وفي الإنسانية الحية وعلى الخيال أن يتمي هذه الصور الشاحصة ، وإيه يستملها هيتر لها الوجدان ، وإيه ليؤكد لها تأكيداً « كان وعده معمولاً » ، فلا شك فيه ، ولا مفر منه ، وما هذا الإندار إلا للتدكري « إن هذه تذكرة ، من شاء اتحد إلى ربه سبيلاً » وإن السيل إلى الله لآمن وأيسر ، من السيل إلى هذا الهول العصيب !

* * *

ما قصة إيمان عمر فالرواية المفصلة فيها تذكر أنه قرأ صدر من سورة طه ، وهي السورة الحامسة ولأربعون سقفا سور . الملق ، ولترمس ، والمذثر ، والقدم ، والهاجرة ، والسد ، ولتكوير ، والاعى ، والليل ، والنحر ، والصحي ، ولاشراح ، والعصر ، والعباديات ، والكوثر ، والتكاثر ، والماعون ، وانكفروب ، والفيل ، والنفق ، والناس ، والإخلاص ، واللحم ، وعس ، والقدر ، والشمس ، والروح ، والتين ، وعريش ، والقارعة ، والقيامة ، والهمزة ، والمرسلات ، وقاف ، واللد ، والطرق ، والقمر ، وصاد ، والأعراف ، والجن ، ويس ، والفرقان ، وهطر ، ومريم وهي جمعها سور مكية فيما عدا بعض الآيات المدنية

فلسطر في هذه السور بالإحسان - فاسطر بالتفصيل وفي جميعاً
عر مستطع ، على البق اسي اتعنه في قصة تولي الوليد - لرى
أي سحر كان فيها ، استأثر بالناقين الأولين الذين تابوا محمداً ،
حتى قبل أن يعتز الإسلام بعمر ، وقبل أن يجهر النبي بالدعوة في
وصبح النهار ، بعد التحي والإسرر

وإنما سطر فلا يجد فيها جميعاً إلا لقليل من تلك الأعراض
التي يراها بعض الباحثين ككر مراب القرآن بسا إذا استشياً إشارة
سريعة إلى خلق الإنسان من طمة ، وتنويع الأشكال ولألوان في
سورة « فاطر » ، وخلق الإنسان « من ماء دافق » ، يخرج من بين
الصب والثرائب « في سورة « الطارق » لا يجد عموماً كونه في
جميع هذه السور على وجه الإحسان ، وكذلك لا يجد التشريع ،
ولا يجد السوءات

ولكنه يجد في هذه السور - كما يجد في سواها من السور
المكية والمدنية على السواء - مثلاً من ذلك جمال النبي الذي صر
به الأمثال

وإنما نستطيع أن ندع - مؤقناً - قدامة القرآن الأدبية ، وأعراض
الدعوة الإسلامية ، وأن تتجاوز حدود الزمان والمكان ، وتغطي
الأجيال والأزمان ، ليجد بعد ذلك كله هذا الجمال الفني المخلص ،
عصراً مستقلاً بجمهره ، خالداً في القرآن بذاته ، يتملاه الف في
عرلة من جميع الملابس والأعراض

وبن هذا الجمال ليملى وحده فيعي ، ويُسطر في تساوقه مع
الأعراض الأدبية فيرتفع في التقدير .

فلسطر إذن كيف فهم الناس هذا الجمال على مدى الأجيال

كيف فُهم القرآن

لا يستطيع أن نجد في حديث العرب المعاصرين لروح القرآن صورة معينة هذا الجمال الذي سموه تارة شعراً ، وسموه تارة سحراً ، وإن استطعنا أن نلمح فيه صورة لما مشَّهم منه من تأثير لقد تلقَّوه مسحورين ، يستوي في ذلك المؤمنون والكافرون هؤلاء يسحرون فيؤمنون ، وهؤلاء يسحرون فيهربون . ثم يتحدث هؤلاء وهؤلاء عما مشَّهم منه ، فإذا هو حدث عامص ، لا يعطيت أكثر من صورة المسحور المبهور ، الذي لا يعلم موضع السحر فيما يسمع من هذا انظم العجيب ، وإن كان ليحس منه في أعماقه هذا التأثير الغريب

فهذا عمر بن الخطاب يقول في رواية : « فمما سمعت القرآن رَقَّ له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام » ويقال عنه في رواية به قال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! » .

وهذا الوليد بن المغيرة يقول وهو كافر بمحمد وقرآن ، لا يتهم بحبه أو موالاته « والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لم يحطم ، تحت ، وإنه يعلو وما يعلى » . ثم يقول : « ما هو إلا سحر يؤثر ، أم رأيتموه يفرق بين لرحل وأهله وولده ومواليه ؟ » . وهذا القرآن يصف أثره في نفوس المؤمنين به ، ونفوس الذين أوتوا العلم من قبله ، بأنه : « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلتج جلودهم ونفوسهم إلى ذكر الله » . و « إذا بتلى عليهم يحرون »

للأدقان سحداً ، ويقولون سحاح ربنا ، إن كان وعد ربنا ممعولاً ،
ويخرجون للأدقان يكون ويزيدهم خشوعاً »

وهؤلاء كفار قريش يقولون في الحجة الإنكار : « أساطير
الأولين اكتتب فهي تملئ عليه بكرة وأصيلاً » ، ثم يعمد واحد منهم
هو « النصر بن الحارث » إلى أساطير من قصص الأولين . فقصص
« أسفديار ودرسم » الفارسية الأصل ، فيتلوها على الناس في المسجد
حيثما يتبو محمد هذا القرآن ، ليصرفهم عن محمد وعن القرآن ،
ويهمهم لا يصرفهم ثم هم أولاء كفار قريش لا يحدون في هذا
كبه جدرى ، فيقولون : « لا تسمعوا هذا القرآن وانعوا فيه لعنكم
تعلون » |

هذا كله يقل ، وهذا كله يقع ، فلا تحد فيه صورة واضحة
عن الحمل الذي في القرآن فالقوم في شغل عن بيان هذه الصورة
كما يتمونه بها في نفوسهم ، وما يحسونه بها في شعورهم وهم
حيارى مضطربون ، أو ملون مهطعون
وتلك مرحلة التدوق الفطري للمؤمن

* * *

فإد تجاوزنا عصر نزول القرآن ، رأينا بعض الصحابة يتعاطون
تفسير القليل منه اعتماداً على القليل المنقول عن النبي - صلى الله عليه
وسلم - وبعضهم يحاول في حذر وخشية أن يؤثروا بعض الآيات ،
وبعضهم يمتنع من هذا حيفة أن يكون فيه ما نهم ديني ، « كالذي
روى عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن شيء من القرآن
قال أنا لا أقول في القرآن شيئاً وقد اس سيرين . سألت عبيدة
عن شيء من القرآن فقال اتق الله ، وعليك « بسداد » فقد ذهب

الدين يعلمون فهم أول القرآن « وعن هشام بن عروة عن الزبير قال
« ما سمعت أبي يقول آية من كتاب الله »^(١)

وهذا كله إن دُبَّ على شيء ، وإنما يدلُّ ، إلى حسب التحرّح
الذي عني من السحر ، وروعة النهر ، وأمارات المفاجأة بهذا السق
لمعجز ، إلى حد الدهش والاستسلام

فما كان عصر التابعين من التفسير ممّواً مطرداً ، وبكهم كانوا
« يقتصرون في تفسير الآية على توضيح المعنى اللغوي الذي فهموه
من الآية بأحصر لمط ، مثل قولهم « غير متحابين لأنهم » أي
غير متعرضين لعصه ، ومثل قولهم في قوله تعالى : « وب ستقسموا
بالأرلام » كان أهل الحامية إذا أراد أحدهم حرواً أحد قدحاً
قدح هذا يأمر بالحروج ، فإن خرج فهو مصيب في سفره حيراً ،
ويأخذ قدحاً آخر فيقول هذا يأمر بالكوث ، فليس يصيب في
سفره حيراً ، والمبيح بينهما فهي الله عن ذلك فإن رادوا شيئاً
هو زوي من سب رسول الآية ثم راد من بعدهم التوسع في أخبار
اليهود والنصارى »^(٢).

ثم أخذ التفسير يعمو ويتصحم ابتداءً من أواخر القرن الثاني ،
ولكن بدلاً من أن سحت عن الجمال الفني في القرآن أحد يعرف
في مبحث قهية وحدلية ، وبحوية وصرفية ، وحلفية وفسفية ،
وتاريخية وأسطورية وبذلك صاعت الفرصة التي كانت مهياة
للمفسرين لرسم صورة واضحة للجمال الفني في القرآن

(١) حجر لإسلام للدكتور أحمد أمين

(٢) المصدر السابق

رجل - متأخر نوعاً - كان يقع له بين الحين والحين شيء من
 التوفيق في إدراك بعض مواضع الحسن النبي في القرآن ، - هو
 الزمخشري - وذلك كقوله في تفسير « و » سكت عن موسى
 العصب « كان العصب كان يعريه على ، فعل ويقول له
 « قل لقومك كذا ، وألق لألواح ، وجر برؤس أحيك إليك »
 وهو توفيق - كما ترى - محدود ، ينقصه التصور والوصح
 فإن أحمل ما في هذا التعبير هو « تشخيص » العصب ، كأنه يسكن ،
 يقول ويسكت ، ويعري ويعصت ، فهذا « التشخيص » هو الذي
 جعل للتعبير جماله ، وهو الذي أدركه الزمخشري ، ثم لم يحكم
 التعبير عنه ، « و » عرَّ عنه لغة زمانه فلا تريب عنه وكقوله في
 تفسير سورة العنكبوت . « إن العبد إذا افتتح حمداً مولاه الحقيقي بالحمد
 عن قلب حاضر ونفس دأكرة لما هو فيه بقوله . « الحمد لله »
 الدال على اختصاصه بالحمد ، وأنه حقيق به ، وخذ من نفسه لا
 محالة محركاً للإقبال عليه . فإذا انتقل على نحو الافتتاح إلى قوله :
 « رب العالمين » الدال على أنه مالك للعالمين ، لا يخرج منهم شيء
 عن مكنوته وروبيته ، قوي ذلك المحرك ثم إذا انتقل إلى قوله
 « الرحمن الرحيم » الدال على أنه معمم بأنواع أنعم حلائلها ودقائقها ،
 تصاعقت قوة ذلك المحرك ثم إذا انتقل إلى حاتمة هذه الصفات
 العظام ، وهي قوله « مالك يوم الدين » الدال على أنه مالك للأمر
 كله يوم الحراء ، ناهت قوته ، وأوجب للإقبال عليه ، وحطته
 بتحصيله بعاية الحصوع والاستعانة في المهمات « إياك بعد
 وإياك نستعين » .

فهذا نوع من التوفيق في تصوير التماسق النفسي ، بين الأحاسيس

المتنوعة المستعثة من تنوع الآيات وهو لون من ألوان التناسق الأولى في القرآن

ولقد حاول بعض المفسرين أن يعثروا على مواضع هذا التناسق فلم يصبوا إلا للترابط المعنوي في بعض المواضع دون بعضها الآخر ودون الاهتمام إلى قاعدة شاملة ثم إنهم في حين كثيرة تحفظوا في ذلك تحفظاً شديداً .

* * *

بني الباحثون في البلاغة وفي إعجاز القرآن ، وكان المستظر أن يصل هؤلاء - وقد حثي بينهم وبين البحث في صميم العمل الفني في القرآن - أن يصلوا إلى ما لم يصل إليه المفسرون ولكنهم شعروا أنفسهم بمناحت عقبة حول « اللفظ والمعنى » أيهما تكمن فيه البلاغة ، ومنهم من علب عليه روح القواعد البلاغية ، فأفسد الحمال الكلي المسق ، أو « صرف عنه إلى التقسيم والتبويب » ووصفوا في هذا وذلك في بعض الأحيان ، إلى درحة من الإسفاف لا تطاق

« نظر إلى تعبير جميل كهذا التعبير : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند رهم » هذا التعبير الذي يرسم صورة حية للحري في يوم القيامة ، ويصور هؤلاء المجرمين شحوصاً قائمة يتملاها الحيان ، وتكاد تصرها انعين لشدة وصوحها وتسجيل هيتها « ناكسو رؤوسهم » وعد من ؟ « عند رهم » فيحيل للسمع أنها حاصرة لا متحيلة هذه الصورة للهول لا تسوي من باحث في البلاغة إلا أن يقول « وأصل الحطاب أن يكون المعنى ، وقد يترك إلى غير معيّن ، كما نقول : فلان لثيم إن أكرمه أهلك ،

وإن أحسنت إليه أساء إليك فلا ترد محطاً بعينه ، بل تريد
 أن أكرم وأحسن إليه ، فتخرج في صورة الخطاب بعيد العموم ،
 أي إن سوء معاملته غير مختص بواحد دون واحد وهو في لقرآن
 كثير كقوله تعالى . «ولو ترى إلى المحرمون نكسوا رؤوسهم عند
 ربه» أخرج في صورة الخطاب لما أراد العموم لنقص إلى تعظيم
 حالهم ، وأنها تناهت في الظهور حتى امتنع حفاظها فلا تختص بها
 رؤية راء ، بل كل من يتأتى منه الرؤية داخل في هذا الخطاب «
 وهذا تطوى تلك الصورة الصية الحية ، وسهي إلى أن يكون
 «تفطيعاً لحالهم التي تناهت في الظهور»

ثم انظر إلى تعبيرات مصوره أخرى «ويفح في الصور فصعق
 من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله» ثم يفح فيه
 أخرى ، فإذا هم قيام يظرون «وبوم سير الجدل وتري الأرض
 بارزة» وحشرناهم فلم يعادر منهم أحداً «وبادى أصحاب
 النار أصحاب الجنة» أن أقبصوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله .
 قلوا : إن الله حرمهما على الكافرين»

إن هذه الصور اشاحصة الحفلة بالحركة والحياة ، حتى
 لتتبعها العين والأذن والحيال إن هذه الصور كلها لم تستحق من
 بحث في السلاعة إلا أن يقول «لتعبر عن المستقبل بلفظ الماضي
 نسباً على تحقق وقوعه ، وأن هو ليقوع كاتوقع»

فكل ما لفت نظره إذن هو لكلمات «فصعق وحشرناهم
 وبادى» وبماؤها بماضي ، وكان الأصل أن تصاع للمستقبل ،
 فعدل عن هذا نسباً على تحقق الوقوع !
 رحل واحد من الباحثين في السلاعة والإعجاز ساني لرمحشري

بدي ذكره هـكـ ، بلغ غاية لتوفيق بقدر ساحت في عصره .
هو « عند القاهرة اخرجاني » فلقد أوشك أن يصل إلى شيء كبير
في كتابه « دلائل الإعجاز » لولا أن قصة « المعاني والألفاظ »
طلت تحايل له من أول الكتب إلى آخره ، فصرفته عن كثير مما
كان وشيكاً أن يصل إليه ، ولكنه على الرغم من ذلك كله كان
أخذ حساً من كل من كتبوا في هذا الباب على وجه العموم ، حتى
في العصر الحديث !

وهذا مال من توفيقه التي كان موشكاً أن يصل فيها إلى شيء
حاسم ويحب أن يصير القارئ على طريقة التعبير ، فقد كانت هذه
الطريقة هي الزر الشائع في عصره ، وهي طريقة « الكلام » واسطق ،
بعد دحوها إلى لغة الأدب في ذلك الزمان

إن في الاستعارة ما لا يمكن يأنه إلا من بعد اعلم بالظم ،
وانوقوف على حقيقته ومن دقيق ذلك وحقيقته أنك ترى الناس إذا
ذكروا قوله تعالى « واشتعل الرأس شيباً » لم يربدوا فيه على ذكر
الاستعارة ، ولم ينسوا الشرف إلا إليها ، ولم يروا لعمري موجهاً سواها ،
هكذا ترى الأمر في طاهر كلامهم ، وليس الأمر على ذلك ، ولا
هذا الشرف العظيم ، ولا هذه امرية تحليلية ، وهذه الروعة التي
مدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة . ولكن لأن
بُسلت بالكلام طريق ما يُسد الفعل فيه إلى شيء ، وهو لما هو من
سبه ، فيرفع به ما يسد إليه ، ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى
مصعباً بعده ، مسبباً أن ذلك الإسناد وتلك السببة إلى ذلك الأول
بما كان من أجل هذا الثاني ، وما بينه وبينه من الاتصال ، كقوهم
طاب ريد به ، وقرّ عمرو عباً ، وتصب عرقاً ، وكرم أصلاً .

وحسن وجهاً ، وأشبه ذلك بـ تحذف الفعل فيه مفعولاً عن الشيء .
إلى ، ذلك الشيء من سبه ، وذلك ما نعلم أن اشتعل للشيب في
المعنى ، وإن كان هو للرأس في اللفظ ، كما أن طاب للنفس ،
وقر للعير ، ونصب للعرق ، وإن أسد إلى ما أسد إليه .

« بين أن الشرف كان لأر سُلِّك فيه هذا المسلك ، ونوحى به
هذا المذهب ، أن تدع هذا الطريق فيه وتأخذ اللفظ فتسند به إلى
الشيب صريحاً ، فتقول اشتعل شيب الرأس ، والشيب في الرأس ،
ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن ، وتلك الفحاحة ؟ وهل ترى الروعة
التي كنت تراها ؟ فإن قلت : فما السبب في أن كان « اشتعل »
إذا استعبر للشيب على هذا لوجه كان له الفصل ، ولم ير بالمرية
من الوجه الآخر هذه البيوتة ؟ فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب
في الرأس ، الذي هو أصل المعنى ، الشمول ، وأنه قد شاع فيه
وأخذ من نواحيه ، وأنه قد استقر به ، وعم جمته ، حتى لم يبق
من السود شيء ، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به ، وهذا ما لا يكون
إذا قيل : اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس ، بل لا يوجب
اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة ، ووراء ذلك أنك
تقول : اشتعل البيت بارداً ، فيكون معنى أن النار قد وقعت فيه
وقوع الشموع ، وأنها قد استولت عليه وأحدثت في طرفيه ووسطه ،
وتقول : اشتعلت النار في ليل ، فلا يفيد ذلك ، بل لا يقتضي
أكثر من وقوعها فيه وإصابتها حطباً منه ، فأما الشموع وأن تكون
قد استولت على البيت وانتزعت فلا يعقل من اللفظ البتة .

« ونظر هذا في التبريل قوله عز وجل « وحرنا الأرض
عيوناً » التصحير لعبود في المعنى ، ووقع على الأرض في اللفظ ،

كما أسد هناك الاشتعال إلى الرأس وقد حصل بذلك على معنى
 الاشتعال هنا مثل الذي هناك وذلك أنه قد أود أن الأرض قد
 كانت صارت عيوباً كلها ، وأن الماء قد كان يهوى من كل مكان
 فيها ، وبو أحري اللفظ على ظاهره فقيل : « وفجر عيون الأرض » .
 أو العيون في الأرض ، لم يعد ذلك ، ولم يد عليه ، ولكن المفهوم
 منه أن الماء قد كان فار من عيون متفرقة في الأرض ، وتحسن من
 أماكن فيها » .

رحم الله « عبد القاهر » لقد كان السع منه على صفة معول
 فلم يصرف ٢ إن الحمل في « اشتعل الرأس شيئاً » ، وفجر الأرض
 عيوباً هو في ذلك الذي قانه من ناحية الطم ، وفي شيء آخر
 وراءه ، هو هذه الحركة التحيلية السريعة ، التي يصورها التعبير
 حركة الاشتعال التي تشاوب الرأس في لحظة ، وحركة التصحر التي
 تهور ٣ لأرض في ومضة فهذه الحركة التحيلية تنمى لحسن
 وتثير الحبال ، وتشرك النظر والتحيلة في تدوؤ الحمل وهي في
 « واشتعل الرأس شيئاً » أوضح وأقوى لأن حركة الاشتعال هنا
 حركة مموحة للشيب وليست له في الحقيقة ، وهذه الحركة هي
 عصر الحمل الصحيح يدل على ما نقول ، إن الحمل في هولك
 « اشتعل البيت ناراً » ، لا يقاس ولا يقرب من قول القرآن « اشتعل
 الرأس شيئاً » ، هي التعبير بالاشتعال عن الشب حمل ، وفي
 إسناد الاشتعال إلى الرأس حمل آخر ، يكمل أحدهما الآخر
 ومن كديها ، لا من أحدهما ، كان هذا الحمل البهر ١ وهذا هو
 الذي وقف دونه عبد القاهر ، وإن كان يبدو أنه كان يحسنه في
 صميره ، ولا يصوره كمالاً في تعبيره وليس لنا على أية حال أن

مطالبه بالتعبير في لغة عصرنا الأخير يرحمه الله !

* * *

وأياً ما كانت تلك الجهود التي بذلت في التفسير وفي مباحث
البلاغة ولإعجازها وقصت عدد حدود عقلية النقد العربي القديمة ،
تلك العقلية الحرة التي تتجاوز كل صغى حدة ، فتحلله وتبرر
الحكام القوي فيه - إلى الحد الذي تستطيع دون أن تتجاوز هذا إلى
إدراك الخصائص العامة في العمل الفني كله

هذه ، لظاهرة قد برزت في البحث عن بلاغة القرآن ، فم
محاول أحد أن نحاور النص الواحد إلى الخصائص الفنية العامة
التي لا ما قيل في تناسق تركيب القرآن وألفاظه ، أو استيفاء
نظمه لشروط الفصاحة والبلاغة المعروفة وهذه ميراث - كما كان
عبد القاهر بحق - لا تذكر في مجال الإعجاز ، لأنها ميسرة لكل
شاعر وكاتب شغ عن الطوق .

وبوقوف الباحثين في بلاغة القرآن عند خصائص النصوص
المجردة ، وعدم تحاورها إلى الخصائص العامة ، وصلوا إلى المرحلة
الثانية من مراحل النظر في الآثار الفنية ، وهي مرحلة الإدراك لموضع
الحكام المتفرقة ، وتعليل كل موضع منها تعبلاً منفرداً . ذلك مع
ما قلناه من أن هذا الإدراك كان بدائياً ناقصاً .

أما المرحلة الثالثة - مرحلة إدراك الخصائص العامة - فلم
يصور إليهم أبداً ، لا في الأدب ، ولا في القرآن . وبذلك بقي أهم
مزايا القرآن الفنية مغفلاً حافياً وأصبح من الضروري لدراسة هذا
الكتاب المعجز من منهج للدراسة حديد ، ومن بحث عن الأصول
العامة لحكام الفني فيه ، ومن بين سمات المطردة التي تتميز هذا

الحمان عن سائر ما عرفته اللغة العربية من أدب ؛ وتفسر الإعجاز
الذي تفسيراً يستمد من تلك السمات المتفردة في القرآن الكريم
وإن هـذا الكتاب العظيم لخصائص مشتركة ، وطريقة موحدة ،
في التعبير عن جميع الأعراض ، سواء كان الغرض تشييراً أم
تحذيراً ، قصة وقعت أو حدثاً سيقع ، مطلقاً للإقبح أو دعوة
إلى الإيمان ، وصفاً للحياة الدنيا أو للحياة الأخرى ، تمثيلاً لمحموس
أو ممومس ، إبرازاً لظاهر أو لمضمّر ، بياناً لحاضر في الضمير
أو لمشهد منظور

هذه الطريقة الموحدة ، هذه القاعدة الكبيرة هي التي كتب
من أجلها هذا الكتاب .. هي . « التصوير الفني » !

التصويرُ الفنيُّ

التصوير هو الأداة المفصلة في أسلوب القرآن فهو يعبر
 « بصورة لمحة المتحله عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن
 الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن المودح الإنساني
 والطبيعة البشرية ثم يرتقي بصورة التي يرسمها فيمسحها الحياة
 الشخصية ، أو الحركة المتجددة فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ،
 وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا المودح الإنساني شاحص
 حي ، وإذا الطبيعة البشرية محسنة مرئية فأما الحوادث والمشاهد ،
 والقصص والمناظر ، فيردها شاحصة حاضرة فيها الحياة ، وفيها
 الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر
 التحيل فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة ، وحتى
 يقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول ، الذي وقعت فيه أو ستقع ،
 حيث تتولى المناظر ، وتتجدد الحركات ، ويسى المستمع أن هذا
 كلام ينلى ، ومثل يصرب ، ويتحيل أنه منظر يعرض ، وحادث
 يقع فهذه مشحوص تروح على اسرح وعدو ، وهذه سمات الامعان
 شتى الوجدانات ، المسعثة من الموقف ، المتسوقة مع الحوادث ،
 وهذه كلمات تتحرك في الألسنة ، فتم عن الأحاسيس المصبرة
 إنها الحياة هنا ، وليست حكاية الحياة

فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصوّر المعنى الذهني والحالة
 النفسية ، وتشخص المودح الإنساني أو الحادث الروي ، إنما

هي ألفاظ حاملة ، لا ألوان تصور ، ولا شعوص تعبر ، أدركنا
بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن

والأمثلة على هذا الذي نقول هي القرآن كله ، حيثما نعرض
لعرض من الأعراس التي ذكرناها ، حيثما شاء أن يعبر عن معنى
مجرد ، أو حالة نفسية ، أو صفة معنوية ، أو نموذج إنساني ،
أو حادثة وقعت ، أو قصة ماضية ، أو مشهد من مشاهد القيامة ،
أو حالة من حالات المعجم والعذاب ، أو حيثما أراد أن يصرب مثلاً
في جدل أو محاجة ، بل حيثما أراد هذا الجدل إطلاقاً ، واعتمد
فيه على الواقع المحسوس ، واستحيل المصور

وهو هو الذي عييه حيثما قلنا « إن التصوير هو الأداة
المفصلة في أسلوب القرآن » ليس هو حبة أسلوب ، ولا قلته
تقع حيثما اتفق ، بل هو مذهب مقرر ، وخطوة موحدة ، وخصيصه
شاملة ، وطريقة معينة ، يصر في استخدامها بطرائق شتى ، وفي
أوضاع مختلفة ، ولكنها ترجع في النهاية إلى هذه القاعدة الكبيرة
قاعدة التصوير

ويجب أن نتوسع في معنى لتصوير ، حتى يدرك آفاق التصوير
الذي في القرآن . فهو تصوير باللون ، وتصوير بالحركة ، وتصوير
بالتحليل ، كما أنه تصوير بالعمق تقوم ألوان في التمثيل
وكثيراً ما يشارك الوصف ، والحوار ، وحرص الكلمات ، وجمع
العبارات ، وموسيقى السياق ، في إبراز صورة من الصور ، تتماهى
العين والأذن ، والحنس والخيال ، والفكر والوحد

وهو تصوير حيّ منزع من عالم لأحياء ، لا ألوان مجردة
وحطوط حاملة تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات ، بالمشاعر

والوحدات فاندعني رسم وهي تتفاعل في هوس آدمية حية ،
أو في مشاهد من الطبيعة تجمع عليها الحياة

* * *

والآن تأخذ في ضرب الأمثال :

ونبدأ بالمعاني الذهبية التي تخرج في صورة حسية .

١ - يريد أن يبين أن الدين كفروا لن يأنوا القول عند الله ،
ولن يدخلوا الجنة إطلاقاً ، وأن القول أو الدخول أمر مستحيل
هذه هي الطريقة الذهبية للتعبير عن هذه المعاني المجردة ولكن
أسلوب التصوير يعرضها في الصورة الآتية .

﴿إِنَّ الدِّينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَسَكَرُوا عَنْهَا ، لَا تَفْتَحُ هُم
أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَلَا يَدْخُلُونَ فِيهَا ، حَتَّى يَخْرُجَ لِحْمَلُ فِي سَمِّ الْحَيَاطِ﴾

ويدعك ترسم بحيث صورة تفتح أبواب السماء ، وصورة
أخرى لروح الحمل العليظ في سم الحيات ، ويختار من أسماء الحمل
العليظ اسم « الجمل » خاصة في هذا المقام ، ويدع للحسن أن
يتأثر عن طريق التحيل - للصورتين ما شاء له التأثير ، ليستقر في
النهاية معنى القول ومعنى الاستحالة ، في أعماق النفس ، وقد ورد
إسها من طريق العين والحس - تحيلاً - وعبراً إليها من مسود شتى ،
في هيئة وتردة ، لا من مسود الدهر وحده ، في سرعة الدهر التحريضية
٢ - ويريد أن يبين أن الله سبصع أعمال الذين كفروا كأن
لم تكن قبل شيئاً ، وستصير إلى غير عودة فلا يملكون لها رداً ،
فيقدم هذا المعنى مصوراً في قوله :

﴿وَقَدْ مَاتَ إِلَى مَا عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ ، فَجَعَلَهُ هَاءَ مَثْوً﴾

ویدعك تحیل صورة اھء المنشور ، فتعطيك معنی أوضح
وآكد ، للصیاع الحاسم المؤكد

٣- أو یرسم هذه الصورة انطوالة بعض الشيء لهذا المعنی نفسه .

﴿ مَثَلٌ لِّدَیْسٍ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ
الرَّیْحُ فِی یَوْمٍ عَاصِفٍ ، لَا یَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَی شَیْءٍ ﴾

فتزید الصورة حركة وحیاء ، بحركة الریح فی یوم عاصف ،
تدرو الرماد وتذهب به دداً ، إلى حیث لا یتجمع لداً

٤- ویرید أن یبین بیداس أن الصدقة التي تدل ریاء ، والتي
یتعها المن والأدی ، لا تنمر شیئاً ولا تقی . ففعل إلیهم هذا المعنی
المجرد ، فی صورة حسیة متحیة علی النحو التالي

﴿ یَا أَیُّهَا الَّذِیْنَ آمَنُوا لَا تُنْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَى ،
كَالَّذِی یُثَبِّقُ مَالَهُ بَيْنَ رِئَاءِ النَّاسِ ، وَلَا یُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْیَوْمِ الْآخِرِ مِثْلَهُ كَمِثْلِ
صَفْوَةٍ عَلَیْهِ ثُرُبٌ ، فَأَصَابَهُ وَاسٌ فَهَرَكَهُ صَلْدًا ﴾

ویدعهم یتملكون هیئة الحمر الصلب المسوي ، عطفه طقه
حفیفة من لثراب ، فطُت فیة الحصونة ، فإذا وابل من انطر
یصبه ، وبدلاً من أن یمیته للخصب والسواء - كما هی شیمة
الأرض حیث تحودها السماء - إذا به - كما هو للطور - بتركه
صدداً ، وتذهب تلك الطبقة الحفیفة التي كانت تستره ، وتحیل
فیة الحیر والحصونة .

ثم یمضي فی التصویر لإبرار المعنی المقابل لمعنی الریاء ، ومعنی
الدهاب بالصدقة التي یتعها المن والأدی

﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتشتاً من أنفسهم ، كمثل حبة زرقاء ، أصغر من رطل ، فانت أكلها صغيرو ، فإن لم يصنها رطل فطل﴾

فهذه الوحة الثاني لنسورة ، والنصفحة المقبلة للنصفحة الأولى ، فهذه الصدقات التي تُنفق ابتغاء مرضاة الله ، هي في هذه المرة كالخنة ، لا كحصنة من تراب ، وإذا كانت حصنة التراب هناك على وجه صفوان ، فالخنة هي فوق روبة ، وهذا هو الواسل مشتركاً بين الحاليتين ، ولكنه في الحالة الأولى يمحى ويمحق ، وفي الحالة الثانية يُزنى ويُحصب في الحالة الأولى يصيب الصفوان ، فكشف عن وجه كالح كالأدى ، وفي الحالة الثانية يصيب الخنة ، فيمتزج بالترمة ويخرج « كُلاً » ولو أن هذا رطل لم يصيب ، فإن لم يصيب الحصص والاستعداد للإسبات ، ما جعل القلب من المطر يهرها ويحييها ! « فإن لم يصبها رطل فطل »

ولا أريد أن أعرض هنا لذلك التماسق العجيب في جو الصورة ، وفي تماثل خريئاتها ، وفي توريح هذه خريئات على الرقعة فيها حيث يكون الصفوان تُعشيه طبقة حبيبة من التراب ، مثلاً للنفس المؤدية تعشيه الصدقة تبدل به (والرء ستر رقيق يحوي القلب العليظ) وحيث توضع الخنة فوق روبة ، في مقام الحصنة من التراب فوق الصفوان

فهذه التقسيم والتوزيع ، وهذه التقاسم والتسبيق ، متروك كنه إلى فصل سيحيى من فصول هذا الكتاب .

٥ - ثم يعود إلى ذلك المعنى مرة أخرى فيقول .

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ،
أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأُهْلِكَتْ﴾

يرسم صورة الحَرْث تأخذه الريح فيها تَرْدُ يصرَب الريح ولتأثر
فيهلكها ، فلا مال لصاحب الحَرْث منه ، كان يرحو بعد الجهد فيه ،
كذي ينفق ماله وهو كافر ، ورحو الخير عبد أتق ، فيذهب
الكفر كما كان يرحوه .

ولا يكون ما في جرس كلمة « صِرٌّ » من تصوير مدلولها ،
وكانما هو قدائف صغيرة تطلو على الحَرْث فتهلكه وندك لوب
من التناسق ، سعرض به كذلك في فصله الحاص

٦- ويريد أن يُرر معنى أن الله وحده يستحيب لمن يدعووه ،
وسيله ما يرحوه ؛ وأن الآهة التي يدعوها مع الله لا تملك هم شيئاً ،
ولا تبيلهم حيراً ، ولو كان الخير قريباً ، يرسم هذا المعنى هذه
الصورة العجيبة :

﴿بِهِ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ
شَيْئاً ، إِلَّا كَنَاسِطٍ كُفِّهِ إِلَى إِمَاءٍ لِيُسَّعَ فَاةٌ ، وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ،
وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

وهي صورة تلح على المحس والوحدان ، وتحدث إليها الاتهامات ،
فلا يستطيع أن يتحول عنها إلا بجهد ومشقة ؛ وهي من أعجب الصور
التي يستطيع أن ترسمها الألفاظ شحص حي شاحص ، وسط
كفبه إلى الماء ، وإماء منه قريب ، يريد أن يُبلعه فاه ، ولكنه لا
يستطيع ، ولو مدَّ مَدَّةً فرما استطاع !

٧- ويبين أن الآهة الذين يُعدون من دون الله ، لا يسمعون

ولا يحبون ، لأنهم لا يعون ولا يشعرون ، وأن دعاء عبادهم لهم عبث لا طائل وراءه ، يبحثار صورة تيس هذا المعنى ، ونجسم هذه الحادة ، وتلمس المحس والنفس بأقوى مما تلمسهما العبارات العادية ، عن المعاني الذهبية .

﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ضُمُّ نَكْمٍ عُمِّيٍّ هُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

هكذا يعي الكفار كما لا يسمع ، ويبادون ما لا يفهم ، فلا يصل إليه من أصواتهم إلا دعاء منهم ، ونداء لا يفهم هؤلاء الآلهة لا يميرون بين الأصوات ولا يفهمون مراميها وهذا مثل ، ولكنه صورة شاحصة صورته جماعة يدعون أنه تصل إليها أصواتهم مبهمة ، فلا تفهم مما وراءها شيئاً ، وفي تتجلى عجلة الداعين وعبث دعوتهم ، بحسب عجلة المدعوين واستحالة إحسانهم !

٨- ويريد أن نجسم ضعف هؤلاء الآلهة ، أو الأوياء من دون الله عامة ، ووهن الملحق الذي يلحق إياه عبادهم حين يحسمون حمايتهم ، فيرسم لهذا كله صورة مزدوجة .

﴿مثل الذين اتحدوا من دون الله أوياء ، كمثل العنكبوت انحلت بيتاً ، وإن أوقس السوت لبيت العنكبوت ، لو كانوا يعملون﴾

فهم عاكس صفة واهنة ، تأوي من حبي هؤلاء الآلهة أو لأوليائهم بيت كبوت العنكبوت أوهم وأصا ، «وإن أوهم السوت بيت العنكبوت» ولكنهم لا يعملون حتى هذه الدبئية

امطورة ، فهم يصيرون إلى الصعب والوهن ، جهلاً وعمى .
 حتى ليحززون من إدراك البديهي امطور
 ٩- ويريد أن يبين أن الذي يشرك بالله ، لا مَسَتْ له ولا حدود .
 ولا بقاء له ولا استقرار ، فيمثل هذا المعنى بصورة سريعة لخطوات .
 عبيدة الحركات .

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ ، فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ، فَتَحَطَّمَهُ لَصَرٌ ،
 أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾

هكذا في ومضة يخر من السماء من حيث لا يدري أحد ،
 فلا يستقر على الأرض لحظة إن الصير تهبطه ، أو ن الريح
 لهوي به وهوي به في مكان سحيق ! حيث لا يدري أحد
 كذلك ! وذلك هو المقصود .

١٠- ويريد أن شب معنى الحرمان والإهمال في الآخرة
 لقولاء الذين أعصاهم الله الكذب من قبل الإسلام فأهلوه ، وعاهداهم
 على الأيمان فهداهوه ، ثم أحلفوه . انتعه بضع مادي قليل ، شأن
 من لا عهد به ، ولا احترام لكرمه ، فيرسم لهذا الإهمال المعوي
 صورة حسية

﴿ إِنَّا نَدِينُ النَّاسَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثُمَّ قُلُوبًا ، وَلَئِنْ
 لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يُرْكِبُهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

فبوصح معنى الإهمال لا بالمعنى الإهمال ، ونكس برسم الحركات
بدالة عليه لا كلام ، ولا نظر ، ولا تركية ، وإنما عدت لكم

° ° °

وكما بصور المعاني المجردة بصور الحالات النفسية والمعنوية

١- يريد أن يبرر الخيرة التي تنساب من يشرك بعد التوحيد ،
ومن يسوع قسه بن الإله الواحد والآلهة المعدادين ، ويتفرق إحساسه
بين هدى والصلال فبرسم هذه لصورة المحنة المتحيّنة

﴿ قُلْ : أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنِي وَلَا يَضُرُّنِي ، وَزُرْتُ
عَنِ عَقَابَاتِهَا بَعْدَ إِدْهَانِ اللَّهِ . كَالَّذِي سَتَقُوهُ الشَّاطِئُ فِي الْأَرْضِ ،
حَيْرَانٌ ، لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوهُ إِلَى الْهُدَى . ائْتِ . ﴾

فتر صورة هذا المخلوق لتعيس الذي استهونه الشياطين في
لأرض (ولفظ الاستهواء لفظ مصور لدلوه) وبإليته يتبع هذا
الاستهواء في تحفه ، فتكون به راحة ذي القصد الموحد - وبو
كان في طريق الصلاب - ولكن هناك من الحجاب الآخر ، إحوال
به يدعونه إلى الهدى ، ويسمونه « ائْتِ » وهو بين هذا الاستهواء
وهذا الدعاء « حيران » موزع القلب ، لا يسري أي الفريقين يحجب ،
ولا أي الفريقين يستك ، فهو قائم هناك شاحص متفت

٢- ويريد أن يكشف عن حار أوشت الدين يهني الله هم
المعرفة ، فيصرون مع كأن لم تهيا هم أبدأ ، ثم يعيشون بعد ذلك
حسطين ، تطردهم أنفسهم وأهوائهم ، عما عمو وما جهوا ،
فلا هم استراحوا بالعلة ، ولا هم استراحوا بالمعرفة ، فبرسم هم
هذه اشنة

﴿واتلُ عليهم نأ الذي آتينا ، فسمع منها ، فأتته الشيطان فكأن من العاوين ولو شد رعدة بها ، ولكنه أخذ إلى الأرض وأتبع هوه ، فثمة كمثل الكب ان تحمل عليه لهث . أو تتركه يلهث ﴾

وفي الصورة تحقير وتقدير - ودك عرص ذي لا شأن له هه- ولكم من لوحهه الفية صورة شاحصة ، فيها الحركة الدائفة وهي صورة معهودة ، فهي في تثبيت المعنى ابرد بها أشد وأقوى . وهكذا ينتهي العرص الديني بالعرص الهني ، كاشان في جميع الصور التي يرسمها القرآن .

٣- ويريد أن يوضح حالة التزعزع العقيدة ، حيث لا يستقر الإنسان على يقين ، ولا يحتمل ما يصادفه من الشدائد بقلب راسع ، ولا يحمل عقيدته في معزل عن ملاسات حياته ، بعيدة عن ميران النرج والحسارة فيرسم لهذا التزعزع صورة تهتر وترج ، وتوشك على الامهار

﴿ومر اناس من بعد الله على حرف ، وإن أصابته حير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، حير الدنيا والآخرة ﴾

إن الحيران ليكاد يحسم هذا «الحرف» الذي بعد الله عليه هذا العص من الناس ، وإنه ليكاد يتحيل الاضطراب الحسي في وقصم ، وهم يتأرجحون بين الثبات والافلاب ، وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع بأوضح مما يؤديه وصف التزعزع ،

لأنها تنطع في الحس ، وتتصل منه بالنفس
 وإني لأذكر الآن تلك الصورة التي درست في حبي وأنا
 طفل أقرأ القرآن في المدرسة الأولية ، حين وصلت إلى هذه الآية .
 نرى بعد تصوري الآن كثيراً عن هذه الصورة الساذجة ؟ لا أظن !
 ولا اختلاف الذي طرأ هو مجرد إدراك اليوم أن هذا مثل بُصر ،
 لا حقيقة تشهد . وذلك بحار التعبير الذي تتقارب في إدراكه
 شتى المدارك ، وتتصل في كل حالة إلى صورة حية ، مع اختلاف
 الألفاظ

٤ - وما هو سبيل من ذلك في عرص آخر غير هذا العرص ،
 تلك الصورة التي رسمها للمسلمين قبل أن يُسموا ، يوم أن كانوا
 معرضين لحكم بما هم فيه من الكفر ، فقال :

﴿ رَاعَتْكُمْ بِحَلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَادْكُرُوا رِعْمَةَ
 اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ أُعْدَاءً ، فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَأُضْحِكُمْ
 بِعِمَّتِهِ إِحْوَاناً ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَهْ حُفْرَةٍ مِنْ آسَارٍ ، فَأَقْذَكُمْ مِنْهَا ﴾

هكذا . « كنتم على شها حفرة من الدار » ، موشكين على
 الوقوع ، تكاد أقدامكم ترل مهورول وليس المهم ندبا - في هذا
 المحل - دقة التشبيه وصدقه ، إنما المهم أولاً هو هذه الصورة
 الفنية المنحركة الموشكة في الخيال على الزوال ولو استطاعت ريشة
 مصوّر بالألوان أن تدر هذه الحركة المتحيلة في صورة صدمية بكت
 راعة نحسب في عالم التصوير . ومصور يملك الريشة واللوحه
 والألوان ، وهب ألفاظ فحسب يصوّر في القرآن

ثم نطرق إلى جمال التعبير من زاوية أخرى . إذ يرسم هذه

الصورة ، ثم يجعل هذه الحفرة من النار ، ويحفظهم على شفها منها ،
 ويطوي الحية الدنيا كلها - وهي الفصل سيم وبين النار - ويحفظهم
 - وهم بعد أحياء ، وهم بعد في الدنيا - وقصص هذه البقرة ، على
 شف حفرة من النار ، حينما كانوا من الكفار !
 هـ - وشبهة هذه الصورة صورة أخرى ، لم نعلم سنده على
 غير التقوى .

﴿ أَفَمَنْ أَتَسَسَّ نُبَاهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ؟ أَمْ
 مَنْ أَتَسَسَّ نُبَاهُ عَلَى شِمَا جُرْفٍ هَارٍ ، فَسَاهَرَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ؟ ﴾
 فهنا قد أكمل الحركة الأخيرة ، التي كانت متوقعة هناك
 « فاسهارة في نار جهنم » وبدلت طوى الحدة الدنيا كلها ، دون
 أن يذكر ولو كلمة « ثم » في موضع « الماء » « فاسهارة » لأن
 هذا المدى الطويل ، قصير قصير ، حتى لا ضرورة لهذا « السراحي »
 القصير ! (وهذا هو من حمام العرص سيأتي تفصيله في فصل
 خاص) .

* * *

ومن بين الحالات النفسية التي يصورها القرآن ، ما يوسم
 « نمودجاً » إنسانياً واضحاً بلعبان
 مثال ذلك « من بعد الله على حرف » وقد تحدثت عنها هناك ،
 فتريد عنها هذه الأمثال .
 ١ - يريد أن تُشخص حالة العباد السحيق ، والمكبرة لعماء ،
 التي لا يجدي معها حجة ولا برهان ، فيبرر « بمودجاً إنسانياً » في
 هذه الكلمات .

﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء ، فطبوا فيه بغير حق (١) ، لعدوا ،
إما سكرت أنصار ، بل نحن قوم مسحورون ﴾
أو يقول :

﴿ولو برئنا عليك كتاباً في قرطاس ، فلمسوه بأيديهم ، لقال
الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين ﴾

٢ - ويريد أن سر أن الإنسان لا يعرف ربه إلا في ساعة
الصيق ، حتى إذا جاءه الفرح سبي الله الذي فرح عنه ولكنه لا
يقوله في مثل هذا لسق الذهبي ، كما يرسم صورة حافلة بالحركة
المتجددة ، والمشاهد المتتابعة ، ويرسم في حلاله « نموذجاً بديعاً »
كثير التكرار في بني الإنسان :

﴿هو الذي يُسيركم في الرّ والحر ، حتى إذا كنتم في الفلك ،
وخرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها ، جاءها ربح عاصف ،
وجاءهم الموح من كل مكان ، وطبوا أنهم أحبص بهم ، دعو الله
مُخْبِصين له الذين لئن أنجانا من هذه لكونن من الشاكرين ،
ظما أنجانهم ، إذا هم ينعون في الأرض بغير الحق ﴾

وهكذا تحا الصورة وتتحرك ، وتموح وتصطرب ، وترتفع
الأنفاس مع مروح السهبة وتنحصر ، ثم تؤدي في النهاية ذلك
بعضي المرء ، ببلغ أداء وأوده

٣ - ويريد أن يبرر حالة « مودح » من الناس طهرهم بعري ،
وباطهم يؤدي فيرسم لهم صورة كما يأتي .

(١) يصعدون

﴿ومن الناس من ينجح قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد﴾

يستعصم من اوصاف الحركة والتصرف ، ويرر المفارقة بين الظاهر والباطن ، في سق من الصور المتحركة في نفس والخيال ٤- ويريق من الناس ضعيف العقيدة ، ضعيف العزيمة ، مستور الحال ، لا يتبين صممه في فترة الرخاء ، فإذا حدث الحد ، وحده انشد ، طهر هذا الضعف على أنه هؤلاء يصورهم مودجاً واصحاً في هذه الكلمات :

﴿ويقول الذين آمنوا - لولا نزلت سورة ! إذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ، رأيت لدس في قلوبهم مَرَصٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمُعْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾

ومطر المعشي عليه من الموت معهود ، وهو إلا أن يذكر التعبير ، حتى تدر صورته في الصمير ، مصحوة بالسحرية والتحفير

٥- وقد يرر هذا «السودح» في حادثة مروية ، فيحاور الحادثة الخاصة ويحد مودجاً عاماً :

﴿ألم تر إلى الذين أتوا من بني إسرائيل من بعد موسى ، إذا قالوا ليسيهم - انعت لنا ميكاً نقاتل في سبيل الله . قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا ألا نقاتل في

سبيل الله . وقد أُخْرِجْنَا مِنْ دِمَارٍ وَأُنْدٍ ؟ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ
الْقِتَالُ نَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ! ﴿١٠﴾

وفي هذا أمثال يريد على الصعف ، بك اللحاحة في آدم
السم ، وإظهار الشجاعة والاستسار ، ثم الحور والحسن ، عندما
تحيى ساعة النصال !

وليس هذه حادثة تقع مرة ونصي ، ولكنه نموذج مكرّر
في بني الإنسان ، لا يتغيّر بالزمان والمكان .

* * *

وإلى هنا قصيرا الأمثلة على المعاني الذهبية ، والحالات النفسية ،
والمادح الإنسانية ، يحرّجها التعبير القرآني صوراً شاحصة أو متحركة ،
ويعدل بها عن التعبير المجرّد إلى الرسم المصوّر فلأحد الآر في
صرب الأمثلة على التصوير المشخص ، لمشاهد الحوادث الواقعة ،
والأمثال المضروبة ، والقصص المروية ، فبطريقة فيها واحدة ،
والشبه بها قريب :

١ - ها هو ذا يتحدث عن « المهرعة » في رسم ها مشهداً كاملاً
ترر فيه الحركات الطهرة والاصعالات المصممة ، وتلنّي فيه الصورة
الحسية بالصورة النفسية ، وكأنّ الحدث معروض من جديد ،
دون أن يعمل منه قبيل أو كثير :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ جَاءَكُمْ
خُذٌ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَخُذُوا مِمَّ رَزَقُوا ، وَكَانَ اللَّهُ عَمَّا تَعْمَلُونَ
صَبِيراً : إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قَوْفِكُمْ مِمْ اسْفَلَ سَكْم ، وَإِذْ زَاغَتِ
الْأَنْصَارُ ، وَتَلَعَتِ الْقُلُوبُ الْحَاجِرَ ، وَتَطُّونَ بِاللَّهِ الظُّلُومَ هُمَابٌ

اشتمى المؤمنين ورلرلوا رلرالا شديداً ، وإذ هوى المذفقون والدين في
فلوسهم مَرَصُ ، « ما وعدنا الله ورسوله إلا عُروراً » ، وإذ قامت طائفة
منهم : يا أهل بئر لا مقام لكم ، ارجعوا ، ويستأذن فريق منهم
النسي يقولون : إن بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، إن يُريدون
إلا فراراً ﴿

لأية حركة نفسية أو حسية من حركات الهريمة ، وأية سمة
ظاهرة أو مصمرة من سمات الموقف ، لم يبررها هذا الشرط الدقيق
المتحرك ، المساوق في حركته لحركة موقف كله ؟

وهؤلاء هم الأعداء يأتون المؤمنين من كل مكان ، وهذه هي
الأنصار رائحة والنفوس صائقة ، وهؤلاء هم المؤمنون يرلرلون رلرالا
شديداً ، وهؤلاء هم المذفقون يستغيثون بالنسة والتجديل يقولون
« ما وعدنا الله ورسوله إلا عُروراً » ، ويقولون لأهل المدينة لا
نقد لكم هنا ارجعوا إلى بيوتكم فهي في خطر ، وهؤلاء هم جماعة
من صغار القلوب يقولون : إن بيوتنا مكشوفة ، ويبست في حقيقها
مكشوفة ، « إن يُريدون إلا فراراً » .

وهكذا لا تُفتم في الموقف حركة ولا سمة ، إلا وهي مسجلة
ظاهرة ، كأنها شاحصة حاصرة تلك حدثه وقعت بالفعل
ولكن صورتها رسم « الهريمة » مطفة من كل ملاسة ، وما يريد
عنها أو يقص منها إلا جريئات في الواقع ، أما الصورة النفسية
محاللة تتكرر في كل زمان ، حيناً انتفى جمعان ، وتعرض أحدهما
بخللان .

٢- وقرب من هذه الصورة صورة أخرى للهريمة أيضاً ،

وهي كذلك صورة ناقية ، لا حادثة مفردة ، وذلك حيث يقول

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُمُ ابْنُ آدَمَ ، حَتَّى إِذَا فُشِّتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَغَضِبْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيُتَبَّحَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَمَّا عَلَيْكُمْ ، وَاللَّهُ دُو قُصَلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ ، وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ۖ فَأَثَابَكُمْ عَمَّا بَعَثَ ، لَكِي لَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللَّهُ حَيُّرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ، ثُمَّ أَوَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدِ الْعَمِّ أَمَّةٌ تُعَاسَى بِغَشَى طَائِفَةٍ مِنْكُمْ ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ لَحَقَّ صَرْحًا حَاسِبَةً ، يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ۚ أَوَلَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، يَخْصِمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ . لَوْ كُنَّا لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۚ ﴾

ليحيل إلي أي أشهد انظر السحطة بكل من فيه وكل ما فيه ١

ثم تأخذ في عرض سادح من الأمثال القصصية التي تصر في القرآن .

١ ها نحن أولاء أمام أصحاب الحقة . حقة لدينا لا حقة الآخرة - وها هم أولاء يبيتون في شأنا أمراً لقد كان للفقر ، حظ من ثمر هذه الحقة ، ولكن الورثة لا يشاءون . إسمهم ليريدون

(١) تتناصلوهم بالقتل

أَنْ سَتَأْتُوا ۖ وَحَدَّهْم ، وَأَنْ يَحْرَمُوا أَوْثَاقَ الْمَسْكِينِ حَصَصَهُمْ
فَلَسَطَ كَيْفَ يَصْعُقُونَ :

﴿ إِنَّا نَنْوِيهِمْ كَمَا نَلَوْنَا أَصْحَابَ الْحَنَةِ ، إِنْ أَقْسَمُوا لَبَصُرُوهَا
مُصْبِحِينَ ، وَلَا تَسْتَشْنُونَ ﴾ .

لقد قرَّ رأيتهم على أن يقطعوا تمرها عند الصباح الباكر ، دون
أن يستشيروا منه شيئاً للمسكين فبدعهم على قرارهم ، ولسط
ماذا يقع الآن في مهمة السبل ، حيث يحتفون هم ، ويخلو مهم
المسرح فدا يرى البطارة ؟ هناك معاجزة تتم حلقة ، وحركة حصة
كحركة الأشباح في الظلام ! « فطاف عليها طائف من ربك وهم
نائمون ، فأصاحت كالصريم ^(١) » . وهم لا يشعرون

والآن هم أولاء تصيحون مسكرين ؟ وهم لا يدرون ماذا
أصاب جنهم في الضلام . « فنادوا مُصْبِحِينَ ، أَنْ أَعْلُوا عَلَى
حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ^(٢) » فاطلقوا وهم متحافتون ألا يدحسها
اليوم عنكم مسكين !

ليمسك البطارة أنسهم فلا يسبوا أصحاب الحنة إلى ما أصاب
جنهم : وليكنمو صحنكات السحرية التي تكاد تسعث مهم ،
وهم شاهدون أصحاب الحنة المحدثين ، يشادون متحافتين ،
حشية أن يدحسها عليهم مسكين ! ليكنمو صحنكات السحرية !
بل ليطلقوها ! ها هي دي السحرية العظمى « وَاعْدُوا عَلَى حَرْثِ ^(٣) »

(١) كالمنطوعة النار

(٢) قاطعين للتمرها ، أو قاطعين فيما تنرون

(٣) مع وحرمات

قادرين « أحل ! إنيهم بقادرون الآن ، عني الملع واحرمان ، حرمان
أنفسهم على الأقل !

وها هم أولاء يباحثون ، فيصطحط الطائرة كما يشاعون .
« فلما رأوها قالوا : إنا لصلُّون » ما هذه حنتا الموقرة بالثر ،
قد ضللك إليها الطريق ؟ . فتأكدوا يا جماعة ! . « بل نحن
محرومون » .. وهذا هو الحبر البقي !

والآن قد سقط في أيديهم . « قال أوسطهم . ألم أقل لكم
لولا تسحون ! » اي والله ؟ هلاً سحتم الله وانقيتموه ؟ « قوبو .
سحان رب ، إنا كنا طالمين » الآن وبعد هوات الأوان !

وكما يتصل كل شريك من الشعة عندما تسوء العاقبة ، ويتوجه
باللوم إلى الآخرين . ها هم أولاء يصعرون . « فاقبل بعضهم
عني بعض يتلاومون ! »

ثم ها هم أولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعاً بالخطيئة ،
عسى أن يفيدهم الاعتراف العمران ، ويعوصهم من لحمة الصائفة
حمة أخرى . « قالوا : يا ويلنا ! إنا كنا طاعمين . عسى رؤا أن
يُبدلنا خيراً منها ، إنا إلى ربنا راغبون ! »

٢- والآن إلى صاحب جنة أخرى ، بل صاحب حنتين
أكبر من الأولى إن له لقصة مع صاحب « ، ليس من ذوي
الحداد ، ولكن من ذوي الإيمان . وكلاهما « نموذج إنساني » لطائفة
من الناس : صاحب الحنتين نموذج لمرحل الثري ، تذهله الثروة ،
وتطره العمة ، فيسسى القوة الكبرى ، التي تسيطر على أقدار الناس
والحياة ، ويحسب هذه العمة حائدة لا تصي ، من تحذله القوة
ولا الحدة وصاحبه نموذج لمرحل المؤمن المعتر بإيمانه ، الداكر

لربه ، يرى النعمة دليلاً على المعصية ، موحية لحمده وذكره ، لا
لحجوده وكفره .

﴿ وَاصْبِرْ هُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا حِجَّتَيْنِ مِنْ
أَعْيَابٍ ، وَحَقَّقْنَا لَهُمَا بِحُلٍّ ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا كِلْتَا الْحِجَّتَيْنِ
تَتَّكِلُهُمَا ، وَلَمْ نَطْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا ، وَفَحَّرْنَا جِلَالَهُمَا سِرًّا ، وَكَانَ لَهُ
نَمْرٌ ﴾

وهذا ترسم صورة الحيتين مكتومة ، في اردهار وفحامة
وهذا هو المشهد الأول فليطرق إلى المشهد الثاني

﴿ فَقَالَ صَاحِبُهُ - وَهُوَ يُحَاوِرُهُ - أَأَكْثَرَ مَعَكَ مَالًا وَأَعَزُّ مَعْرَةً ﴾
ويبدو أنه قال قوته هذه وهما في الطريق إلى الحيتين ، أو وهما على
أصابع ، إذ جاء بعده :

﴿ وَدَخَلَ حِجَّتَهُ وَهُوَ طَالِمٌ بِنَفْسِهِ قَانَ مَا أَطْعَمُ أَنْ تَبِيدَ
هَذِهِ بُدَاً ، وَمَا أَطْعَمُ السَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَشَرُّ رُدِّتُ إِلَى رَبِّي لِأَجْدَرُّ
خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ .

لها هو ذا في روح رهوه وبصره ، ونعاليه واردهاته قدما ترى
يكون أثر هذا كله في نفس صاحبه الفقير ، الذي لا جنة له ولا
مان ، ولا عصاة له ولا نهر ؟ إن صاحبه لمؤمن ، لما تُشْعِرُهُ كُلَّ
هذه المظاهر بالهوان ، وما تنسبه عزة ربه الديان ، وما تعفه عن
واحيه الصحيح ، في رد صاحبه البطر إلى حادثة الطريق ، ولو
استدعى ذلك أن يحبه بالتفريق ، وأن يذكره بمشقة الصعير من
التراب المهين :

﴿ قال له صاحبه - وهو يحاوره - أَكْفَرْتَ بِأَدْيِ حَقِّكَ
 مِنْ رَبِّكَ ، نِمِ مِنْ نُطْقَةٍ ، ثُمَّ سَوِّكَ رَجُلًا ؟ لَكِنَّهُ هُوَ اللَّهُ رَبِّي ،
 وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۚ وَلَوْلَا إِدْرَاجُنَا جَعَلْتَ قَتْلَ مَا شَاءَ اللَّهُ ،
 لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِنَّ تَرَكِي أَنْ أَقِلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَدَّ ، فَعَسَى رَبِّي أَنْ
 يُؤْتِنِي خَيْرًا مِنْ حَبِيبَتِي ، وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنْ سَمَاءٍ ، فَتَصْخِرَ
 صَعِيدًا زَلَقًا ، أَوْ يُضْحِكَ مَاؤَهَا عَوْرًا ، فَمَنْ تَسْتَطِيعُ لَهُ ضَلَا ۙ ﴾

وهنا ينتهي هذا المشهد بين الصاحبين . أحدهما منتفش كالديك ،
 ارداهما ، في جنة من ارداهما ، والآخر موقف بالله ، مستعز بالإيمان ،
 يذكر صاحبه ويؤثنه ، ويُبصره عما كان يجب أن يصح إدراى
 جنة . ويدعو أن صاحبه لم يستمع إليه - وهذا طبيعي في هذا
 الموقف فهو يقسو عليه قسوة الغاصب لديه ، ويدعو على جنته
 أن يرسل الله عليه الصواعق ، فتصيح حرداء منساء ، تزل فيها
 القدم وتترلق ، أو أن يصح ماؤها عائرًا لا يستطيع أن يظلمه ، فصلاً
 على أن يستخرجه . ثم يترق لصاحب وهما متعاضدان فليصر
 بعد ماذا يكون ؟

﴿ وأحبط شجره . فأضحى يَقلُّ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَتَقَى فِيهَا ،
 وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۙ ﴾

لقد اسحابت الله دعوة الرجل المؤمن المتحدى بلا ضرورة
 فلشبه صاحبه صاحبة يَقلُّ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَتَقَى فِيهَا ، وهي خاوية
 على عروشها ، ولندعه يدم . « يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا » ولسدل
 الستار على منظر الدمار والاستغفار .

والآن فلنعرض شطراً من قصص حفيظة ، بعد عرصا قصص
الأمثال

١ - لنعرض مشهداً من قصة إبراهيم ، وهو يجي الكعبة مع
ابنه إسماعيل ، وكما نحن شاهدهما يسيران ويدعوان لآل ، لا قبل
اليوم بأجبال وأرمان .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ
مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ، وَمِنْ
ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرْبَا مَسَاجِدَ ، وَتُبْ عَلَيْنَا يَا
رَبُّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَانْتَبِ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ،
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

لقد انتهى الدعاء ، وانتهى المشهد ، وأسدل الستار
هنا حركة عجيبة في الانتقال من البحر إلى الدعاء ، هي التي
أحييت المشهد وردته حاصراً فالخير « وإذ يرفع إبراهيم القواعد
من البيت وإسماعيل » كان كأي هو الإشارة برفع الستار ليظهر
المشهد البيت ، وإبراهيم وإسماعيل ، يدعوان هذا الدعاء الطويل
وكم في الانتقال هنا من الحكاية إلى الدعاء من إعجاز هي
نادر ، يريد وصوحاً لو فرصت استمرار الحكاية ، ورأيت كم
كانت الصورة تنقص بوقيل ، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت
وإسماعيل يقولان ربنا . إبح . بها في هذه الصورة حكاية .
وفي الصورة انقرايه حباة وهذا هو الفارق انكسر في الحياة في
المصن تشب متحركة حاصرة وسر الحركة كله في حذف لفظة
واحدة .. وذلك هو الإعجاز .

٢- ثم لمرص مشهداً من قصه الطوفان « وهي تجري بهم في موج كاحمال » وفي هذه اللحظة الرهبة ، تنسّ في موج عاطفة الأتوة ، فإن هناك إنساناً لم يؤمن ، وبه ليعلم أنه مُعَرَّق مع المعرقين ولكن هذا هو دا نوح يطعم ، فتعب « الإنسان » في هس نوح على « النبي » ، ويروح في هفة وصراعة سادي بيه جاهرًا « وبادي نوح به » وكان في معر « يا بني اركب معنا ، ولا تكرر مع الكافرين » ولكن السوء العاقبة لا تحصل هذه الصراعة ، والفتوة العانية لا ترى الخلاص إلا في فتونها « قال ساوي إلى جبل بعصمي من الماء » ثم ها هي دي الأتوة الملهوفة ترسل النداء الأخير « قال لا عصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » وفي لحظة تتعب صفحة الموقف ، فها هي دي الموجه العانية تنزع كل شيء « وحينئذ يبينها الموج فكأن من المعرقين »

إن اسمع ليمسك نفاسه في هذه اللحظات القصير ، « وهي تجري بهم في موج كاحمال » ونوح الوالد الملهوف يبحث بالنداء نور النداء ، واسه الفتى المعرور ، يأنى إجابته النداء ، والموجة لقوية العانية ، تحسم الموقف في لحظة سريعة عاطفة وإن أهول هذا نفاسه كداه في انفس الحية من المبالد والمولود كما نفاس كداه في الطبيعة - حيث يطعم نوح على الدرى والوديان وإيهما لشكاهتان ، في الطبيعة الصامتة ، وفي نفس الإنسان

• • •

ثم نستقل إلى مشاهد القيامة ، وإلى صور النعيم والعذاب ، فقد كان لها من التصوير الفني أوقى نصيب .

١- ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نَكُرُ ، حُشْعًا أَنْصَرُهُمْ ،

يخرجون من الأحداث كأنهم خراذ مُتَشَرِّ ، مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ،
يَقُولُ الْكَافِرُونَ : هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿

فهذا مشهد من مشاهد الحشر ، مختصر سريع ، ولكنه شاحص
متحرك ، مكتمل السيات والتحركات هذه جموع حارحة من
الأحداث في لحظة واحدة ، كأنها جراد منتشر (ومشهد الجراد
المعهود يساعد على تصور هذا المظهر العجيب) وهذه الجموع تسرع
في سيرها نحو الداعي ، دون أن تعرف إلى أين يدعوها ، فهو يدعوها
« إلى شيء نُكْر » لا تدرى . « حشعاً أنصارهم » وهذا يكمل الصورة ؛
ويعملها السمة الأخيرة وفي أثناء هذا الجمع والإسراع والحشوع
« يقول الكافرون هذا يوم عسر » فمداً بقي من المشهد يشخص بعد
هذه الفقرات القصير ؟ وإن السامعين يتحولون اليوم النكر ، وإذا
هو حشد من الصور صورهم هم - وإيهم من المعوثين - ينحني
في هرب الحي ، الذي يؤثر في نفس كل حي !

٢- وهذا مشهد آخر من مشاهد الإسراع والحشوع ، أشد
في النفس هولاً وأكمد في التصوير لوناً :

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ عَائِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ
لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَنْصَارُ مُهْطِعِينَ ، مُقْعِي رُؤُوسِهِمْ ، لَا يَرْتَدَّ
إِلَيْهِمْ ظَرْفُهُمْ ، وَأُقْبِلَتْهُمْ هَوَاءٌ ﴿

ربع صور متتابعة متواكبة ، أو أربعة مشاهد رواية واحدة ،
يتلو بعضها بعضاً في الاستعراض ، فتم بها صورة شاحصة في
الخيال ، وهي صورة فريدة بفرع والحل والرهة والاستسلام ،

يحللها طرّ كتيب سدهم ، يكمد الأنفاس ، وهي صورة ترسم كذلك
 في وسط حيّ هؤلاء آدميون ، بينهم وبين المستمعين صلة الحسن
 المشترك ، والحسن المنتشبه ، فهي ترسم في نفوسهم حياة ، ويصل
 الشعور من هؤلاء إلى هؤلاء ، مشاركة الوحدة والتجارب المحسوس
 وبذ. قرأه القارئ تحت رحمة الهول في حياته ، كأنما يلقاه .
 ٣- ثم تأتي صورة الهول العظمى ، التي لا تعي الأنفاس عيها ،
 فسقلها لتعبر عن نفسها .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ، إِنَّ رُبْرَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ
 يَوْمَ تَرَوْهُم تَذْهَلُ كُلُّ مُرْصِعَةٍ عَمَّا أَرَضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ
 حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ، وَلَكِنْ
 عَذَابُ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

مشهد حافل بكل مرصعة داهية عما أَرْضَعَتْ ، تنظر ولا ترى ،
 وتتحرك ولا تعي ، وكل حامل تسقط حمليها ، للهول المروع
 يتدحرج ، وبالناس سُكَارَى ، وما هم بِسُكَارَى ، يشدّ أسكر في
 نظراتهم الداهية ، وفي خطواتهم المترجعة مشهد مردحم بذلك
 الحشد المماوح ، تكاد العين تنصره بما الحيال يتملاه ، والهول
 انشاخص يدهمه ، فلا يكاد يلبق أقصده وهو هون حي لا يقاس
 بالحجم والنصحامة ، ولكن بوقعه في النفوس الآدمية المرصعات
 الداهيات عما أَرْضَعْنَ ، والحوامل الملقيات حملهن ، والسكاري
 وما هم بِسُكَارَى « ولكن عذاب الله شديد »

٤- وإذا كانت الصور الثلاثة المصاحبة ترسم الهول طاهراً
 للعيان ، فهناك صور لا يدركها إلا الوجدان .

﴿بِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَرٌّ يُغْنِيهِ﴾ ﴿وَلَا يَنْتَازُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾

إِنَّهُ لَا يُوَحِّدُ أَحْصَرَ مِنْ هَذَا وَلَا أَدَقَّ فِي تَصْوِيرِ اشْتِعَالِ لِقَلْبٍ وَالْهَكَرِ نَاهِمِ الْحَاصِرِ الْقَهَرِ ، حَتَّى لَا مَوْضِعَ لِسَوَاهِ ، وَلَا تَلَمَّتْ وَلَا اتَّهَ .

٥ - وَهَذَا مَوْقِفٌ آخَرٌ مِنْ مَوَاقِفِ الْبَعْثِ مَفْصَّلٌ بَعْضُ الشَّيْءِ ، وَمُؤَلَّفٌ مِنْ عِنْدِهِ مَشَاهِدٌ ، بَيْنَ كُلِّ مَعْنَى ، لِأَخَرٍ فَحِوَّةٌ يَعْلَمُهَا الْحَيِّينَ

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ ، وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ، وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾

وَهَذِهِ هِيَ الصَّيْحَةُ الْأُولَى أَخَذَتْهُمْ وَهُمْ يَحَادِلُونَ وَيَتَحَاصِمُونَ ، فَمِمَّا يَسْتَطِيعُونَ حَتَّى التَّوَصِيَةِ ، لِأَنَّهَا عَجَلَتْ بِهِمْ إِلَى الْقُبُورِ ثُمَّ

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ، فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَخْدَاتِ إِنَّ رَبَّهُمْ يَسْأَلُونَ قُلُوبًا يَا وَيْلَتَا ، مَنْ نَعَّثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ، وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ .

وَهَذِهِ هِيَ الصَّيْحَةُ لثَانِيَةً ، وَهِيَ هُمْ أَوَّلًا يَسْرِعُونَ مِنَ الْقُبُورِ إِلَى رَبِّهِمْ ، وَهُمْ فِي دَعْرِ وَدَهْشٍ ، يَتَسَاءَلُونَ . « مَنْ نَعَّثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ » ثُمَّ يَهْرِكُونَ عِيُونَهُمْ فَيَتَحَقَّقُونَ « هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ » . ثُمَّ :

﴿إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ، فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ، هَلْ يَوْمَ لَا تَنْطَلِمُ أَنْفُسٌ شَيْئًا ، وَلَا يُتَخَرَّوْنَ إِلَّا أَنْ كُمْ تَعْمَلُونَ﴾

وهذه هي الصبيحة الأخيرة « فإذا هم جميع لديها محصورون »
ولقد حضروا فعلاً ، ورتسم المشهد ، وها هم أولاء يتلقون
الحطاب ، على مرأى ومسمع ممن يقرأون الآن هذا الكتاب !
« وليوم لا تظلم نفس شيئاً ، ولا تحزُّون إلا ما كنتم تعملون »
٦ - وإذا تمَّ الحشر ، وانتدأ العرض ، فيها نحن أولاء أمام
مشهد جماعة كانت في الدنيا متوادة متحابّة ، وهي اليوم مشاركة
متدبرة كان بعضهم يُملي لبعض في الصلوات ، وكان بعضهم يتعالى
على المؤمنين ، ويهزأ من دعواهم في نعيم الآخرة

ها هم أولاء يقتحمون النار هوحاً بعد هوح هذا هو القوق
الأول . يُقل إليه بأ اقتحام القوق الثاني « هذا هوجٌ مفتحم
محكم » هذا يكون اعواب ؟ يكون . « لا مرحباً بهم ، إياهم صالوا
نار » ! فهل سكّنت لمشتومون ؟ كلا ! فيها هم أولاء يردون
« قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدّمتموه لنا ، فئس القرار »
وإذا دعوة جامعة « قالوا : ربما من قدّم لنا هذا فردّه عذاباً خبيثاً
في النار » !

ثم ماذا ؟ ثم ها هم أولاء يفتقدون المؤمنين . الذين كانوا
يتعالتون عليهم في الدنيا ويظنون بهم شراً ، فلا يروهم معهم مقتحمين .
« وقالوا : ما لك لا ترى رجالاً كما تعدّهم من الأشرار ؟ نخداهم
سحرياً ، أم راعت عيهم الأنصار ؟ » « إن ذلك لحقٌ نخاصمُ
أهل النار » . وإب لشهد اليوم هذا التحاصم كما لو كان حاضراً
في العباد ! وإن كل نفس آدمية لتحنس في حياها وقع هذا المشهد
وتتقيه ، وتحافز - لو ينفع الحذر - أن تقع فيه !

تلك مشاهد للعث والحشر ، وما يقع فيها من حوار بين
الشركاء ، وتناكر بين الأصدقاء . فليحرص صوّراً من النعيم والعذاب ،
بعد الحوار والعتاب :

١ - ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُرَمَّيْنًا ، حَتَّىٰ إِذَا حُيِّدُوا
فَتَحَّتْ أَبْوَابُهَا ، وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ، يَتْلُونَ
عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ، وَيُذَكِّرُوكُم بِلِقَاءِ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ؟ قَالُوا بَلَىٰ ،
وَنَكَّرَ حَقَّتْ كَيْدَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، هُنَّ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا حُيِّدُوا
وَفَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، صَبَرْتُمْ فادْخُلُوهَا
خَالِدِينَ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ
نَتُوبُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَخْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ .

وتكملة المشهد :

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ ، وَفُصِّي بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وبحسب أن المشهد درز واضح ، مسق الخطوات ، متتابع
الخرئيات ، لا يحتاج منا إلى توضيح أو بيان . فلنتابع خطوات
الفر يقين إلى ما حلف الجبران !

٢ - ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَثَمِ ، كَالْمُهْلِ يَغْنَى فِي

الطُّوبَى ، كَعْنَى الْحَمِيمِ حَذْوُهُ دَعْوُهُ إِلَى سَوَاءِ الْحَمِيمِ ، ثُمَّ
صُوتُوا قَوِّقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ دُقْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَرِيبُ
الْكَرِيمُ ! إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿١﴾

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْسَوْنَ مِنْ
سِدْرٍ مَشْدَسٍ وَاسْتَرَقَ مُتَقَابِسِينَ ، كَذَلِكَ وَرَوَّحَاهُمْ نَحُورَ عَيْنٍ ،
يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ وَاكْهَةٍ آمِينَ ، لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةُ
الْأُولَى ، وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْحَمِيمِ ﴾

٣- ويحتمل شاهد القيامة هنا ، بهذا المشهد المتعدد المناظر ،
النسوع الشاهد ، المتعدد في طريقة العرض والحوار

﴿وَبَدَى أَصْحَابُ الْحِجَةِ أَصْحَابَ آسَرٍ ، أَنْ قَدْ وَحَدْنَا مَا
وَعَدْنَا رَبُّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَحَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا بَلَى سَمِعْنَا
قَدْرًا مُؤَدَّدًا بِهِمْ : أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ ، وَتَعْلُوْنَهَا عِوَجًا ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ، وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا
بِسِيمَاهُمْ وَبَادَرُوا أَصْحَابَ الْحِجَةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، مِمَّا يَدْخُلُوهَا
وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ الدَّارِ قَالُوا
رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

﴿وَبَدَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ سِيمَاهُمْ ،
قَالُوا : مَا نَعْنَى عَنْكُمْ جَمْعَكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ

فَقَسَمْتُمْ لَا يَبْهَمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ؟ ادْخُلُوا الْحَنَّةَ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَخْزَنُونَ

﴿ وَبَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْحَنَّةِ أَنْ يُقْصُوا عَلَيْهِ مِنْ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

فها نحن أولاء أمام مشاهد يتوارى بعضها بعضاً

ها نحن أولاء أمام المؤمنين في الحنة ، والكافرين في النار
يبادي الأولون الآخرين : « قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ » - وفي هذا السؤال من التهم المزمرة ما فيه - ينجي - جواب من هناك « نعم » ! حيث لا مجال لتكرار أو محال وعندئذ يؤذن بينهم مؤذن : « أن نعمة الله على الطائفتين » .

ثم نحن أولاء أمام الأعراف - لفاصلة بين الحنة والنار - وعينها رحال يعرفون هؤلاء وهؤلاء ، فهم يتوجهون إلى أصحاب الحنة بالترحيب والسلام ، ويتوجهون إلى أصحاب النار بالتسكين والإيلام « أهؤلاء الذين أقسم لا يباهم الله برحمته ؟ » انظروا أين هم الآن ، إيهام في الحنة يتنقون التكريم !

وأخيراً ها هم أولاء أصحاب النار يستعيثون ، طالبين من أصحاب الحنة أن يقصوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله ، فليدبرهم من كل شيء فيص عرير ، فليقصوا منه على السهوين ولكن الجواب هو المعذرة والتذكير « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ »

نبت من صور الصرامة ، ومن صور الحور فيها والحصام ، ومن صور العيم فيها والعداب . فهل كان القارئ في أثناء استعراضها

يحسن أن هذا كله أتى في المستقبل البعيد ؟ أم يحسن أنه واقع في الحاضر المشهود ؟

أما أنا فقد سببت نفسي . وسببت في أمتعرض هذه المشاهد في ثوب القبيح ، وحسنتي أشهد في الواقع لا في الخيال . وذلك أثر الإعجاز في العرض والتشخيص ، وهو عجز يريد قيمته أنه . كما قلت مراراً . يعتمد على الألفاظ وحده في هذا التصوير

• • •

وبعد ، فقد كان من حق هذا الفصل أن ينتهي إلى هذا الحد ولكن هناك عرصاً من أعرض القرآن يبدو طبيعته بعيداً عن الأسلوب التصويري . لأنه مطلق وحذل ودعوة إلى الدين ، كان يتدرج إلى الفهم أن يكون الأسلوب الذهني هو الذي يسع فيه . فاستخدام الأسلوب التصويري - حتى في هذا العرض - له دلالة الخاصة على أن التصوير هو أداة المفصلة في أسلوب القرآن - وهذه هي القصة التي نعرضها في هذا الفصل - فلا عجب أن نلم بهذه الظاهرة الأخيرة . ونصير من الخذل التصويري بعض الأمثلة وإن كان هذا الحد فصل خاص سيجيء في آخر الكتاب

١ - هذه هي الصورة الأولى مشهد من مشاهد الطبيعة الصامتة أحاديده ينصب النظر إليه دليلاً على قدرة الله

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ؟ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ، يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾

هذه لوحة طبيعية مسقة بوجه إلهي البصر ، لينقل البصر ما

يره في النفس ، يقع في النفس ما يقع من الأثر لتؤم قدرة الله الذي خلق سبع سموات طاقاً ، وهي لوحة معروضة في كل حين ولكث تقرأ هذه الآيات ، فتنت إليها كأنما تعرض أول مرة في هذا النوح . وتنت طريقة القرآن في كل ما يوحه إليه النظر من مشاهد الطبيعة ، ومشاهد الحياة في جميع المرات

٢ - وهذه صبرة من مشاهد الطبيعة الصامتة كذلك ، ولكي في هذه المرة معروضة في الأرض لا في السماء

﴿ وفي الأرض قطعاً متحورات ، وحات من غدير ، وزرع ، ونحيل صنوان وغير صنوان ، يسقي ماءً وجر ، وفصل بعضها على بعض في الأكل ﴾ .

فهذا المشهد قديم مكرور ، تمر عنه العيون في عملة والنفوس ، وبكته يعرض لها كأنه حديد ، وإبه يكفيل حين تملأه العين أن يوقع في النفس أثراً وحدائياً حصاً فهذه القطع المتحاورت من الأرض محتفة في السات لا بل إن النوع الواحد من السات يختلف في الأشكال ، هردوح ومنهرد ، وحميه يسقي ماء واحد ، ولكن تختلف طعومه في الأكل وأما كانت هذه الملاحظات ، هرداه الأول إلى مشهدة مشهدة هذه اللوحة الطسعة التي يوحه إيه الأنظر ، لثراه سداهة المهمة والحس البصير ، بعد أن تملأه لأبصار

٣ - وهذا مطر من ماطر لصعه المحركة في الجو ، يعرضه خطوة خطوة ، وفي كل خطوة مشهد

﴿ الله الذي يرسل الرياح ، فتشر سحاباً ، فيسطره في السماء

كيف يشاء ، وَيَخْلَعُهُ كَيْسَفًا ، فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ جِلَالِهِ ،
 فَإِذَا أَصَابَ بَعْرَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عَصَاةٍ إِذَا هُمْ يَسْتَشْشِرُونَ ، وَإِنْ كَانُوا
 مِنْ قَبْلُ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُتْلِينَ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ
 اللَّهِ كَيْفَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، وَهُوَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ .

هكذا لوحة بعد لوحة ، رسات الرياح ، إثارة السحب سطه
 في السماء حعه مراكباً حروح المنظر من جلالة برول المنظر .
 استنثار من يصيبهم بعد أن كانوا شمس إحياء الأرض بعد موتها
 لتستقل من هذه المشهد المتتابعة بعد استعراضها للعين والحب ،
 وبعد تركها تؤثر في النفس على مهل إلى « إن ذلك لمُحْيِي
 الموتى ، وهو على كل شيء قدير » ، فيحيي هذا التقرير ، في
 أنسب الأوقات لتقرير

٤- ولئن كان المشهد الثالث في الهواء ، فالمشهد الرابع في
 لأرضين ، وهو من ذلك المشهد بسيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَهَلَكَ بِأَيْحَ فِي الْأَرْضِ ،
 ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، ثُمَّ يُهْبِجُ فَتَرَاهُ مُخْضَرًّا ، ثُمَّ يُجْعَلُهُ
 حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

فهذا مشهد من مشاهد الأرض كذلك متعدد الخطوات ،
 وهو يعرض في بطاء وتفصل ، وترك كل خطوة للعين مدة كافية
 للتأمل ، ولتنفس مدة كافية لتأثر هذا هو الماء يُزَرَّبُ مِنَ السَّمَاءِ ،
 فيسلك بياض للري ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج هذا

اررع ويصبح فتراه مصمراً ثم ييس فيصير خطماً و « ثم »
 في كل مرة يعطي هذه « المهنة » معين والنفس ، لتملي المشهد المعروف
 قل طيه ، وعرض المشهد التالي (وذلك من من تناسق العرض
 سيأتي تفصيله في الفصل الحاضر به)

٥ - وفي الجو مشهد أخرى حيه فهناك الطير التي تطير
 بأسطة أحنحتها ، صافاة أقدامها ، ثم تقبض أحنحتها كذلك عند
 الهبوط .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُوَقَّعِهِمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضُ ، مَا يُنْسِكُهُنَّ
 بِالْأَرْحَامِ ﴾

إيه مشهد واحد دو مطيرين مطر الطير ، سطات أحنحتها
 صافات أرحيها ، ومطرها كذلك قبضت وهي صوره حية
 مسحركة ، يراه اسس كل لحظة ، فمرون بها عافلين ، فهو
 بعث إليهم نذرهم ، ليروها ، بحس الشاعر المتأثر ، دليلاً على
 قدرته ورحمته

٦ وفي الأرض مشهد آخر متكرر ، يمر به اساس عافلين
 كذلك ، وفي تأمله وتنوع حركته الوثيدة التي تكاد تتم في الحجاب
 - وإن كانت معروضة في العود ما لمس النفس ، ويؤثر في
 الوجدان ، وبتنوع الفرصة لألوان شتى من التأملات ذلك منظر
 الطل الذي تليه الأحرار فسو ساكناً ، وهو ينحرك ببطء لطيف

﴿ أَلَمْ يَرِ بِرَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ - وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ،
 ثُمَّ حَمَلَ الشَّمْسُ عَلَيْهِ ذَنبِلًا ، ثُمَّ فَنَصَهُ إِبْرَاقًا ﴾

وفي هذا المشهد جمال طبيعي بعري الحبال بالحولان ، ويملي
لحواطير في الطيمان وكم في المشاهد المألوفة المكرورة ، يبدو
جديداً ، كأنما تتعلاها العين أول مرة ، حين تنحني إليه ، لحسن الشاعر
استفتح ، والعين المتيقظة للألوان

٧- وفي الأرض مشاهد أخرى لعل من أشدها أثراً في الحس
والهس تلك الرسوم الدوارس ، والربوع الحواري ، وم تحيله للحس
من صور الحياة العابرة ، ومن أشباح الأحياء للدائرة فهي مشاهد
للعين في لطاهر ، وينفس في الصمير ، والقرآن يوحه إليها النظر ،
ثم يرد الحبال إلى الحياة العابرة فيها ، الدائرة منها

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ كَانُوا أَشَدَّ مِمَّ قُوَّةً ، وَأَتَارَوْا الْأَرْضَ ، وَغَمَرُوهَا
أَكْثَرَ مِمَّ غَمَرُوهَا ، رَحَاءَ مِمَّ رُسُلِهِم بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ
بِظَنِّهِمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظُنُّونَ ﴾

♦ ♦ ♦

التصوير هو الأداة المنصنة في أسلوب القرآن ، وهو القعدة
الأولى فيه بساد ، وهو الطريقة التي يتناول بها جميع الأعراس ،
وهو الحصبصة التي لا يحطنها الباحث في جميع الأجزاء
وهذا الفصل هو مصداق هذا الكلام

التخييل الحسي والتجسيم

حينما نقول إن التصوير هو الأداة لمفصلة في أسلوب القرآن ،
والقاعدة الأولى فيه للسان ؛ لا يكون قد انبجس من الحديث عن
هذه الظاهرة الثمينة فإن وراء ذلك لغة تسحق أن يرد لها هذا
المفصل الخاص

فعلی أية قاعدة يقوم هذا التصوير ؟

لقد ألمع إلى شيء من ذلك في مفتتح الفصل السابق ، حينما
قلنا « إنه يعبر ، بصورة ملحمية لتجيله عن المعنى الذهني والحالة
الغيبية ، وعن المودح الإنساني والصبغة الشعرية ، كما يعبر ،
عن الحادث المحسوس ، والمشاهد المظور ؛ ثم يرتقي بالصورة التي
يرسمها ، فيمحو الحياة الشخصية ، أو الحركة المحددة ؛ وإذا
المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ،
وإذا للمودح الإنساني شاحص حي ، وما بحوادث والمشاهد ،
والقصص والمظفر ، فبردها شاحصة حاضرة ، فيها العجاة ، وفيها
لحركة ، وإذا أصاف إليها الحوار ، فقد استوفى لها كل عناصر
التخييل » .

وكل ما تقدم من الأمثلة في الفصل السابق يصبح برهاناً على
هذه الظاهرة ، وإن تكن مبفنة في ذلك الفصل كانت سريعة
محدد لبرهنة على أن التصوير هو الأداة لمفصلة في أسلوب القرآن
وبك في هذا الفصل لا مكتني بالإحالة على تلك الأمثلة ، ولقرآن

بين أدب حافل بالأمثلة الجديدة ونحن نختار منها هنا بعض ما به
دلالة خاصة على هذه الطريقة المعينة طاهرة التحليل الحسي
والتحسيم في ديك التصوير

قبيل من صور القرآن هو الذي يعرض صامتاً ساكناً - نعرض
في بقضي الصمت والسكون - ما أعلى تصور فيه حركة مصمرة
أو ظاهرة ، حركة يرتفع بها نفس الحياة ، وتعلو بها حرارتها
وهذه الحركة ليست مقصورة على مشهد القصص والحوادث ،
ولا على مشاهد القيامة ، ولا صور النعم والعذاب ، أو صور البرهة
والحدود بل إنها تنحط كذلك في مواضع أخرى لا نستطع أن
نلحظ فيها

ويجب أن سه إلى نوع هذه الحركة ، فهي حركة حية ، تنصر
به الحياة الطاهرة للعيد ، أو الحياة المصمرة في الوجدان هذه
الحركة هي التي سميها « التحيين الحسي » ، وهي التي يسير عليها
التصوير في القرآن لث الحياة في شتى الصور ، مع اختلاف الشبث
والألوان

وطاهرة أخرى تنصح في تصور القرآن وهي « التحسيم »
تحسيم المعنويات المحرودة ، وإبرازها حساساً أو محسوسات على
العموم وإيه ليصل في هذا إلى مدى بعيد ، حتى يعبر به في مواضع
حساسة حد الحساسية ، يحرص الدين الإسلامي على تحريدها
كل التحريد ، كالدات الإلهية وصحتها وهذا دلالة الحساسية ،
أكثر من كل دلالة أخرى ، على أن طرعه « التحسيم » هي الأسلوب
المتصل في تصور القرآن ، مع الأحرار وانتسه إلى حطو « التحسيم
في الأوهام

والآن تأخذ في ضرب الأمثال

• • •

١ - لوب من أنور التحليل « يمكن أن سمي » التشخيص ،
سمثل في جمع الحبة على المواد الخامدة ، وانطوهر الطبيعية ،
والاصعالات الوحدانية هذه الحياه التي قد ترتقى فتصبح حياه
يساسة ، تشمل المواد وانطوهر والاصعالات ، وتهب هذه لأشياء
كلها عواطف آدميه ، وحيوات يساسية ، تشرك بها الأدمس ،
وتأخذ منهم وتعطي ، وتتدى هم في شتى ملاسات ، وعندهم
بحسور الحياه في كل شيء تقع عنه انعي ، أو يتنس به الحسن ،
فيأسور به الوجود أو يرهونه ، في توفر وحساسيه ورهاف
هذا هو الصبح ننفس « واصبح إدا تنفس » فحيل يلك
هذه الحياه الوديعه الهادئه التي تصرح عنها ثباته ، وهو يتنفس ،
فتتنفس معه الحياه ، ويدب لساط في الأحياء ، على وجه الأرض
ولسواء

وهذا هو النيل يسرع في طلب النهار ، فلا يستطيع له دركاً
« يعني النيل النهار يطله حشاً » ودور الحبيب مع هذه الدوره
بدائيه ، التي لا هيهة لها ولا نداء

أو هذا هو الليل يسري « والليل إدا سم » فتحنس سريره
في هذا لكون لعريض ، ونأس به السري على هيهة واتشد
وهذا هو الأرض واسماء عفتين ، يوجه إيهما الحطوب ،
فتسرعان بالحووب

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ، فَقَانَ هَا وَاللَّأْرُصِ
اَتْبَاطُوعًا أَوْ كَرَهُاً هَلَا أَنْبَاءَ طَائِعِينَ ﴾

والحال شاخص إلى الأرض والسماء ، تدعيان ونحسان الدعاء
وهذه هي الشمس والقمر والليل والنهار في ساق دائم ولكن
﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْعِي لَهَا أَنْ تَذُرَّ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سَاقُ النَّهَارِ ﴾

وبه نساق حنار ، لا يبي أو بهتر في ليل أو سهار
وهذه هي لأرض « هامة » مرة و « خاشعة » مرة ، ينزل عليها
الماء قهتر وتحييا :

﴿ وَرَى لَأَرْضَ هَامِدَةً ، إِذَا أُنزِلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءُ اهْتَرَّتْ
وَرَتَتْ ، وَأَسْنَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهْبِجُ ﴾
﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ، إِذَا أُنزِلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءُ
اهْتَرَّتْ وَرَتَتْ ﴾

وهكذا تستحيل الأرض الحامدة ، كائناً حياً سمسة واحده في
لمطة واحدة

وهذه جهم جهم الهممة المتعطئة التي لا يفت منها أحد ، ولا تشع
أحد ! جهم التي تدعو من كانوا يدعون إلى الهدى ويدبرون ،
وهم يدعونها على ارفع منهم يحيون ! جهم التي ترى المحرمين من
بعيد فتعبط وتثور !

﴿ تَوَّ يَقُولُ جَهْمٌ هَلْ امْتَلَأْتُ ؟ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَرِيدٍ ﴾
﴿ إِذْ رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَايِدٍ بُعِيدٍ سَمِعُوا نَدَاءً نَدُّوا ﴾ ﴿ وَإِذَا
أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا فِيهَا صَهْبًا وَهِيَ تَجُورُ ، تَكَذُّبًا مِمَّنْ لَعِبَتْ ﴾

﴿إِذَا نَطَى ، رَعَةً شَتَّى ، تَدْعُو مِنْ دَرٍّ وَتَوَلَّى ، وَخَمَعَ
فَوَعَى﴾ .

وهذا هو الظل الذي يبعث إليه المحرمون : « وطل من يحرم
لا يارد ولا كريم » . في نفسه كرامة وصيق ، لا يحسن استفادهم ،
ولا يهش لهم هشاشة لكريم ، فهو ليس « لا يارد » فقط ، ولكن
كذلك « ولا كريم » !

وهذه هي الريح لوقح « وأرسل الرياح لواقح » عما تحمل
من ماء ولكن التعبير عنها أكسبها حياة ، تلقح وتنتج
وهذا هو العصب ، أو هذا هو الروح ، أو هذه هي النشوى ،
تهيج وتسكن ، وتوحى وتسكت ، ونحي وتذهب

﴿وَدَسَكَ عَنْ مُوسَى الْعَصَا خُذْ لَأُلَوحَ﴾ ﴿وَدَسَكَ
ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ لُشْرَى يَحْدُلْ فِي قَوْمِ نُوطٍ﴾

٢- ووب من نوان «التحليل» يعمل في تلك الصور لتحركة
التي يعبر بها عن حالة من الحالات أو معنى من المعاني بصورة
التي يعد الله على حرف « فإن صانه خير اطمأن به ، وإن أصابته
فتنة انقلب على وجهه » وصورة المسمين قبل أن يسلموا ، وهم
« على شفا حمرة من النار » . وصورة النبي « أنش بنيانه على
شفا حرف هار فاهار به في نار جهنم » كلها صور تحيل للحسن
حركة متوقعة في كل لحظة ، وتم هذه الحركة في لصورة الاحيرة .
كما قلنا في فصل «التصوير الفني»

وقريب من هذه الصور في التحليل صورة ووب الحمل في
سم الحيات الموعد المصروب لدخول الكالرين لحنة بعد عمر

طويل فالحيل يطل عاكفاً على مثل هذه الحركة العجيبة ، التي
لا نَم ولا تقف ما تابعها الحيل !
والصورة التي يحيلها الآية :

﴿ قُلْ لَوْ كُنَ الْحَرُّ مَدَادًا كُلِّمْتُ رَبِّي لَقَدْ أَتَيْتُ قُلُوبَ قُلُوبٍ
تَعْدُ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ حِشًّا مِثْلَهُ مَدَدًا ﴾

فالحيل يطل يتصور تلك الحركة الدائنة حركة الامتداد
تمام الحر لكتابة كلمات الله ، في غير ما توقف ولا تنه ، إلا
أن ينتهي الحر بالنهاية !
وشبه هذه الصورة ما يحيله لحسن هذه الآية

﴿ لَمَسَ رُوحٌ عَرَّ السَّارِ وَأَدْحَلَ الْحَمَّةَ فَقَدَ هَارِ ﴾

ولآية ﴿ وَمَنْ هُوَ مَرَّحِرْجُهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ﴾ .

فمفظة الرحرحة ذاتها تحيل حركتها المعهودة (وهذه من خاص
سباني عن الكلام) وهذه الحركة تحيل الموقف على شدة النار ، مائلاً
للحيل والأنصار !

٣- ولول من ألوان « التحيل » سمث في الحركة المتعصدة ،
التي تلصق في انفس بعض التعريفات مثل « وقديماً إلى ما عممو
من عمل ، فحعباه هاء مشور » وهذا سحب من في فصل
« التصوير الفني » صورة الهاء المشور ، التي هي صورة حسية لإصاعة
لأعمال ولأن تلصق فيها مفظة « قديماً » ذلك أنها تحيل للحسن
حركة القديوم التي سقطت نثر العمل كالهواء وهذا التحيل يتوارى
بكل تأكيد لو قيل وجعلنا عمهم هاء مشور حيث كانت

تتعدد حركة البشر وصورة الهباء ، دون الحركة التي تسبقها حركة
لقدوم

ومثلها « قل ائذعو من دون الله ما لا يفعها ولا يصرف
وردد على أعقابكم » فكلمات « مرد على عقبن » تحيل حركة
حسية للارتداد في موضع الارتداد المعوي ، وتمنع الصورة حية
محسوسة

ومن هذا القليل « ولا تسعوا خطوات لشيطان إنه لكم
عدو مبين » في موضع لا تطبعوا لشيطان فإن كلمتي تسعوا ،
وخطوات ، تحيّلان حركة خاصة ، هي حركة الشيطان يخطو والناس
وراءه يتبعون خطواته وهي صورة حين تحمّم هكذا تدو عحية
من الآدميين ، ويبيهم وبين الشيطان الذي يسرون وراءه ، « أنحر
أباهم من الجنة !

وكذلك « وتلّ عبيهم بأ الذي آتاه آيتنا فاسلح بها
فأنعه الشيطان » بخلاف يسير ، وهو أن الشيطان في هذه
المرّة هو الذي تبع هذا الصال ليعونه « فكان من العاوين »

ومن هذا الوادي « ولا تقف ما ليس لك به عيم » فحركة
الاقتداء تنهيا للدهس ، ويتمثلها لحيات ، بالحسم والأقدام ، لا
بمجرد الدهس والحنان

٤- ولون من أنواع « التحييل » يتمثل في تلك الحركات
السريعة المتتالية التي عرصنا منها مثلاً في الفصل السابق ، صورة
الذي يشرك بالله « فكأن حرّ من السماء فنحطفه الطير » أو سوي
به الريح في مكان سحيق

وشبهه في سرعتها وتعدد منظرها تلك الحركة المتحيلة في قوه

﴿ مِنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَنَا بِنَصْرِ اللَّهِ فِي الدُّبِّ وَالْآخِرَةِ ، فَلْيَمْدُدْ
سَبْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ ، فَلْيَسْطُرْ هَلْ نُدْخِلُ كَيْدَهُ مَا نَعِظُ ؟ ﴾

وتلك صورة عجيبة ، فمن يش من نصره الله سيئه ، وضاق
صدره ، وبيع حنقه على هذه الحال ملء لا يطيقه ، فيجدون أن
يغير من هذه الحال ما استطاع ، ما دام لا يصبر ، ولا ينتظر وعد
الله بالنصر . يمدد إلى السماء محل تتعلق به ليصعد عليه ، وإذا
لم أحده هذا ، فليقطع هذا الحمل الممدود ، ثم ليطر ، هل أفسح
تدبيره هذا في إذهاب ما يعيظه ؟ ليطر ، إن كان قد بقي فيه شيء
يطر ، بعد قطع حبله الممدود ، وبعد اسقطة التي يترقبها الحيات
ومن هذا القليل - مع شيء من التحوير والتنصيف يفسر
المحطوب هو ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم - وقد عرَّ عنه إعراب
المشركين ، ونمى به استطاع هدايتهم بحق ، وإتيانهم بالمعجزة
التي يطلبون

﴿ وَإِنْ كَانَ كَرَّ عَلَيْكَ إِعْرَاصُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَسْعَى مَقَامًا
فِي الْأَرْضِ أَوْ سَمَاءٍ فِي السَّمَاءِ ، فَتُتَبِّهِمْ بَابَهُ ﴾

٥ - وبن من « التحييل » يمثل في الحركة المسوحة لنا من
شأنه السكون كقوله « واشتعل الرأس شيباً » فحركة الاشتعال
هو تحييل للشيب في الرأس حركة كحركة اشتعال النار في هشيم ،
في حياة وحمال ، كما أسفنا

* * *

وأما « التحسيم » فقد وردت به أمثلة كثيرة في فصل « لتصوير
القي » كذلك ومع كل تشبيهات التي حي بها لإحسان المعاني

والحالات صوراً وهيئت . تذكر بها :

﴿ مثل الذين كفروا برههم أفعالهم كرمادٍ اشتدت به لريحٌ
في يومٍ عاصفٍ ﴾ و ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تطلوا صدقاتكم
بينكم والأدى كالذي تُفق مائة رئة أسس ولا يؤمن بالله ويوم
الآخر ، فشه كمثل صفوانٍ عليه بُراب ﴾ و ﴿ مثل الذين
تفقون أموالهم اتقاء مَرَصاةِ الله ، وتثيتاً من أنفسهم ، كمثل
حبة زبوة ﴾ إلح

ومن هذا النوع

﴿ لَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ،
أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ
رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خبيثة كَشَجَرَةٍ خبيثةٍ ،
أَحْتَتَتْ مِنْ قَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾

ولكن الذي يعيه هنا بالتحسيم ، ليس هو التشبيه المحسوس ،
فهذا كثير معتاد ، إنما يعي لوناً حديداً هو تحسيم المعنويات ، لا
على وجه التشبيه والتمثيل ، بل على وجه التصيير والتحويل
١ يقول

﴿ يَوْمَ تَحْدُ كُلُّ نَفْسٍ مَنَ عَمَلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَصَّراً ،
وَمَنَ عَمَلَتْ مِنْ سُوءٍ ، تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ أو
﴿ ووجدوا ما عَمُوا حَاصِراً ، وَلَا يَطْلُبُ لَهُمْ أَحَدٌ ﴾ أو ﴿ وَمَن
تَقَدَّمَا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَحْدُوهُ عِندَ اللَّهِ ﴾

فيجعل كأن هذا العمل المعوي مادة محسوسة . تُحصر (على وجه التحسيم) أو تُحصر هي (على وجه التشخيص) أو توحد عند الله كأنها وديعة تُسَمُّ هنا فتتسَلَّم هناك وقريب من هذا تحسيم الذنوب كأنها أعمال (تحمل على الصهور زيادة في التحسيم) « وهم يحمدون أوزارهم على ظهورهم » . « ولا ترز وأرزة وزر أخرى » .

ومن تحسيم المعنويات أمثال « وترؤدو بن حيز لراد التقوى » فالتقوى رد أو « صعة لله ومن أحسن من الله صعة » « فدين الله صعة معلمة أو « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة » « وسلم مما يدخل فيه أو « وذرؤا طاهر لإثم وناطه » فالإثم مما به طاهر وناطه إلى آخر هذا النحو من الإسعارات ٢ - ويحدث عن حنة نفسية معنوية هي حالة التصديق والصبر والفرح . فيجسمها كحركة حتمية :

﴿ وعلى الثلاثة الذين آمنوا ، حتى إذا صافت عنهم الأرض ما زحمت ، وصافت عليهم أنفسهم ، وطبوا أن لا مدحاً من الله إلا إليه ﴾

فالأرض تصيق عنهم ، ونفوسهم تصيق بهم كما تصيق الأرض ، ويستحيل التصيق المعوي في هذا التصوير صيقاً حسياً وواقعاً ، وتتحسَّم حالة هؤلاء الذين تحلَّفوا عن انعموا مع لرمول ، فاحسُّوا هذا الصيق الحامق ، وندموا على تحلُّفهم ذلك لدم المرح ، حتى لا يجدون لهم مدحاً ولا مفرأ ، ولا يطيقون راحة ، إلى أن قيل الله توسمهم^(١)

(١) الثلاثة هم كعب بن مالك ، وهلال بن أبيه ، ومرارة بن الربيع

ومنه ﴿وَأَشْرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينَ ،
 مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَسَمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾
 والقلوب كأنها تدارق مواضعها وتبلغ الحناجر حقاً من شدة
 لصيق

ومنه ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ، وَأَنْتُمْ حِينُودَ سَطْرُونَ﴾
 كأنما الروح شيء مجسم ، بلح الحلقوم في حركة محسوسة
 ومنه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ يُصَلُّونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثَاقٌ ،
 أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يَفْتَلُوا قَوْمَهُمْ﴾
 أي ضاقت صدورهم من الحيرة والحرص ، من أن يقاتلوكم انتصاراً
 لقومهم ، أو يقاتلوا قومهم انتصاراً لكم
 ٣- ويصف حالة عصبية أو معوية ، وهي حالة عدم الاستعداد
 لما يسمعه بعضهم من الهدى ، وكأنهم لم يسمعوا به ، أو يتصلوا
 اتصالاً ما يجعل كأنما هناك حواجز مادية تفصل بينهم وبينه
 مثل :

﴿يَسْمِعُ عَنْ السَّمْعِ يُغْرَوْنَ﴾ أو ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ
 كُفَةً^(١) أَنْ تَفْقَهُوا فِي آيَاتِهِمْ وَقُرْآنًا^(٢)﴾ أو ﴿فَلَا يَتَذَكَّرُونَ
 الْفُرْآنَ ؟ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟﴾ أو ﴿إِنْ جَعَلْنَا فِي آغَاظِهِمْ
 أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ^(٣)﴾ ، وجعلنا من غير أديمهم

(١) اعطلة

(٢) النعم وأمله النص

(٣) مرفوع الرأس اضطراباً

سداً ، ومن حلفهم سداً ، فأعشياهم فهم لا يتصرون ﴿ أو
 ﴿ حسم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشوة ﴾
 أو ﴿ الذين كانت أعينهم في عطاءٍ عن ذكرى ﴾

وكلها تحسم هذه الحواجر المعوية ، كأنما هي موانع حسية ،
 لأنها في هذه الصورة أرقع وأظهر

٤- ويكون الوصف حسياً بطبيعته ، فيحتار عن الوصف
 هيئة تحسمه كقوله « يوم يعشاها العذاب من فوقهم ومن
 تحت أرجلهم » في مكان « أنهم من كل جانب ، أو يحيط
 بهم لأن هيئة العشايا من فوق ومن تحت أدخل في الحسة من
 الوصف بالإحاطة ومثله « إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل
 منكم » « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل لأكلوا من فوقهم
 ومن تحت أرجلهم »

ومن هذا النوع « كأنما أعشيت وجوههم قطعاً من الليل
 مطمأ » بهذا السواد الذي أصاب وجوههم ليس لونا ولا صفة ،
 وإنما هو قطعة من الليل المطمأ عشيت بها وجوههم !
 ٥ ومن « التحميم » وصف المعوي بحسوس كوصف
 العذاب بأنه غليظ « ومن وراءهم عذاب عظيم » واليوم بأنه
 ثقیل . « ويذكرون وراءهم يوماً ثقيلاً »

فيستقل العذاب من معنى محرد إلى شيء ذي علط وسمت ،
 ويستقل اليوم من زمن لا عسك إلى شيء ذي كثافة وور !

٦- وصرب الأمانة على المعوي بحسوس ، كقوله « من
 جعل الله رجلاً من قسرين في خوفه » لبيان أن القلب الإنساني لا

يَسْعَ لِمَحَاهِرٍ وَمِثْلُ « وَلَا تَكُونُوا كَأَنِّي بَقِصْتُ عُرْشَ - مِنْ
 بِعْدَ قُوَّةٍ - أَكْثَا^{١١} » لِيَبَانَ لِمِثْلٍ فِي نَقْصِ التَّهْدِيدِ بِعَدِّ الْعَاهِدَةِ
 وَمِثْلُ « وَلَا تَعْتَبِ عَصَكُمْ بَعْضُ » أَيْحَ أَحَدِكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ
 أَخِيهِ مِثْنًا^{١٢} ، لِتَصْطِيعِ الْعَبِيَّةِ ، حَتَّى يَكْأَنَّهُ يَأْكُلُ الْأَحَّ لَحْمَ أَخِيهِ
 مِثْنًا !

٧- ثُمَّ لَمَّا كَانَ هَذَا التَّجْسِيمُ حِطَّةً عَامَةً ، صَوَّرَ الْحِسَابُ فِي
 الْآخِرَةِ كَمَا لَوْ كَانَ وَرَبًّا مَحْسُومًا بِالْحِسَابَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ
 ﴿ وَصَعِ الْمَوَارِيرِ الْقُسْطَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ
 مَوَارِيرُهُ ﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَارِيرُهُ ﴾ ﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ
 حَرْدَنِ أَتْيَسَاهَا ﴾ ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ
 نَقِيرًا ﴾ .

وَكُلُّ ذَلِكَ مَشِيئًا مَعَ مَجْسَمِ الْمِيرِ

وَكثِيرًا ، مِثْلُ مَجْتَمَعِ التَّحْيِيلِ وَالتَّجْسِيمِ فِي الْمَثَلِ الْوَاحِدِ مِنَ الْفَرَائِدِ ،
 مِثْلُ مَجْمُوعِ الْمَحْذُورِ الْمَحْذُورِ مَحْسُومًا ، وَتَحْيِيلِ حَرَكَةِ هَذَا الْجَسَمِ
 أَوْ حَوْلَهُ مِنْ إِشْعَاعِ التَّعْيِيرِ ، وَفِي الْأَمْثَلِ السَّيِّئَةِ مَدْحٍ مِنْ هَذَا ،
 وَلَكِنْ نَعْرِضُ هَذِهِ الْفُتُورَةَ فِي أَمْثَلِ حُلْدَةٍ ، فَهِيَ وَفَرْ مِنَ الْأَمْثَلِ
 عَلَى كُلِّ قَاعِدَةٍ !

١- مِنْ ذَلِكَ

﴿ نَلَّ تَقْدِيرٌ بِالْحَقِّ عَلَى الْهَاطِلِ ، فِدْمَعُهُ ، فِدْمَعُهُ ، هُوَ رَهَقٌ ﴾
 ﴿ وَقَدْ دَفَّ فِي فَنَوَسِهِمُ الرُّغْبَ ﴾ ﴿ وَأَنْقَبَ نَبِيهِمُ الْعِدَاوَةَ وَالْعَصَاءَ ﴾

(١) طَائِفَاتٌ حُلَّتْ عَلَيْهَا

إلى يوم القيامة ﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى
المؤمنين ﴾ ﴿ واحمض لها حجاج الدُّل من الرِّحمة ﴾

فكأن الحق قديمة حافظة تصيب الدليل فتزقه وكأما
الرعب قديمة سريعة تنهد في القلوب لهورها وكأما العداوة والنصاء
مادة ثقيلة ، تلقى بينهم ، فتلقى إلى يوم القيامة وكأما السكينة
مادة مثبته تنزل على رسول الله وعلى المؤمنين وكأما بدل حجاج
يُحمض من الرحمة بالوالدين

وفي كل مثال من هذه يجتمع التحسيم - بإحالة المعنى جسماً -
مع التخيل بحركة هذا الجسم المعروضة .

٢- ومن ذلك « على من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته »
و « ألا في الفتنة سقطوا » بعد أن تصح الخطيئة شيئاً مادياً ،
تتحرك حركة الإحاطة ، وبعد أن تصح الفتنة لجة ، يتحركون
هم بالسقوط فيها .

٣- ومنه « ولا تنسوا الحق بالدليل » « فاصدع بها
تؤمّر » وفي المثال الأول يصح الحق والدليل مادتين تستر إحداها
بالأخرى . وفي المثال الثاني يصح ما أمر به مادة يشق بها ويصدع ،
دلالة على القوة والنفاذ .

٤- ومنه :

﴿ الله ولي الذين آمنوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ،
والذين كفروا أولياؤهم الطَّاغُوتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾
﴿ من كفر بالطَّاغُوتِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، فَهُدًى أَمْتَمَّكَ بِالنُّورِ
الْوَقْفَى ﴾

ففي المثال الأول يستحيل اهتدى والصلال بوراً وظلمة ، ثم تبد
عملية الإخراج المخفية وفي المثال الثاني يصبح الإيمان عروة ،
ثم تبدأ الحركة التحيلية في الاستمساك بها فتؤدي هذه الصور
المحسنة المتحركة إلى تمثل أوضح وأوسع للمعنى الخيالي المنحد

* * *

بهذه الطريقة المفصلة في التعبير عن المعاني المنحدرة ، سار
الأسلوب القرآني في أحصر شأن بوح في التحريد المطلق ، والتزيه
الكمال فقال

﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِهِمْ ﴾ . ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾
﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾
﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُحُورٌ ﴾ ﴿ وَلِلَّهِ جَمِيعُ قُتُبِهِ ﴾
﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ يَفْصِلُ بَيْنَهُ ﴾ ﴿ وَهَاءَ رَبُّكَ ﴾
﴿ وَابْلُغْ صَفَاً صَفَاً ﴾ ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ : بَدَّ اللَّهُ مَعْلُوءَةً عَلَتْ
أَيْدِيَهُمْ وَلُعِبُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ ﴿ إِنْ يَشَاءْ يُنْزِلْهُ
وَرَأَيْتَ إِلَىٰ ﴾ ... إلخ .

ونار من نار من الجدن حول هذه الكلمات ، حينها أصبح
الحدل صاعقة ، والكلام ربة ، وإن هي إلا حارية على سق مشع
في التعبير ، يرمي إلى توضيح المعاني المنحدرة وتثبيتها ، ويجري على
سبيل مطرد ، لا تحذف فيه ولا أعرج من التحليل الحسي والتجسيم
في كل عمل من أعمال التصوير .

ولكن اتساع هذا السبب في هذا الموضع بالدات ، قاطع في
لدلالة - كما قلنا - على أن هذه الطريقة في القرآن أساسية في
التصوير ، كما أن « التصوير هو القاعدة الأولى في التعبير »

التناسق الفني

حيثما نقول : إن التصوير هو القاعدة الأساسية في أسلوب القرآن ، وإن التحيل والتجسيم هما الظهريان البارزان في هذا التصوير ، لا يكون قد سعى المدى في بيان الحصاصن القرآنية بصفة عامة . ولا حصاصن التصوير القرآني بصفة خاصة . وورء هذا وذاك آفاق أخرى يبدع إليها السق القرآني ؛ وها تقويمه الصحيح من ناحية الأداء الفني .

هالك لتناسق الذي يبلغ الذروة في تصوير القرآن .
 والتناسق أنواع ودرجات . ومن هذه الألوان ما تنسج إليه بعض الدخيل في بلاغة القرآن ؛ ومنها ما لم يمسسه أحد منهم حتى الآن .
 ١ - منها ذلك لتسيق في تأليف العبارات ، تنحيز الألفاظ ، ثم نظمها في سق خاص . يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها وقد أكثروا من القول في هذا اللون ، وسعوا عية مداه ؛ من تجاوزوا الصحيح منه ، إلى التمحلل الذي لا ضرورة له .

٢ - ومنها ذلك الإيقاع الموسيقي الناشئ من تنحيز الألفاظ ونظمها في سق خاص . ومع أن هذه الظاهرة واضحة جداً الوضوح في القرآن ، وعميقة كل العمق في سائه الفني ؛ فإن حديثهم عنها لم يتجاوز ذلك الإيقاع الظاهري . ولم يرتق إلى إدراك التعدد في الأساليب الموسيقية ، وتناسق ذلك كله مع الحو الذي تطلق به هذه الموسيقى ، ووظيفتها التي تؤديها في كل سياق

٣- ومنها تلك السكت البلاغية التي تسهها الكثيرون ، من العقوبات المنهقة مع السياق ، كأب تحي ، الفاصلة . « وهو على كل شيء قدير » بعد كلام يشب القدرة ، والفاصلة « إن الله علم بدات الصدور » بعد كلام في وادي العلم المستور . وكأن يعبر بالإسم الموصون لتكون حملة الصفة بياناً لعللة الحراء ، مثل « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط » . وكأن يعبر بلفظ « الرب » في موضع التبرية والتعليم مثل « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » ، بينما يعبر بلفظ « الله » في مواضع التأليه والعظيم مثل « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام » . وكما يظهر اسم الخلافة أو يصمر تعرض يقتضيه السياق وكما يقدم أو يؤخر ، ويصل أو يعصل ، ويطلق أو يقصر ، ويستعمل أو يقرر إلى آخر ما بحث البلاغية المعروفة وفيهم من بعد هذا أقصى مصدر لبلغة في تعبير القرآن !

٤- ومنها ذلك التسلسل المعوي بين الأعراس في سياق الآيات ، والتناسق في الانتقال من عرض إلى عرض وبعضهم يسمحل هذا التناسق تمحلاً لا ضرورة له ، حتى ليصل إلى حد من التكيف ، ليس القرآن في حاجة إلى شيء منه .

٥- ولعل أعلى نوع من التناسق تسهوا إليه هو هذا التناسق النفسي بين الخطوات المتدرجة في بعض النصوص ، والخطوات النفسية التي تصاحبها ، كالمثل الذي أحدهاه من « المومحشري »

عن الفاتحة ، في فصل « كيف فهم القرآن »

ومع أن الحصان نص التي طرفوها حصفيه وقيمته ، فهي لا تزال
ولي مظاهر لتناسق التي تلمحها الباحث في القرآن ، ووراءه آفاق
أخرى لم يتعرضوا لها أصلاً ، فيما عدا صهرة الإيقاع الموسيقي ،
وهي أحد هذه الآفاق العالية ولكنهم كما قلت ، وهو أعاد
مظاهرها الحارحية

وإذا كان لتصور في القرآن مسألة لم يعرضوا لها فقط ، بوصفها
أساساً للتعبير القرآني جملة ، فقد بقي لتناسق التي في هذا « التصوير »
بعيداً عن آفاق بحثهم بطبيعة الحال

وإذا كان قصده من هذا الكتاب ، هو أن يستعرض الآفاق
الحديثة ، لا أن يكرر الانحيازات التي هتدى إليها الباحثون ، فإن
ستترك تفصيل القول في هذه الانحيازات - مع اعتقاد أن كل
ما كتب فيها قابل لعرض في ضوء جديد ، للتقدم فيه خطوات
بعيدة بعد آخر خطوة وقف عندها الأسلاف .

وسكتني في هذا الصدد بالمودح الذي عرصه للناسق
الداخلي بين المعاني والأهداف في « سورة العلق » - السورة الأولى -
في فصل « مسح السحر في القرآن » فهذا المودح صورة مما ينتج
فيه مسح لتحديد في التسلسل الفكري والناسق النفسي ، بين
سياق القرآن

ثم يشير مجدد إشارة إلى التناسق المعنوي والنسي بين لقصص
التي يعرصها القرآن والسياق الذي يعرصها فيه ، وسحاح عرصه في
هذا السياق مع العرض الديني والمنظور التي سواء سواء (والمثلث
على هذا اللون من التناسق سيأتي في فصل « لقصة في القرآن »)

ومثل القصص في هذا اللون من النسخ سائر ما يعرض من مشاهد
 لقيامته . وصور النعم والمعاد ، والصور التي تدل في معرض
 الحداد فهو يعرض مسجماً مع الوسط الذي يعرض فيه ، ويؤدي
 العرض العسي الذي يرمي إليه .

* * *

ولكن هذا كله إما سبي إلى تساق المعاني والأعرص والبحث
 في هذا لطاق مهم ، دق وارتفع يبقى في معزل عن تحمل وتدع
 وسائل القرآن في التعبير ، وهو التصوير

ولما كانت نقطة بعيدة أن نقهر من هذه السطوح المستوية إلى
 تلك القمم الشامخة ، فإننا سمحنا أن نرقى إلى هذه الآفاق خطوة
 بعد أخرى ، حتى نتطوع إلى قممها البعيدة

١ - هناك المواضع التي يتسق معها التعبير مع الحالة المراد
 تصويرها ، فيبعد على إكمال معمم الصورة الحسية أو المعنوية
 وهذه خطوة مشتركة بين التعبير للتعبير ، والتعبير بالتصوير ، فهي
 مفرق الطريق بين الصوح المستوية والقمم خندرجة ١

مثال ذلك « إيا شر الدواب عند الله الصم الكم الذين لا
 يعقنون » فإن « الدواب » نطلق عادة على لحيوان - وإن كانت
 تشمل الإنسان فيما تشمل لأنه يدب على الأرض - ولكن شمولها
 هذا للإنسان ، ليس هو الذي يتبادر إلى الذهن ، لأن لمعادة حكمها
 في الاستعمال وحيد كلمة « الدواب » هذا . ثم تحسيم البعثة
 التي تمنعهم من الانتفاع باللهي توصيهم « الصم الكم » كلاهما
 يكمل صورة العلة والحيوانية ، التي يريد أن يرسمها هؤلاء الذين
 لا يؤمنون لأهم « لا يعقنون » .

ومن هذا النحو «والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والله متلويهم» فقد رسم لهم هذا لتشبيه صورة دقيقة بهم يأكلون ويتمتعون عذابين عن الخراء الذي ينتظرهم ، كما تأكل الأنعام وتمرح ، عافلة عن شفرة لقصاص ، أو عافلة عما سوى الطعام والشراب .

ومثال ذلك : «ساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم» وفي هذا التعبير نوا من التباسق الظاهر والمصمر ، ومن نصف الكدية عن ملاسست دقيقة وأدق ما فيه هو ذلك المشابه بين صبة الزرع بحرثه وصبة الزوح بروحه في هذا المحال الحصص وبين ذلك الست الذي يحرحه الحرث ، وذلك الست الذي يحرحه الزوح ، وما في كنيهما من تكثير وعمراء وفلاح وكل هذه الصور تطوي تحت استعارة في بضع كلمات

٢- وقد يستقل لفظ واحد - لا عبارة كاملة - برسم صورة شاحصة - لا بمجرد المساعدة على إكمال معالم صورة - . وهذه خطوة أخرى في تناسق التصوير ، أبعاد من الخطوة الأولى ، وأقرب إلى قمة حديدية في التناسق خطوة يريد من قيمتها أن لفظاً مفرداً هو الذي يرسم الصورة ، تارة بحرسه الذي يلفيه في لأدن ، وتارة بطله الذي ينقيه في الحيات ، وتارة بالحرس والطلن جميعاً

تسمع الأدن كلمة «أناقلتم» في قوله ، «با أنها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم افرؤا في سبيل الله ، أناقلتم إلى الأرض ؟» فيتنصور الحيات ذلك الحسم المناقل ، يرفع الرامعون في جهد . فيسقط من أيديهم في ثقل إن في هذه الكلمة «ط» على الأقل من الأثقال ولو أنك فت أناقلتم ، لحف الخرس ، ولضاع

الأثر المشود ، وتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللغز ، واستقل برسمها .

وتقرأ « وإِنَّ مِنْكُمْ مَنْ لَيُطْشُّ » فترسم صورة التغطية في حرس العبارة كلها - وفي حرس « لَيُطْشُّ » حصة . وإِنَّ اللسان ليكاد يتعثر ، وهو يحيط فيها ، حتى يصل نطء إلى نهايتها ، وتنو حكاية قول هود « أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى سُنَّةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِبْدِهِ فَعُصِيتْ عَلَيْكُمْ أَتَلْمِزُكُمْ هَا كَرِهُونَ ؟ » فتحس أن كلمة « أَلْمِزُكُمْ هَا » تصور حو الإكراه بدمج كل هذه الضمائر في انطلق ، وشد بعضها إلى بعض ، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ويشدون إليه وهم منه مدحرون ! وهكذا يبدو لون من التناقض أعلى من السلاعة الظاهرية ، وأرفع من الفصاحة اللفظية ، الذي يحسها بعض الباحثين في القرآن - قديماً وحديثاً - أعظم مزايا القرآن !

وتسمع كلمة : « يَضْطَرَحُونَ » في الآية :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ بِأَرْحَمِهِمْ ، لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلَا يُحَقِّقَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ يُخْرِجُ كُلُّ كَافِرٍ وَهُمْ يَضْطَرَحُونَ فِيهَا رُبٌّ خَرُجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ .

فيحبل إليك حرسها العليط ، عنط انصراف المحتط المتحاو من كل مكان ، انسعت من حاجر مكتظة بالأصوات الحشنة ، كما تُلقي إليك طلل الإهمال لهذا لاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يليه . وتسمع من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب العليط الذي هم فيه يَضْطَرَحُونَ

وحيث يستقل لفظ واحد هذه الصور كلها يكون ذلك من
من التناسق الربع .

ومثلها كلمة «عُتِلَّ» في تمثيل العيظ الحادي المنقطع «عُتِلَّ»
بعد ذلك زيم .

فإذا سمعت . «وما هو مَرَحْرَحُه من العذاب أن يُعَمَّرَ» صورت
لك كلمة «مَرَحْرَحُه» - المقدمة في التعبير على الفاعل لإبرارها -
صورة الزحزحة المعروفة كاملة متحركة . من وراء هذه اللفظة
انفردة

وكذلك قوله «فَكُكِبُوا فيها هم والعاورون وحوذُ إبليس
أُحْمَعُونَ» فكلمة «كُكِبُوا» يحدث جرسها صوت الحركة التي
نم ٢

وحقيقة إن وضع هاتين اللفظتين العوي هو الذي يمحهما
هذه الصورة - وليس هو استعمال القرآن الحاصل هما ، كما هو
الشأن في الكلمات الدصية ، التي اشتقها خاصة أو استعملها أول
مرة - ولكن اختيارهما في مكائيهما يحسب بلا شك في بلاغة
التعبير

ومن الأوصاف التي اشتقها القرآن ليوم لقيامة . «الصَّاحَّةُ»
و «الطَّامَّةُ» والصاخة لفظة تكاد تحرق صياخ الأدن في ثقلها
وعنف جرسها ، وشقها بهواء شقاً ، حتى يصل إلى الأدن صاحبُ
مُبَحَّحاً . والطامة لفظة ذات دوي وطين ، تحيل إليك بحرسها المدوي
أنها نظم وتعم ، كالطوفان يعمر كل شيء ويظويه

صع هذه الألفاظ بجوار ذلك اللفظ المشرق الرشيح «تنفس»
«والصبح إذا تنفس» نجد الإعجاز في اختيار الألفاظ لمواضعها ،

وهو ص هذه الانماط يرسم الصور على اختلافها .

ومثله التعبير عن النوم بالعاس ، وعن النوم بعشة العاس
« يَدُ يُعْشِيْكُمْ الْعَاسُ أَمَةً مِنْهُ » تجد حو العاس الرقيق اللطيف ،
وكانه عشاء شفيف ، يعشى الحواس في لطف ولين « أَمَةً مِنْهُ »
فلحو كله أمن ودعة وهناء

ونوع آخر من تصوير الألفاظ بحرسه يبدو في صورة الناس

﴿ قُلْ عَوْدُ نَرَبِّ النَّاسِ ، مِنْكَ النَّاسُ ، إِلَهُ النَّاسِ ،
مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، الَّذِي يُّوسَّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ،
مِنَ الْخَنَّاسِ وَالنَّاسِ ﴾

اقرأها متوالية تجد صوتك يحدث « وسوسة » كاملة مناسبة حو
السورة حو وسوسة « الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور
الناس من الخسة والناس » .

ونوع من هذا - ولكن فيه عه اختلافاً - ذلك قوله « كُتِرَتْ
كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » فليطوب هنا
هو نطبيع ما قالوا من أن الله الخد ولدأ ، وتكبير هذه القرعة بكل
حريقة فقام « كثر » وأصغر الفعل ، ثم جعل هذه الكلمة
مبيرة مكرراً ، ليكون في الإصرار والتكبير معنى الاستتكار والتكبير
« كثر كمة » ثم جعلها تخرج من أفواههم حروحاً كأنها رمية
من غير رام « تخرج من أفواههم » وسيفاً لحو التكبير كله جاءت
كلمة « فواههم » وإيت لتحتاج في نطقها أن تفتح فك بالواو
الممدودة ، وأن تخرج هاءين متواليين من الحلق في عسر ومشقة ،
قل أن نطق « فاهت » على اليم الأخيرة .

وهناك نوع من الألفاظ يرسم صورة الموضوع ، ولكن لا يحرسه الذي يلقيه في الأدب ، بل يظنه الذي يلقيه في الحال - ولألفاظ كما لعبارات ظلال خاصة يلحظها الحس البصير ، حين يوجه إليها انتباهه ، وحينما يستدعي صورة مدبوطة الحسية

مثال ذلك « واتلُ عليهم ما الذي آتيناهم بها » فالظن الذي تلقيه كلمة « اسلح » يرسم صورة عيفة للتمنص من هذه الآيات ، لأن الاسلح حركة حسية قوية

ومثله « فاضح في المدينة حائفاً يترقب » فلفظة « يترقب » ترسم هيئة الحذر المتلفت (ولا يفعل هذا أنه حائف يترقب » في المدينة » موضع الأمن والاطمئنان عادة ، وإن كان هذا حصاً بتعبير كله . ولكن العارضة هنا تبرز معه اللفظ المصور للفرع في موطن الأمان ١) .

ومن هذا الوادي كل المادح التي عرصها في فصل « التحييل الحسي والتجسيم » عن « التحييل » والظلال التي تنفيها التعبيرات هناك من هذا القبيل .

وفد يشرك الحرس وانطل في لفظ واحد مثل « يوم يدعون إلى نار جهنم دُعاً » فلفظ الدَّعَ يصور مدلوله حرسه وظله جميعاً ومما يلاحظ هنا أن « الدَّعَ » هو المدفع في الصهور بعف ، وهذا المدفع في كثير من الأحيان يحل المدفع بخرج صوتاً غير إرادي فيه غير ساكنه هكذا « أَعْ » وهو في حرسه أقرب ما يكون إلى حرس « الدَّعَ » !

ومثله « حدوده وغنَّوه في سواء الجحيم » فلفظ حرس في الأدب وصل في الحيل ، يؤديان المدلول للحس والوجدان

وستطيع أن يصيف إلى هذا الباب ألفاظاً لم ذكرنا هناك في
الآلفاظ أدائه بحسب ، مثل « نعس » و « التمس » و « الطمة »
فهذه كذلك طلال نحاب ما لها من حرس والتمزقة في الواقع
عسيرة ، لأن الفوارق دقيقة لطيفه

إنما تلتقي جميعاً عند تصوير الألفاظ للمدلولات ، لا من
قبل الدلالة المعنوية وحسب ، ولكن من قبل الطريقة التصويرية
التحقيقية ، وهو ما يعيننا خاصة في هذا المقام

٣- وهناك تلك المقابلات الدقيقة بين الصور التي ترسمها
التعبيرات (والتقابل طريقة من طرق التصوير وطريقة من طرق
التلحين والتعبير القرني كنه من استحدثها في تنسيق صوره
التي يرسمها بالآلفاظ على نحو دقيق)

من ذلك هاتان الصورتان السريعتان لست والجمع في قوله
﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بينهما من دأبه ،
وهو على جميعهم ، إذا يشاء قدير ﴾

مصورة ثل الدواب ، وصورة جمعها ، تنقيص في سطر ، سيما
الحياة معه يكاد يستغرق مدى أطول في تصورهما واحده بعد لأخرى
ومن ذلك الصورتان اللتان يعرضهما لإماتة الأحياء وإحياء
موتى في قوله :

﴿ وَلَمْ يَنْهَرْ لَهُمْ كَمْ أَهْنَكُم مِّنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الشُّرُورِ يَمْشُونَ
فِي مَسَاكِينِهِمْ ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأَقْلَامٍ تَسْمَعُونَ ۚ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا
سَوَّيْنَاهُم مِّنَ الْمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ الْحَرَّةِ فَنَخْرِجُهُمْ رِزْقًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ
وَتَتَّخِذُهُمْ أَقْلَامٌ يُّصْبِرُونَ ۚ ﴾

في ومضة عين نقلهم من القرى المهلكة الدائرة بعد الحياة
 ونعمان ، إلى الأرض الحية السريعة بعد الموت والإحداث
 فالتقابل هنا بين حالتين وحالتين في الواقع لا بين حالة واحدة
 هذه المقابلة تكاد تصطرد في صور العجم والعداب في الآخرة ،
 وهي كثيرة جداً في القرآن ، فنكتفي هنا بأثلة منها .
 في وسط اهورا الذي ترسم صورته هذه الفقرات

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ
 صَفًّا صَفًّا ، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ ، وَأَنَّى لَهُ
 الذِّكْرَى ، يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ حَيَاتِي قِيَوْمَئِذٍ لَا يُعَدُّ عَدُوهُ
 أَحَدٌ وَلَا يُوَفَّى وَثَاقُهُ أَحَدٌ ﴾ .

في وسط هذا الروح الذي يشه ذلك العرص العسكري - الذي
 تشترك فيه جهنم - بموسيقاه العسكرية المنتظمة النقات ، المسعنة
 من اساء لقصي الشديب الأسر ، وبين العذاب لقد وانوثق المودحي
 يقال لمن أمر

﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ،
 فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتٍ ﴾

هكذا في عطف ولطف : « يا أيتها » وفي روحية ونكرام
 « يا أيتها النفس » « المطمئنة » في وسط هذا الروح « ارجعي إلى
 ربك » كما يبتك وييه من صلة وإضافة « راضية مرضية » بهـ
 الاستحسان الذي يعبر الخو كنه نارصى ولتعطف « ادخلي في
 عبادي » ممتوحة بهم متوادة معهم « وادخلي جناتي » المصطفة لي

والموسيقى حول مشهد مطمئنة متموجة رحيبة في مقابل تلك الموسيقى
القوية العسكرية .

ذلك تمودح من المقدسة النفسية بين الكافرين والمؤمنين ، فلعرض
مردحاً للعداب الحسي والعيم المادي ، متقابلين أيضاً

﴿ هل أتاك حديثُ العشيّةِ ؟ وَحُوهُ يَوْمٌ يَمْدِدُ حَاشِعَةً ، غَامِلَةً
صَبَةً ، نَضَى بَارَأ حَابِيَةً ، تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آيِيَةٍ ^(١) ، لَيْسَ لَهُمْ
طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ ^(٢) ، لَا يُنْسَرُ وَلَا يُعْيِي مِنْ جُوعٍ ﴾
﴿ وَحُوهُ يَوْمٌ يَمْدِدُ نَاعِمَةً ، سَعِيَهَا رَجِيَةً ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ،
لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاحَةً ، فِيهَا عَيْنٌ حَارِيَّةٌ ، فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ، وَأَكْوَابٌ
مَوْصُوعَةٌ ، وَنَمَارِقُ مَصْفُوعَةٌ ، وَرَزَاسِي مُثَوَّنَةٌ ﴾

فهنا تقابل في حو العذاب وحو العيم ، وفي كل حريئة من
الحريئات هنا وهناك . ومثل هذا كثير .

٤- وهناك نوع من التقابل ، ولكن لا بين صورتين حاصرتين
كما هو الحال هنا ^(٣) ، بل بين صورتين ، إحداهما حاصرة الآخر ،
والأخرى ماضية في الزمان حيث يعمل الحيال في استحصار
هذه الصورة لأحيرة ليقابلها بالصورة المنطوية
من ذلك :

﴿ حَقَّ الْإِنْسَانُ مِنْ نُطْعَةٍ ، فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾

(١) شلله الحرارة

(٢) بابس (الشرق) وهو شوك ترعاه الإبل ما دام رطباً

(٣) هما حاصرتان في الحيال وإن كانتا من صورا القمامة اللاحقة

فالصورة الحاصرة هنا هي صورة الإنسان «الحصم المين» والصورة
الناصية هي صورة الطفة الحفيرة وبين الصورتين مسافة بعيدة يراد
إبرازها ليد هذه المفارقة في تصرف الإنسان وهذا جعل الصورتين
متقابلتين ، وأعمل المراحل بينهما ، لتؤدي المفارقة الواضحة هذا
العرض الخاص ، لتقابل التحصيل بين حال وحال
ومنه قوله :

﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ - أُولِي الْأَنْعَمَةِ وَمَنْهُمْ قَلِيلٌ إِنَّ لَدُنِّي
أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ، وَعِدَاءً أَلِيمًا ﴾
فالمقالة هنا بين صورة «أولي النعمة» الحاصرة ، وصورة الطعام
دي العصاة المتحيلة ، لها قيمتها الغيبة نحاس قيمتها اللبسية
ومنه :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ، الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ، يَحْسَبُ
أَنَّ مَالَهُ أَخَذَهُ كَلًّا ! يَسْتَدِنُّ فِي الْحُطْمَةِ ، وَمَا أَذْرَكَ مَا ابْحُطْمَتُ ،
بَارَ اللَّهُ الْمُؤَقَّدَةُ ، الَّتِي تَطْعَمُ عَلَى الْأَقْدَةِ ، إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ،
فِي عَمْدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾

فصوره اهمرة المرة الذي سر ، الناس ودمرهم ، والذي
جمع مالا وعدده ، صورة هذا المتعالي اساحر ، تقابلها صورة
«الاسود» و«المسود» في «الحطمة» التي تحطم كل ما يلقي إليها .
فنهطم كبرياءه وقوته وحده ، وهي اسر «تطعم» على قواده ،
والذي بسعث منه اضر ودمر ، ويحني فيه التعاطف والكبرياء
وتكلمة لصورة المسود المحطم المهمل هذه الحطمة بقصة عليه
لا يفقه منها أحد ، ولا يسأل عنه فيها أحد .

ومثلها :

﴿ وَأَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ ۚ فِي سَمُومٍ وَخَمِيمٍ
وَظُلٍّ مِنْ نَحْمُومٍ لَا تَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ
مُفْرَقِينَ ﴾

والسموم والحميم ، والظلل الذي ليس له من انقضاء إلا اسمه .
لأنه « من يحموم » « لا تارِد ولا كريم » صورة هذا الشطط
تقابل صورة الترف « إنهم كانوا قبل ذلك مفرقين »
وهما موضع تأمل لطيف في هذا التصوير وفيما يدلله . هؤلاء
المتحدث عنهم يعيشون في الدنيا المحصورة ، وصورة الترف هي الصورة
القرينة لما ما ينتظرهم من السموم والحميم والشطط فهو الصورة
البعيدة . ولكن التصوير هنا لفرض حيويته يحيل للقارئ أن الدنيا
قد طويت ، وأنهم الآن هناك ؛ وأن صورة الترف قد طويت كذلك ،
وصورة الشطط قد عرضت . وأنهم الآن يُذكَّرون في وسط السموم
والحميم ، بأنهم « كانوا قبل ذلك مفرقين » ! وذلك من عجائب
التحليل ولكنه السق المتع عادياً في القرآن ، والذي يبني طلبة
الفن والدين في آن . يلي طلبة الفن في قوة الإحياء ، حتى ليس
المشاهد أن هذا مثل يُصرب ، ويعجز أنه حصر بشهد ؛ ويبني
طلبة الدين ، لأن الإحساس بالغييب حصرآ محم يلمس الوجدان ،
ويهيئ الدعوة للإيمان .

ومن هذا النحو :

﴿ نَحْنُوهُ فَاغْتَوْهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْحَمِيمِ ، ثُمَّ صُوتُوا فَوْقَ رَأْسِهِ
مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَرِيرُ الْكَرِيمُ ﴾

ومن نماذج المقابلة تلك الصورة :

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَّ وَقِيلَ : مَنْ رَاقٍ ، وَطُرَّ أَنَّهُ
الْفِرَاقُ ، وَالتَّقَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ، إِنْ رَنُكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ فَلَا
صَدَقَ وَلَا صَلَّى ، وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ
يَتَمَطَّى ﴾

وقد سر فيها على السق الذي تحدث عنه آها ، فجعل الصورة
الثانية هي ادسية التي انطوت وانطوت معها الدنيا ، والصورة
الأولى هي الحاضرة التي يعاينها ولا يخص بها . ليرى هذا الذي
التقت منه الساق بالساق من اهل الهول والترعب ، أو من الداء والأم ،
وبلغت روحه الترقى ، وتساءل من ساءل ألا من راقٍ يرقبه
ويرجع عنه هذه الحال - كما يرقى المصروعون والممسوسون - وطُرَّ
أنه مفارق أهله هؤلاء ليرى صورته هذه ويستحضر صورته
الأخرى ، يوم أن كَذَّبَ وتولى وذهب إلى أهله يتمطَّى إليه ليستعرض
الصورتين ، ولكن بعد هوت الألوان ، فلقد « التقت الساق
بالساق » ولا وقت هناك ، فإن « إلى رنك يومئذ المساق »

* * *

وبعد ، فمن يستطيع أن يعمل كل ما ذكرناه آها ، وما
ذكره غير من أنواع التماسق في القرآن ، يرقى إلى ألوان أخرى
من التماسق الفني ، لم تعرض لها حتى الآن ، فتكون هذه الألوان
الأخرى حسب الكتاب كله في التماسق والاستحسان !

١ - فها . إن في القرآن إيقاعاً موسيقياً متعدد الأنواع ، يتناسق

مع نحو ويؤدي وظيفة أساسية في البناء^(١)
ولما كانت هذه الموسيقى لقرآنية إشعاعاً لنظم الحاصل في
كل موضع ، وتابعة لقصر الفواصل وطولها ، كما هي تابعة لاسجام
الحروف في الكلمة المفردة ، ولإسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة .
فيما يؤثر أن نتحدث عن هذه الطواهر كلها مجتمعة
حاء في القرآن الكريم : « وما عساه الشعر - وما ينعي له -
إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » .
وحاء فيه حكاية عن كهار العرب « بل افتره بل هو
شعر » .

وصدق القرآن الكريم . فليس هذا السق شعراً ولكن العرب
كذلك لم يكونوا محايين ولا جاهلين بحصائص الشعر ، يوم قالوا
عن هذا السق العالي : إنه شعر !
لقد راع حياتهم بما فيه من تصوير نارع ، وسحر وحداهم
بما فيه من مطلق ساحر ؛ وأحد أسماعهم بما فيه من إيقاع حميل
وتلك حصائص الشعر الأساسية ، إذا نحن أعصنا التقية والتعاقيل
على أن السق القرآني قد جمع بين مربي النثر والشعر جميعاً
فقد أعني التعبير من قيود القافية الموحدة والتصيلات النامة ، مال
لذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أعراسه العامة وأحد في
الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداحية ، والفواصل المتقاربة في
النون التي تعني عن التصيل والتفعية المتقاربة التي تعني عن القوافي ؛

(١) تفصيل الموسيقى اندوخ الأسناد « محمد حسن الشجاعي » تراجع هذا الجزء الخاص
بالموسيقى في القرآن وكان له الفصل في ضبط بعض المصطلحات الفنية الموسيقية

وصم ذلك إلى الحصص التي ذكرنا ، فشاثر والنظم جميعاً ^(١) وحيثما تلا الإنسان القرآن أحسن بذلك ، لايقاع الداحلي في سياقه ، يمر بروزاً واضحاً في السور القصار ، والمواصل السريعة ، ومواضع التصوير والتشخيص بصفة عامة ، ويتوارى قليلاً أو كثيراً في السور الطوال ، حتى تنفرد الدقة دونه في آيات التشرع وبكـه - عن كل حال - ملحوظ دائماً في ماء النظم القرآني .
وهي بحر أولاء تنو سورة النجم مثلاً .

﴿ وَالنَّجْمِ إِذْ هَوَىٰ ، مَا ضَلَّ صُحُفُكَ وَمَا عَوَى ، وَمَا يَنْطِقُ عَنْ النَّهْيِ ، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ، وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ، أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى ؟ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ، إِذْ يَبْعَثُ اسِدْرَةَ مَا يَبْعَثُ ، مَا رَاعِ الْمَصْرُ وَمَا طَعَى ، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ، أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتِ وَالْعُزَّى ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ؟ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى ؟ تِلْكَ إِذْ قَسَمَ صَبَرَى ! ﴾

هذه فواصل متساوية في الوزن تقريباً على نظام عمر نظام

(١) يقول الدكتور عبد الحسين : إن القرآن ليس شعراً وليس نثراً إنما هو قرآن وليس في حاجة إلى هذا اللعب بالعبارة ، فالقرآن نثر متقن احتكمتنا للاصطلاحات العربية كما ينبغي . ولكنه نوع ممتاز مبدع من النثر الفني الجميل المنفرد

الشعر العربي متحده في حروف التقفة تماماً ، ذات إيقاع موسيقي متحد تعاً لهذا وذلك ، وتعاً لأمر آخر لا يظهر ظهور السور والقافية ، لأنه يسعث من تناف لحروف في الكلمات ، وتناسق الكلمات في الحمل ، ومرده إلى الحسن الداخلي والإدراك الموسيقي ، الذي يهرف بين إيقاع موسيقي وإيقاع ، ولو اتحدت القواصل والأوزان .

والإيقاع الموسيقي هذا متوسط الزمن تعاً لتوسط الجملة الموسيقية في الطور ، متحد تعاً لتوحد الأسلوب الموسيقي ، مسترسل الروي كحو الحديث الذي يشبه التسلسل القصصي وهذا كله محفوظ وفي بعض القواصل يبدو ذلك حلياً مثل « أفرايم الثلاث والعري ، ومائة الثلاثة الأخرى » فلو أنك قت أفرايم الثلاث ولعري ومائة الثلاثة ، لاحتت القافية ، ولتأثر الإيقاع وكذلك في قوله « ألكم الذكر وله الأنثى » « نك - إد - قسمة صيرى » فلو قت ألكم لذكر وله الأنثى ؟ نك قسمة صيرى ، لاحتل لإيقاع المستقيم بكلمة « إذن » .

ولا يعني هذا أن كلمة « لأخرى » وكلمة « إد » رائدتان مجرد لقافية أو لوزن ، فهما ضرورتان في السياق لكت معوية خاصة وتلك مبرة فنية أخرى أن تأتي النقطة تؤدي معنى السياق ، وتؤدي تنساً في الإيقاع ، دون أن يطمى هذا على ذلك ، أو يخصص النظم للضرورات .

ملاحظة آخران الإيقاع في الآيات والقواصل تبدو واضحة في كل موضع على نحو ما ذكرنا أو قريباً من هذه الدقة الكبرى ودليل ذلك أن يُعَدَّ في الشعر عن الصورة البصائية بكلمته إلى

صورة حاصه ، أو أن يُسقى على نحو يحتل بدا قدس و
أخرت وه ، أو عدلت في الظلم أي تعديله

مثال الحالة الأولى حكاية قول إبراهيم :

﴿ قَالَ اقْرَأْتُمْ مَا تَعْبُدُونَ ، ثُمَّ وَأَدْوَكُمْ الْأَقْدَمُونَ ، فإِهِمْ
عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ سَهْدٌ لِي ، وَالَّذِي هُوَ
يُطْعِمُنِي وَيَسْقِي ، وَإِذَا مَرِصْتُ فَهُوَ بَشْفٌ لِي ، وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ
يُحْيِي ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾

فقد حُطفت « المتكلم في » بهدين وسقى ويشقى وبحيين «
محافظة على حرف القافية مع « تعدون ، ولأقدمون ، واندس »
ومنه حُطف آباء لأصية في الكلمة ، نحو « والصحريين
عشر والشمع والوتر والليل إد سر ، هل في ذلك قسم لدي
حجر ؟ » فبد « يسري » حذفت قصداً للإسحاح مع « لفتح ،
وعشر ، والوتر ، وحجر ... »

ومثل :

﴿ يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ، حُشْعًا أَنْصَارُهُمْ يَحْرَحُونَ
مِنَ الْأَحْدَاثِ كَأَنَّهُمْ حَرَادٌ مِّنْ شَرٍّ ، مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ
هَذَا يَوْمَ عَسَر ﴾

فإِذَا أَنْتَ لَمْ تَحْطَفِ الْبَاءَ فِي « الدَّاعِ » أَحْسَسْتَ مَا يَشْهِي الْكُسْرُ فِي
وَرْدِ الشَّعْرِ .
ومثله .

﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَمُوتُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ قَصَصًا ﴾

فلو مددت ياء سعي كما هو المعبوس لاحتل الورع نوحاً من الإحتلال
ومثل هذا يقع عند ردة هاء السكت على ماء الكلمة أو ناء
المتكلم في مثل :

﴿ وَمَا مِنْ حَقَّتْ مَوَارِيئُهُ هُمَّةٌ هَاوِيَةٌ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِبَةٌ ،
رُحَامِيَّةٌ ﴾

ومثل

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَتْ كِتَابُهُ بِمِثْلِهِ ، فَيَقُولُ : هَذَا أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ .
إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . ﴾

ومثل الحالة الثانية ألا يكون هناك عدول عن صيغة نياسية
ومع ذلك تلحظ الموسيقى الكامة في التركيب ، والتي تحتل لو
عبرت نظامه مثل .

﴿ ذَكَرَ رَحْمَةً رَبِّكَ عِندَهُ رَكْرِيًا ، إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ بِدَاءِ حَقِيٍّ ،
قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ، وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ
رَبِّ شَقِيًّا ﴾

فلو حاولت مثلاً أن تعبر فقط وضع كلمة «مِثْلِي» فتحلها سابقة
بكلمة «العظم» قال رب إني وهن مني العظم لأحسست ، يشبه
الكسر في وزن الشعر ، ذلك أنها تتوارد مع «إني» في صدر لفقرة
هكذا : «قال رب إني» «وهن العظم مني»

على أن هناك نوعاً من الموسيقى الداخلية يلاحظ ولا شرح
- كما سلّمنا - وهو كامن في سبوح السمطة المفردة ، وتركيب
الخمسة الواحدة وهو يترك إحاسة حمية ، وهبة لدية

وهكذا نشد في تلك الموسيقى الداخلية في ساء التعبير القرآني ،

موزونة بغيران شديد لحساسية ، تنمية أحفَ لحركات والاهترارات ،
ولو لم يكن شعراً ، ولو لم تنقد بغير الشعر الكثيرة ، التي تحد من
حرية الكاملة في التعبير الدقيق عن المقصد المطلوب

° ° °

بتنوع نظام الفواصل والقوافي ، كما تنعد ألوان الإيقاع
الموسيقى ، فهل يجري ذلك على سبب خاصة ، وتؤدي إلى أهداف
مقصودة ؟

نظر في هذا الأفق لحصر من آفاق النماذج الموسيقية ، بعد
أن ثبت وجود هذه الموسيقى

ما نظام الفواصل والقوافي ، فقد لاحظنا أنه يتنوع في السور
لمختلفة ، وقد يتنوع في سورة الواحدة

لأن تنوعه في السور فيختلف ، لقياس إلى الفواصل بين الطول
والمتوسط والقصر ، وهو أشبه باختلاف محور الشعر في ليدوان
الواحد وقصرى ما يقدر فيه ، بين الفواصل تقصر غالباً في السور
القصر ، وأنها تنوسط أو تطول في السور المتوسطة والطوال ، ولقياس
إلى حرف القافية ، يشتد التماثل وانتشاه في السور القصيرة وبقل
عالم في السور الطويلة وتعل قافية النون والميم وقبهما ياء أو واو
على جميع القوافي في سور القرآن وذلك مع تعدد الأساليب
الموسيقية ولو نشأت القوافي في سور المختلفة^(١)

وأما تنوع هذا النظام في السورة الواحدة ، فقد لاحظنا في
مرات كثيرة أن الفاصلة والقافية ، لا تنعيران لمجرد التوزيع . وقد

(١) الأسلوب الموسيقى هنا يتبع طول الفاصلة وقصرها ، ومواضع الإيقاع فيها ، كما سمع
طريقة بنائها اللغوي من حيث السهولة والحشونة . إلح

نجد في بعض المواضع سر هذا التعبير ، وحي عليا لسر في مواضع أخرى ، فلم يرد أن نتحمل به لنثبت أنه ظاهرة عامة ، كالتصوير ، والتحويل ، والتحسيم ، والإيقاع

فمن المواضع التي لاحظنا فيها أن تغير نظم القصيدة والقافية يعني شيئاً خاصاً ما جاء في سورة مريم فالسورة تبدأ بقصة زكريا ويحيى ؛ وتليها قصة مريم وعيسى ، وتسير القصيدة والقافية هكذا

﴿ ذَكَرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ، إِذْ هَدَىٰ رَبُّهُ نَدَاءً خَفِيًّا ، قَالَ : رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ، وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ .. إلخ

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا ، فَتَحَدَّثَ مِنْهُمُ الذُّمُّ جَهْدًا ، فَارْتَسَلْنَا بِهَا رُوحَنَا فَمُتَّئِلًا لَهَا نَظَرًا سَوِيًّا ، قَالَتْ : إِنِّي أَعْرَضْتُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ .. إلخ

إلى أن تنتهي القصائد على روي واحد ، ووجهة يتغير هذا انسق بعد آخر فقرة في قصة عيسى على النحو التالي :

﴿ قَالَ إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ أَتَى الْكِتَابَ وَخَعَلَنِي نَبِيًّا ، وَخَعَلَنِي مُرَكَّأً أُنَبِّئُ بِأَمْرِ بَيْنِي وَأَوْصِي بِلِقَاءِ رَبِّكَ مَا كُنْتُ سَاحِقًا ، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَمِمَّنْ خَعَلَنِي حَبَّارًا شَقِيًّا ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا .. ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ، مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّهُ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا

صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاحْتَلَفَ الْأَحْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ مَشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ... إلخ ﴿

وهكذا تعبر نظام الفاصلة فتطول ، ويتعبر نظام القافية فتصح
حرف النون أو بحرف الهمز وقبلهما مد طويل . وكأنما هو في هذه
الآيات الأخيرة يصدر حكماً بعد نهاية القصة ، مستمداً منها
ولمحة الحكم تقتضي أسدباً موسيقياً غير أسوب الاستعراض .
وتقتضي إيقاعاً قوياً رصيناً ، مدد إيقاع القصة الرضي المسترسل ،
وكأنما هذا السب كان التعبير

ومن ستأس في هذا الأساط ملاحظة أخرى ذلك أنه
بمجرد الانتهاء من إصدار هذا الحكم وإلقاء ذلك القرار ، عاد
إلى النظام الأول في القافية والفاصلة ، لأنه عاد إلى قصص جديد ،
على النحو التالي :

﴿ فَاحْتَلَفَ الْأَحْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
مَشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ أَسْمِعْ لَهُمْ وَأُنْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَ لَكِنِ الظَّالِمُونَ
الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْخَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ
فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، إِنَّا نَحْنُ بَرَثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْهَا
يُرْجَعُونَ وَدَكَّرْ فِي الْكُذْبِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ، إِذْ
قَالَ لِأبيه يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ
شَيْئاً يَا أَتَى إِلَى أَحَافٍ أَنْ نَسْكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ
لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا . ﴾ إلخ

وفي سورة « اسأ » بدأت السورة بقافية النون والهمز .

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ؟ عَنِ الْإِلَهِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا

سَيَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾

فما انتهى من هذا التقرير ، وبدأ نسقاً معنوياً جديداً - نسق
الجدل بدل التقرير - تغير النظم هكذا :

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ، وَالْجِبَالَ
أَوْدَادًا ، وَحَفِيقَكُمْ أَرْوَاحًا ، وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ سُبُلًا ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ
لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا . ﴾

وفي «آل عمران» سارت السورة على القديمة العنالة حتى قرب
النهاية ، فلما بدأ دعاء من طائفة من المؤمنين يذكرون الله قياماً
وقعوداً وعلى جنوبهم ، تعبرت القصيدة هكذا

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ ، فَقَبِلا عَذَابَ النَّارِ
رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تُجَلُّكَ النَّارُ فَقَدْ خَرَّتْهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصْرِ ﴾^١
وقد وقعت لنا مثل هذه الملاحظات في مواضع أخرى كثيرة ،
ولكنها لم نستطع هنا تفسيراً مفصلاً في جميع مواضع التعبير ، فأثرنا
بشبرٍ إنها ، كمقدار ما اتضح لنا من سرها ، وفيما عرصناه
مها ما يكفي

فإن تنوع أسلوب الموسيقى وإيقاعها تنوع الأحياء التي تنطق
بها ، فالدب ما يعتمد عليه في الحرم بأنه يتبع نظاماً خاصاً ، ويسبح
مع الحواريات باطراد لا يستثنى

وقد بحثنا في صسط هذه الفروق وتوصيحتها إلى قواعد موسيقية
خاصة ، وإلى اصطلاحات في الموسيقى لا يتبين الغم ٣ لكل قارئ .

ولا نأخذ نحن أيضاً ولكننا نحسب المسألة أيسر من ذلك إذا نحن
احترمنا ألواناً متعاقدة ، وأنساب متباعدة من هذه الموسيقى
في سورة البارعات أسبوعان موسيقيان ، وإيقاعان يسجدان
مع جوين فيهما تمام الانسجام .
أولهما يظهر في هذه المقطوعة ، السريعة الحركة ، القصيرة
الموجة ، القوية الملى ، تنسجم مع جو مكهرب ، سريع النض
شديد الارتجاف ، على النحو التالي .

﴿ والبارعات عرفاً ، والاشطت شطاً ، والساحت ساحتاً
فالسبت سقاً ، فندرات أمرٌ يوم ترْجفُ الرّاحة ، تبعها
الرّادفة ، قلوب يومئذٍ واحدة ، أنصُرُها حاشيةً ، يقولون : أئد
لمردودون في الحافرة إنداكما عظمة نجرة ؟ فو تدك إند
كرة حاسرة فإما هي زخرة واحدة ، فإدا هم ناسهرة ﴾

والثاني يظهر في هذه المقطوعة ، الوافية الحركة ، الرحبة لموجة ،
المتوسطة الطول ، تنسجم مع الجو القصصي الذي يبي مباشرة في
السورة حديث انكرة الحاسرة ، والزخرة الواحدة ، وحديث الساهرة .
على النحو التالي :

﴿ هل أتاك حديث موسى ، يداد رته بالوادي المقدس
طوى إدهب إلى فرعون به طعى فقل : هل لك إلى أن تزكى ؟
وهديك إلى ربك فتحشى ؟ ﴾ يخ

أض أننا نسا في حاجة إلى قواعد موسيقية ، ولا إلى اصطلاحات
فنية ، لنذكر الفرق بين الأسبوعين والإيقاعين ، فهو واضح لا

يُحْيى ، وهو كذلك مسجَم في كل حالة مع الحو الذي تطلق فيه
الموسيقى ولهذا الموسيقى وطبقة أساسية في مصاحبة المشهد المعروف ،
في المراتب الأولى والأخرى .

فلنستمع إلى نوع ثالث من هذه الموسيقى : ١٣ موسيقى الدعاء
المتحركة الرخية الطويلة الحاشعة :

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُحَابًا ، فَضِ عَذَابَ الدَّر
رَبِّكَ إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾
﴿ رَبَّنَا رَأَيْتَ مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رِسْقِكَ وَلَا تُخْرِبْنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، إِنَّكَ لَا
تُخَفِّفُ الْعِقَابَ ﴾

أو دعاء آخر

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ نَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ
إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ . رَبِّیْ كَسَمِيعُ الدُّعَاءِ رَبُّ اجْعَلْ لِي مَقِیمَ الصَّلَاةِ
وَمِنْ دُرَّتِي ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ رَبِّیْ أَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ
يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ .

وليس كذلك في حاجة إلى قواعد واصطلاحات لحسن أن
هذا أسلوب غير لأسويين لساقيين . مسجَم مع ادعاء كل
الانسجام ، تنطريب وانتموح والاسترسال .

ثم نحاضر فني بلون من الموسيقى المموجة الطويلة الموحية
- ولكنه لون آخر تماماً - نحاضر فنيه هـ عتاداً على وصوح
لفارق بينه وبين اللون الذي مضى .

إن التكوين الموسيقي لجملة ما يريد على التموح العمق
والسعة ، وفيه كدك هو وشحى إسم موسيقى الطول .

﴿ وهي تحريهم في توح كاللحان ونادى نوح به وكما
في معز : يا سي اركب معاً ولا تكُنْ مع الكافرين قال : سأوي
إلى حبل يعصمني من الماء . قال لا عاصم ليوم من أمر الله إلا من
رجم ، وحال بينهما الموج فكان من المعزقين ﴾

إن التكوين الموسيقي للجملة ليذهب طولاً وعرضاً في عمق
وارتفاع ، ليترك في رسم اهول العرص العميق والمدات المتوالة
المتووعة في التكوين اللغطي للآية تساعد في إكمال الإيقاع وتكوينه
وانساقه مع حو المشهد الرهيب العميق .

ويحظر مرة أخرى ، معرض لوباً ثالثاً تموح الموسيقى ،
مع اختلاف تموجها وانحائها :

﴿ يا أيها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ،
فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي ﴾

فترتل القارئ هذه الآيات بصوت مسموع ، ليدرك تلك
الموسيقى الريحة المماوحة إسم تشبه الموحة الريحة في ارتفاعها لقمتها
وانساقها إلى ماينها ، في هدوء وطمئنان ، يتفق مع حو الطمأنينة
في المشهد كله ولعل لتوارن المد إلى أعلى بالألف ، وإلى أسفل
بالباء على التوالي ، شأن في هذا التموح ، ولكنه ليس كل شأن ،
فهو يصير الأوران لا الألحان يصير الاتزان الخارج في المعمة
لا الروح الداحي فيها ذلك الروح مرده إلى حصائص عمصة في

حرس الحروف والكلمات ، يدركه من يقرأ التعبير القرآني في
حساسية وبرهاف .

فلنكتف بهذا السار الممكن ، حتى لا نفحم أنفسنا في خصم
الاصطلاحات !

* * *

ثم نرمي إلى أفق آخر من آفاق التناسق الهني ، في التصوير
القرآني

فما إن القرآن يرسم صورةً وعرض مشهداً ، يسعى أن
يقول إن هذه المشهد وتلك الصور ، يتواهرها أدق مظاهر
التناسق الهني في ماء الصورة ، وجو المشهد ، وتقسم الأجزاء ،
وتوزيعها في الرقعة المعروضة^(١) .

وقد ألمعنا إلى شيء من هذا في فصل « التصوير الهني » عند
استعراض صورته الذي ينفق مائه رثاء الناس ، وصورة الصفوان
عليه تراب ، مع صورة الذين ينفقون أموالهم انتعاء مرصاة الله ،
وصورة الحنة فوق لربة . وما بين هذه الصور جميعاً من توارن
في الأجزاء وتقابل في الأوضاع .

هذا النوع من التناسق ، هو مفتاح لطريق إلى التناسق الذي
نعينه هنا بالذات

والذي نعينه هو :

أولاً ما يسمى « بوحدة الرسم » وحيى المسدثون في القواعد
يعرفون شيئاً عن هذه الوحدة ، فلسنا في حاجة إلى شرحها ونكتي

(١) تفصيل لأستاذ الفنان « صبيح الدين محمد » معش الرسم بوزارة المعارف ثم أجمعه هذا
القسم لخاص يتناسق التصوير

أقول : إن القواعد الأوتية لرسم تحتم أن تكون هناك وحدة بين
أجزاء الصورة ، فلا تتناثر حركياتها

وثانياً : توزيع أجزاء الصورة - بعد تناسبها - على لرفعه نسب
معينه حتى لا يرحم بعضها بعضاً ، ولا تفقد تناسبها في مجموعها
وثالثاً : اللون الذي ترسم به ، والتدرج في الألوان ، بما يحقق
الحلو العام المنسق مع الفكرة والموضوع .

والتصوير بالألوان يلاحظ هذا التنسيق كما يلاحظه « التوزيع »
في المشاهد المسرحية والسينمائية والتصوير في القرآن يقوم على أساسه ،
وإن كانت وصيلته الوحيدة هي الألوان ، وبدت يسمى الإعجاز
فه على تلك المحاولات .

١- حد سورة من السور الصغيرة التي ربما يحسب البعض
أنها شبيهة بسجع الكهول أو حكمة اسحاح حد سورة « الفلق »
في الحلو المراد إطلاقه فيها ؟ إنه هو التعويذة . بما فيه من حياء
وهيمنة وعموص وإيهام فاسمع :

﴿ قُلْ نَعُودُ رَبِّ الْعِشْقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ عَاشِقٍ
إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ .

ها العلق الذي يستعيد بره ؟ يحذر من معييه الكثير معي
الفجر ، لأنه أسب في الاستعادة به من طلام ما سيأتي . ما خلق ،
ومن لعشق ، والنفثات ، والحسد ، ولأن فيه إيهاماً حصاً سعلم
حكيمته بعد قليل

بعود رب الفجر « من شر ما خلق » هكذا بالتكبير وبما
الموصولة الشاملة وفي هذا التكبير واشمول يتحقق العموص والطلام

العموي في العموم « ومن شر عاسق إذا وفى » « ليس حين يدخل
 ظلامه إلى كل شيء » ، وعسي مرهوباً مخوفاً « ومن شر البقاة
 في العقد » وحو البق في العقد من السحرة ولكواهن كنه رهة
 وحفاء وظلام ، بل هن لا ينش عداً إلا في الظلام « ومن شر
 حاسد إذا حسد » والحسد انفعال باطني مضمون في ظلام النفس ،
 عامض كذلك مرهوب .

الحو كله ظلام ورهبة ، وحفاء وعموص وهو يستعيد من
 هد الظلام بالله ، والله رب كل شيء فلم حصصه هنا « رب
 الملق » ؟ ليسمح مع حو الصورة كلها ، ويشترك فيه ولقد كان
 المبادر إلى الدهر أن يعود من لظلام رب النور ، ولكن الدهر
 هنا ليس المحكم ، إنما المحكم هو حاسة التصوير الدقيقة فانور
 يكشف العموص المرهوب ، ولا يتسق مع حو لعسق والبقي في
 لعقد ، ولا مع حو الحسد و« الملق » يؤدي معنى النور من الوجهة
 الذهبية ثم يتسق مع الحو العام من الوجهة التصويرية ، وهو مرحلة
 قبل سطوع النور ، تجمع بين نور والظلمة ، وله حوه انعامص
 المسحور

ثم ما هي أحواء الصورة هـ أو محتويات المشهد ؟

هي من ناحية « الملق » و« العاسق » مشهذان من مشهد الطبيعة
 ومن ناحية « البقاة » في العقد « و« حاسد إذا حسد » مخلوقان
 آدميان .

وهي من ناحية « الملق » و« العاسق » مشهذان متقابلان
 في الزمان ومن ناحية « البقاة » و« الحسد » حسان متقابلان
 في الإمكان

وهذه الأجراء مورعة على الرفعة توريعةً متناسقةً ، متفادنة في
اللوحة ذلك التقاس المتيقن ، وكلها ذات لون واحد ، فهي أشياء
عامصة مرهونة ، يلهمها العموص والطلام ، ويخو العام قثم على
أساس هذه الوحدة في الأجراء والألوان

ليس في هذا البيان شيء من التحمل ، ويست هذه البدقة
كلها بلا هدف ، وليس هذا الهدف حلية عابرة ، ومسألة ليست
مسألة الفاخر أو تقاليد ذهبة ، إنما هي مسألة لوحة وحو وتسيق ،
وتقاليد تصويرية تمدّ لها ربعاً في التصوير ، وهي إعمار بد
أداة مجرد التعبير

٢- عبر القرآن عن الأرض من بزل المطر ، وقيل تفتحها
بالسبات ، مرة بأنها « هامة » ومرة بأنها « حاشية » وقد يعهم
العص أن هذا مجرد تنويع في التعبير فسطر كيف وردت هاتان
الصورتان .

قد وردتا في سياقين مختلفين على هذا النحو :

« أ » وردت « هامة » في هذا السياق

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ فِي يُبٍ مِّنْ انْعِثٍ ، فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ
مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخْفَقَةٍ
وَعِبر مخلقة لِّسِرِّ نَكْم . ونُقِرُّ في الأرحام ما نشاء إلى أجلٍ
مُّسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِنَبْعَثْكُمْ فِيهِم مِّنْ قَبْلِهِمْ
يُتَوَفَّى ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ ، يَكْفِي لَا يَعْلَمُ مَن يَفْعَلُ
عِمْ شَيْئاً . وترى الأرض هامة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت
ورزت ، وأنبتت من كلِّ زُوحٍ بهيجٍ ﴾

وب « ووردت » حاشية « في هذا السياق »

﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ، ب كنم إليه تعدون
وب استكبروا ولدين عند ربك تسبحون به بالليل والنهار وهم لا يسأمون . ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أُرِلَ عليها
الماء اهتزت ورَبَّتْ ﴾

وعند التامل السريع في هذين السياقين ، يتبين وجه التماسق
في « هامده » و « حاشية » ب نحو في السياق الأول نحو بحث
وإحياء وإحراج ، فما يسبق معه تصوير الأرض بأنها « هامده »
ثم تهتز وترو ، وتست من كل روح بهيج
وب نحو في السياق الثاني هو نحو عمدة وحشوع وسجود ،
يتسق معه تصوير الأرض بأنها « حاشية » فإذا أُرِلَ عليها الماء اهتزت
وربت .

ثم لا يريد على الاهتزاز والإرباء هنا ، الإيماء والإحراج
كما راد هناك ، لأنه لا محل هما في نحو العمدة والسجود ولم
نحى « اهتزت وربت » هنا لتعرض الذي جاءتا من أحله هناك
إسمها هنا تحيلا حركة للأرض بعد خشوعها ، وهذه الحركة هي
المقصودة هنا ، لأن كل ما في مشهد يحرك حركة العادة ، فلم
يكس من المناسب أن تنفى الأرض وحدها حاشية ساكنة ، فاهتزت
لتشراء العاديين المتحركين في مشهد حركتهم ، ولكي لا يبقى جزء
من أجزائها مشهد ساكناً وكل الأجزاء تتحرك من حوله وهذا نوع
من الدقة في تنسيق الحركة التحيلية . يسمو على كل تقدير

ويحس أن يلاحظ أن الممود والحشوع يتحدان في المعنى العام ، ويستبدل هما في الآتين على قدرة لحائق على لعت ، هما إلا سكون أو حمود ، تعبه الحركة والحياة ؛ فهو كن المقصود هو مجرد أداء المعنى لدهي ، كانت هناك ضرورة هذا التسوية ولكن التعبير القرآني لا يرمي إلى مجرد أداء المعنى لدهي ، إنما يريد الصورة كذلك ، والصورة تقتضي هذا التسوية ، ليتم التماسق مع لأجزاء الأخرى في النوحة ، أو في المشهد المعروف

ودلالة هذا التسوية حاسمة في « لتصوير » عنصر أساسي في أسلوب القرآن ، وأن التعبير لا سبي إلى أداء المعنى لدهي مجرداً ، إنما ينص طبيعته بصورة حيه بمعالي ، تختلف هذه الاختلافات الدقيقة الطبيعة ، حسب اختلاف لأجزاء والألوان

ثم نسطر الآن في « وحدة الرسم » في كل من الصوريين ، وفي أجزاء الصورة كذلك .

وحدة الصورة الأولى هي محبوبات حيه تخرج من الموت ، و مشاهد حية والأجزاء هي نطفة تدرج في مراحلها المعروفة ، وستة تصير روجاً مبهجاً وهي ترب ميت تخرج منه تلك النطفة ، وأرض هامة تخرج منها هذه السنة والحو العدم ، هو حو الإحياء المرتسم من هذه الأجزاء

ووحدة الصورة الثانية هي محبوبات طبيعية عدة ، و مشاهد طبيعية والأجزاء هي الليل والنهار ، والشمس والقمر والأرض حاشية لله تموج بها وتتصل بها جماعات من الأحياء مخنفت النوع متحدث المظهر جماعة من الدس تستكرر عن لعدده ، وجماعة من الملائكة تعد بالليل والنهار وحو العدم هو حو العادة

المرتسم من هذه الأجزاء

وهكذا تتناسق الخريئات مع الحو العام ، وتتحد خريئات الصورة
لوحة تحقيقاً لوحدة الرسم ، وتوزع الأجزاء في الرقعة بهذا المضم
العجيب .

٣- عرص القرون في موضع مختلفة كثيراً من صور النعمة
التي أفاضها الله على الإنسان ؛ وفي كل موضع كان يعرض مجموعة
من النعم ، متسقة «الوحدة» على هذا النحو الذي يعرضه في
موضعين لممثيل

(أ) ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ
خُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ، وَمِنْ
أَصْوَابِهَا وَأَوْدَارِهَا تَشْرَبُهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾
﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ حَتَّى ظِلَالًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْحَبْلِ
أَكْبَادًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بُاسَكُمْ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾

(ب) ﴿ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعَمْرَةٌ تُسْقِيكُمْ مِنْهَا فِي طَوْبِهَا
مِنْ نَبِيٍّ قَرَتِ رُذْمٍ - لَسَاءَ حَالِصًا سَائِعًا لِشَارِبِينَ ﴾
﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّحِيلِ وَالْأَعْنَابِ ، تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا
وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾
﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ : أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْحَبْلِ بُيُوتًا ،
وَمِنَ الشَّجَرِ ، وَمِمَّا يَغْرِشُونَ ، نَمِ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، فَاسْئَلِي

سئل رنث دُللاً ، يخرُجُ من نُطوبها شِرابٌ مُختلفٌ ألوانُهُ ، فيه
شِفاءٌ للنَّاسِ إِنَّ في ذلكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾

يلاحظ في هذين السياقين أن الأعدام مذكورة فيهما على السواء
فيسطر من أي الخوص عرِضت في كل سياق ، ولماذا عُرِض
هذا الجانب هنا ، وذلك الجانب هناك :

« أ » السياق الأول يرسم صورة سيوت والأكد ، وانطلاق ،
ولسريع ، وكنها بلاذية ، أو يُحتمى ، أو يُستظل ، أو يُستتر
ولأن هذا هو « وحدة الرسم » عرِض من « الأعدام » الجانب الذي
يتفق مع هذه الوحدة عرِض الخلود التي تتحد بيوتاً تُستحف يوم
الطعر ، والأصواف والأوبار والأشعر التي تتحد أرديةً وأثناً .
والمطر كنه مطر آسية وأردية وظلال

« ب » والسيق الثاني يرسم مشهداً لاستخراج الأشربة السكر
الذي يستخرج من الثمار ، والعسل الذي يخرج من السحل ولأن
هذه هي « وحدة الرسم » عرِض من الأعدام الجانب الذي يربط
الأشربة عرِض اللبن السائغ للشاربين

ولم تقف دقة التنسيق عند وحدة منظر العامة ، بل عمشت إلى
دقائق الخريثات فهذا السكر يستخلص من الثمرات ، المحالفة
في هيئتها وطبيعتها للسكر ، وهذا العسل يستصفى من الأدهار ،
المخالفة في هيئتها وطبيعتها للعسل ، وهذا اللبن يستخرج من بين
قرث^(١) ودم ، المخالفين في هيئتهما وطبيعتهما لس ، فهي كلها

(١) القنداء المصوم في الأعدام

تستحيل من أشياء أخرى ثم لمطر كله مطر راعي حيوي فيه
حياة

ألا إنه الإبداع هو في وحدة الأحرار ودقة التصوير ، وناسق
الإجراح ومثل هذه اللمسات الدقيقة التي تستوعب دقائق الحريات
كثير في القرآن ، نكتي منه هذه الأمثلة ، ونضيف إليهم المثال
التالي لما له من دلالة خاصة

٤- ﴿ إِنَّ الدِّينَ يُبَيِّنُكَ لِمَا يَبْغُوبُ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ
أَيْدِيهِمْ فَمَنْ يَكَثُ فَمَنْ يَنْكَثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ
عَلَيْهِ اللَّهُ فَسِوَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

والصورة صوره مباينة بالأيدي ، وليسبق الحركه جعل
« يد الله فوق أيديهم » واستخدم هذا التحسيم في موضع التحريد
المطلق ، والتبريه الحاضر

وعلماء البلاغة يسمون مثل هذا « مراعاة الطير » ويعنون
منه الخائب اللفظي ، لأنهم لم يحاولوا أن يدققوا حسب التصوير ،
وحتى تأخذ تعبيرهم نفسه « مراعاة الطير » ويعني به جانب التناسق
اللفظي في الصورة ، للمحافظة على « وحدته الرسم » وعن حو المشهد ،
وعلى الأسجاس العام .

ولكن لقرآن لا يستخدم في التصوير هذه « اللمسات الدقيقة »
وحدها ، إنما يستخدم كذلك « اللمسات العريضة » (وحتى تعبر
بعدة التصوير ، لأنها في الواقع أمام تصوير قبل التعبير) هذه
اللمسات العريضة قد تجمع بين السماء والأرض في نظام وبين
مشاهد الطبيعة ومشهد الحياة في سياق حيث تتسع رقعة لصوره

هذا كله ، على أساس من « الوحدة الكبيرة » بدل « الوحدة الصغيرة »

١- من ذلك

﴿ أَفَلَا نُنْظُرُ ، إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ ٩

فهذه ريشة تجمع بين السماء والأرض والجبال والحمد ، في مشهد واحد ، حדרده تلك الأفاق الوسيعة ، من الحياة والطبيعة ، والملحوظ هنا هو « الصحامة » وما تنقبه في الحسن من استهوال ، والأحراء موزعة بين الاتجاه الأفقي في السماء المرفوعة ولأرض المسوطة ، والاتجاه الرأسي بينهما في الحذل لمصونة والإبل الصاعدة السهم وهذه دقة تأخذها عين مصور المدع ، في لأشكال والأحجام وما يلاحظ هنا عين المصور كذلك أن لوحة طبيعية قاعدتها السماء والأرض ، لا يبرر فيه من الحمد إلا الجبال ، ولا يبرر فيه من الأحياء إلا الحمال ، أو ما هو في حجم الجبال ، والحمل هو الحيوان المناسب ، لأنه ليف الصحراء الفسيحة التي تحددها السماء والحذل !

٢- ومن هذا النحو - مع تعبير في مواضع للمسات -

﴿ وَفَعَّلْنَا خَلْقَ السَّمَاءِ نُورًا ، وَرَبَّيْنَاهَا لَدُّ طَيْرِينَ ، وَخَفَعْنَا مِنْ كُلِّ شَطْرٍ رَحِمًا ، إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ ، فَاتَّعَاهُ شَهَبٌ مُبِينٌ ، وَلِأَرْضٍ مَدَدْنَاهُ ، وَلَقَيْنَاهُ فِي رَوَاسِي ، وَانْتَشَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْرِدٌ ، وَخَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، وَمَنْ لَسْتُمْ بِهِ بِرَازِقِينَ ﴾

في السماء «روح» صحبة ، وشبه تنفص على المردة وفي الأرض الممدودة رواس راسحة ، وست «موروس» (لا «مهيح» لطيف) وفي الأرض كذلك «معاش» هذا الجمع وانكثير ، وفيها من لا يبرقه للناس ، هذا التحويل والإصهار . وكلها مشاهد وخذنها الصحابة الحسية أو المعنوية

٣- وقد تنسع الرقعة ويتناول المدي ، وتعرض اللمسات ولكنها تدق في نهاية حتى تتناول الحريثات :
مثال ذلك .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَنَحْنُ الْعَبَثُ ، وَنَعْتَمُّ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّا تَكْتَسِبُ عَدَاً ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ نَبِيٌّ أَرْضٍ نَحُوتُ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ خَبِيرٌ ﴾

فهذه رقعة مهيحة في الزمان والمكان ، وفي الحاضر والواقع ، والمستقبل المنظور والغيب السحيق ، وفي خواطر النفس ووثائق الخيال ما بين اساعة العبيدة المدي ، والعيب العبيد المصدر ، وما في الأرحام الحياتي نقطة وحقيقته عن العنان ، والبرق في العبد وهو قريب في الزمان بعيد في المجهول ، وموضع الموت والدمع وهو معد في النطون .

إنها رقعة مهيحة الآماد والأرحاء ولكن اللمسات العريضة بعد أن تشاوط من أقطارها ، تدق في أطرافها ، وتجمع هذه الأطراف كلها عند نقطة العيب المجهول ، وتقف بها جميعاً أمام كوة صغيرة معلقة ، لو انفتح منها سم الحياط ، لاستوى القريب خلفها بالعبد ، ولا يكشف القاصي منها والدان

* * *

ثم مرقى إلى فوق آخر من آفاق التأسق القبي ، في التصوير
القرآني .

إن التأسق إلى هذا كان في الصورة أو المشهد ، وكان على
أعمه وأوده في الخرييات وفي الخو العام ولكن الإبداع منحصر لا
يقف هذا به في بعض الأحيان يصع إطاراً للصورة ، أو نطاقاً
لمشهد ، فسق الإطار وانطق مع الصورة والمشهد ، ثم ينطق
من حوهم الإيقاع الموسيقي الذي يناسب هذا كله ، فيبلغ من ذلك
ما يعبر عنه النموذج :

١ - ﴿ وَالصُّحَىٰ وَلَلَّيلِ إِذَا سَجَىٰ ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ،
وَلَا أَرَهُ حَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ
أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ، وَوَعَدَكَ عَائِلًا فَأُعَسَىٰ
فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
فَحَدَّثْ ﴾

لقد أطلق لتعبير حوّاً من الحما الطيف ، والرحمة الوديعه ،
والرضاء الشمل ، والشحى الشفيف « ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ،
وَلَا أَرَهُ حَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ »
ثم « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ، وَوَعَدَكَ
عَائِلًا فَأُعَسَىٰ ؟ » ذلك الحد ، وتلك الرحمة ، وذلك الرضاء ،
وهذا الشحى تسرب كلها من خلال النظم اللصيف العار ، الرقيق
اللفظ ، ومن هذه الموسيقى الساريه في التعبير ، الموسيقى لرتبة
الحركات ، الوند الحطوات ، الرقيقة الأصداء ، الشحة الإبداع
فلم أَرِدْ إطاراً هذا الحما الطيف ، وهذه الرحمة الوديعه ، وهذا

الرصى الشامل ، وهذا الشحى الشفيف ، جعل الإطار من الصحى الرائق ، ومن الليل السحى أصفى آيب من آونة الليل ولتهر ، وأشف آيب سرى فيهما التأملات وساقهما في انقط المناسب ، فأنيل هو « الليل إد سحى » لا الليل على إطلاقه بوحشته وطلامه ، الليل السحى الذى يرق ويصفر ، وتغشه سحابة رقيقة من الشحى الشفيف ، كحو اليم والعيلة ، ثم يكشف ويحل ، ويعقه الصحى الرائق . مع « ما ودعت ريت وما لى ، وبلاخرة حيرت من الأولى وسوف يعطيك ريتك فترصى » فتلتهم أنوار الصورة مع أنوار الإطار ، ويتم التناسق والإنساق .

٢- ولأن ستمع إلى موسيقى أخرى ، وانظر إلى صدر آخر ، لصورة تقابل هذه الصورة .

﴿العادات ضحاً ، وموريات قدحاً ، فالمعيرات صُحاً ، فأتزن به نقعاً ، فوسطن به خمعةً إنَّ الإنسان يرته لكود ، وربه على ذلك لشهد ، وربه لحب الخير لشديد ، أفلاً نعم إد ، غير ما في القبور ، وحصل ما في الصدور إن رهم مهم يومئذٍ لخير﴾ .

إن الموسيقى هـ شبه بموسيقى « لمارعات » ابى أسلم بل هي شد وأعف ، وهما خشونة ودمدمة وفرقة وهي تناسب الحو الصاحب لعمر الذى تشته القبور المعتبره ، والصدور المحصل ما فيها بقوة وجو الخجود وشدة الأثرة فلما راد لها كله إصداراً مناسباً ، اختاره من الحو الصاحب لعمر كذلك ، شيره بحيل الصالحة بأصواتها ، القدحة بخوافرها ، المعيره مع لصاح ، المثيرة

للعبار ، فكأن الإطار من الصورة ، والصورة من الإطار ، لدقة
التسبيق وجمال الاختيار

٣- هذا وديك إطاران لكل منهما لون خاص ، أو يودن
لأن بصورة بداخله لوناً واحداً أو يودين متقاربين ولكن قد يكون
للإطار أكثر من لون محدد ، لأن الصورة التي بداخله كذلك ،
كما في سورة الليل .

﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ، وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ، وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ
وَالْأُنثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ
بِالْحُسْنَى ، فَسَيُورُهُ لِیْسَرَى وَأَمَّا مَنْ تَجَلَّى وَامْتَنَى ، وَكَذَّبَ
بِالْحُسْنَى ، فَسَيُورُهُ لِلْعُسْرَى ، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى إِنَّ
عِلْمًا لِيَهْدِي ، وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ،
لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ، الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ، وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ،
الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ، وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ، إِلَّا
ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ، وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾

فها صورة فيه الأسود والأبيض فيها « من عطى وتقى »
وهو من محل واستغنى « وفيها من يسر ليسرى » ومن يسر
للعسرى وفيها الأشقى الذي بصلى النار لكبرى ، والأشقى الذي
سوف يرضى .

وي الإطار كذلك الأسود والأبيض فهما الليل إذا غشى
- في هذه المرة لا (الليل إذا سحى) وفيه النهار إذا تجلَّى ، المتقابل
عندما ليل إذا غشى وهذا الذكر والأنثى المتقابلان في النوع

والحقيقة فذلك إصدار مناسب للصورة التي يصممها
 أما الموسيقى المصاحبة ، فهي حش وأصبي من موسيقى « الصحنى »
 والنس إدا سحنى » ولكنها ليست عسفة ولا قاسية ، لأن الحو يسرد
 والس ، أكثر مما هو للهون والتقدير
 وذلك من مدائح التناسق بلا حد

• • •

ثم رفقى إلى أفق آخر من أفق التناسق القفى فى القرآن
 فالتصوير القرآنى حين ينتهى من تناسق الألوان والأحراء فى
 الصورة أو المشهد ، وحين يطلق حوله الموسيقى المكملة للحو ،
 لا ينتهى عند هذه الآفاق فى تناسق الإخراج إن هناك خطوة
 وراء هذا كله ، ضرورة للتناسق ، وضرورة لتأثير المشهد ، وبكمال
 أصبى فيه تلك هى الملاءمة لقررة لقاء المشهد معروضاً على الأعداء
 فى الحيل والتناسق القرآنى بسخط هذه ويؤديه أرفع أداء
 بعض المشاهد عمر سريعاً خاطفاً ، يكاد يحطف البصر لسرعته ،
 ويكاد الحياى منه لا يلاحقه وبعض المشاهد يطول ويطول ،
 حتى يبحل للمرء فى بعض الأحيان أنه لن يرول وبعض هذه
 المشاهد الطويلة حائل بالحركة ، وبعضها شاحص لا يربم وكل
 أولئك يتم تحقيقاً لعرص خاص فى المشهد ، يتسق مع العرص العام
 للقرآن ، ويتم به التناسق فى الإخراج أندع التمام
 وللفصر وسائل مختلفة ، وللطون وسائل شتى ، يؤدى كل
 منها العرص ، وينسب جو المشهد وهذه خطوة أخرى فى ذلك
 الأفق الجديد ..

والآن إلى المباح ، فبها وحدها نلاع

١ - يريد أن يصور للناس قصر هذه الحياة الدنيا التي تلهيهم عن الآخرة فيخرج القصر في هذه الصورة :

﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدُّنيا ، كماءٍ أُنزلناه من السماء ، واحتلظ به نباتُ الأرض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح ﴾

وانتهى شريط الحياة كله في هذه الحمل القصر ، وفي هذه المشاهد الثلاثة المتتالية

﴿ ماء أُنزلناه من السماء ﴾ و ﴿ احتلظ به نبات الأرض ﴾ و ﴿ أصبح هشيماً تذروه الرياح ﴾

لما أقصرها حياة !

ومع هذا فقد عرّض أطوار النبات كلها لم ينقص منها شيئاً إلا الأطوار الثانوية عرّض الله الذي يسفه ، ويحتلظ بالأرض نفسه ؟ وعرض نصحه ، وعرض تذريته فلماذا بقي من حياة النبات إلا الأطوار الثانوية ؟

قد احتشمت لهذا التعبير كل عناصر الصدق والدقة والحمل الصدق في عرض أطوار النبات ، فلم ينقص شيئاً منها لتحقيق العرض الديني والدقة لأنه حقق عرض الصورة كاملاً والحمل لأن سرعتها الخاطفة مما ينشط له الخيال

وقد استُخدم السق اللفظي في تقصير عرض المشهد كما استخدمت وسائل العرض الفنية هذا العرض فهذا « التعقيب » الذي مثله هذه « النهاء » في تتابع مراحل ، يتفق مع طريقة العرض السريعة ثم هذا الله اسرار لا تحتلظ به الأرض فتست ، بل تحتلظ به نبات الأرض مباشرة ، وهذه حقيقة ، ولكي حقيقة تعرض

في الوضوح الحاصل الذي يحقق السرعة المطلوبة

٢- ومثل هذا البص نص آخر في المعنى والإيجاز ، ولكنه مختلف في حلقة منه ، ليؤدي عرصاً آخر مع هذا العرص السابق

﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ، ولهوٌ ، وريثةٌ ، وتماحرٌ بينكم ، وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمثل غيثٍ أعطت الكفار ساته ، ثم يهيج فتراه مضفراً . ثم يكون حطماً﴾

فالصورة المعروضة لقصر الحياة متحدة تقريباً مع الصورة الأولى ، ولعل هذا يحيل لبعض أن هناك تكراراً كاملاً ، ولكن الواقع أن هناك اختلافاً دقيقاً به أطال عرص شريط الحياة الدنيا - كما يره الكفار - فهي لعب ، وهو ، وريثة وتماحر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد ليقول إن هذا الذي تعجبون به كله ، وهذا الذي تستطيرون أمده ، إنما هو في حقيقته قصير راتل ، كذلك الغيث الذي يعجب الكفار ساته ، ثم يهيج فتراه مضفراً . ثم يكون حطماً .

ودلك من دقائق الصور المكررة في القرآن وفي كل تكرار صورة مختلف اختلافاً سيراً أو كبيراً ، وتسي وهم التكرار بلا قصد إلا التكرار وإن يكن لتكرار عرصه في صدد الدعوة ولكنه مع هذا يسير مع احتمال الهي بالتنويع البليغ المدحوظ

٣- في المثاليين السابقين كان الاختصار يحدف المراحل الثانوية فهذا مثال آخر يعرض لقصر الحياة على الحو نفسه ، مع ريادة في الاختصار ، فيمسك بطرفي الحياة ويجمعهما في

ومصدة حاطفة ولكنه في الوقت ذاته يحيل هيئة الطول فيما بين
الطرفين :

﴿ أَلَمْ يَكُنِ الْكَائُرُ حَتَّى رَرْتُمْ الْمَقَابِرَ ﴾ فهذه الصورة من
جانب تصوّر قصر الحياة لما كادت تبدأ بالتكاثر ، حتى انتهت
بالمقابر - وذلك أقصر ما تصوّر به فترة الحياة ، في اللفظ والخيال -
ولكن من طرف حيّ ، قد عرّضت امتداد اللهو طول الحياة من
مبدئها إلى منتهاه ، وساعدت كلمة « حتى » على بروز لامتداد ،
فحيلت للنفس أن هؤلاء القوم لحوا في اللهو أمداً طويلاً وذلك
من عجائب التحيل ، فعرض قصر الحياة ، وعرض طول اللهو
فيها ، كلاهما مقصود من التعبير ، وكلاهما تحقق في هذا النص
القصير

٤ - وفي هذا الاتجاه - مع تعير في العرض - يرد النص الآتي .

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ، وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ نُسَكُّكُمْ
ثُمَّ نُخَيِّكُمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ؟

في أربع مقاطع قصيره بفقرة واحدة ، عرض قصة الخلق
من قلّ ظهورها بمرحلة ، إلى بعد انتهائها بمرحلة ، الموت الذي
سبق الحياة والحياة والموت الذي نَحْم به الحياة والحياة بعد
الوفاة .

والموت الذي سبق الحياة آزل ، والحياة التي تلته آمد ، والموت
الذي يعقبها آداد . تطوي جميعاً في المقاطع ، لعرض حاسب السرعة ،
ولكن يمتد بها الحال في الاستعراض ، ليقول : إن هذه الآمد
الطوية كلها ، قصيرة في يد القوة الكبرى .

إليه ما يصور القدرة القدرة ، التي تقول لشيء : « كن »
 ويكون « والسرعة مما يريد وصرح القدرة - ولا سيما إذا طوت
 هذه الآحاد المتطاولة في عمصة - فكيف تكفرون بالله إذن ، وهو
 الذي يملك أموركم كلها من قبل ومن بعد » ثم إليه ترجعون «
 وتكمنه هذه السرعة تأتي الآية التالية :

﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ، ثم استوى
 إلى السماء ، فسوّهن سبع سموات ﴾

هكذا في ومضة « خلق لكم ما في الأرض جميعاً » وفي ومضة
 « استوى إلى السماء فسوّهن سبع سموات » وخلق ما في الأرض ،
 أو شيء مما خلق في الأرض يستغرق في مواضع أخرى آيات طويلاً ،
 حينما يريد التفصيل والتطويل

٥ - وإلى ما كان القصر باختصار المراحل أو إدماجها
 فالآن نعرض مثلاً آخر يأتي القصر فيه من لمسات الريشة السريعة
 البعيدة اللمسات هذه الريشة المعجزة التي نخط لمسة هنا ولمسة
 هناك ، ثم تطوي الناحية كلها ، كأنها ما عرضت قط ، ثم يكاد
 الحبل يتلعت ليراه حتى يفقد فلا يلقاها .

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ ، فَتَحَطَّاهُ الطَّيْرُ ،
 أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ .

انظر لقد حرّم من السماء ، انظر لقد خطفته الطير ، انظر :
 لقد هوت به الرّيح في مكان سحيق انظر لقد احتوى المسرح
 ومن فيه !

ولم هذه السرعة الحافظة ؟ لئلا يتوهم أحد أن لم يشرك بالله

مستأ ، أو وجوداً ، أو قراراً ، أو امتداداً ، مهما يبلغ من التحسب والقوة والحاء واللبس ، إنما يأتي في رمضة من المحهول ، يذهب في رمضة إلى المحهول !!!

والآن إلى المشاهد المطولة :

١ - لقد رأينا قصة الماء الذي ينزل من السماء فيحتلظ به نبات الأرض . فصبح هشيماً تدرؤه الرياح ، لقد عرضت هناك في ومصات خطاطمات فليطر كيف يعرض قسم من على مهل وفي تودة .

﴿ الله الذي يُرْسِلُ الرِّيحَ فتثير سحاباً ، فيسقطه في السماء كيف يشاء ، ويجمعه كيف يشاء ، فتري التودق يخرج من حلاله فإد صاب به من نشاء من عبادته إذا هم يستشرون ﴾

هكذا . انقسم الأول وحده الخاص بوصول الماء إلى الأرض . يستعرق هذه الفقرات ، ويعرض في هذه المراحل . فالرياح تثور ، فتثير السحب في السماء - كما يشاء الله - فيتراكم هذا السحاب ، فيخرج منه المطر ، فينزل المطر من السماء ، فيستشعر به من ينزل عليهم بعد أن كانوا ياتسين .

فليطر كيف يعرض القسم الثاني بعد وصول الماء

﴿ أَلَمْ نَرِ أَنْزَلَ اللَّهُ أَنْهَاراً مِنَ السَّمَاءِ ماءً ، فسلكه نبات في الأرض ، ثم يُخرج به زرعاً محتبباً ألوانه ، ثم بهج فراه مضجراً ، ثم يجعله حطاباً ﴾ .

هكذا ، في تراح - ثم * ، وفي تمهل وطمه فادء ينزل فلا

يحتلظ بالأرض ولا ست الأرض ؛ إنما يُسلط يافع « ثم »
 « يجرح به ررعا » - وفي الوقت مسحة تنجلي ألوان الزرع المختلفة
 الألوان - « ثم » « يبيع فتراه مصعراً » - وفي الوقت مهلة لتراه -
 « ثم » « يجعله حطماً » « يجمعه ! » وهناك « أصبح هشياً »
 « أو » يكون حطماً ، كما يصح نفسه ، أو يكون بلا مصير ولا
 « اعل ! وهنا جمعه » حطماً « ثم بي على هذه الهيئة وهناك » تذروه
 الرياح « فلا يبقى له أثر !

إبه هـ في معرض بيان النعم للإلهة ؛ فطء عرصها ، ولئت
 صورها ، وتجلي مشاهدتها ، أحذر بالموقف ، وهذا تستمتع بكل
 هذا الوقت الطويل !

٢ - وصورة أخرى ندرج يشه به محمداً والدين معه .

﴿ ذلك مشهم في الترة . ومثهم في الإنجيل كَرَّعِ
 أحرخ شطه ' ، فأرره ، فاستعبط ، فاستوى على سوقه ،
 بعث الزرع يعطهم الكفار ﴾

فماذا ترى في هذا الزرع ؟ إبه لا يصح هشياً مطلقاً ، ولا
 تذروه الرياح أمداً . إبه يحيل إليك أنه ثابت هـ في مكانه ، فار
 في مسبه ، خالداً في موضعه . ومدة العرص هـ دائمة ، وانظر
 ثابت ، حتى تتحول عه العين ، ولا يتحول هو عن العين . وذبت
 هو الهدف المقصود . وهذا الثبات طريق التطويل
 ومن الدقائق المطيفة هـ ، أن الصورة العامة تسير على طريقة

الإطالة - كما أسلفنا - ولكن الأجزاء الأولى منها تتم في سرعة متعاقبة « كزراع أخرج شطاه » « آزره » « ف » استعلط » « استوى على سوقه » فقد تم العنط والاستواء في مدى قصير ثم ثبت بعد ذلك وقر إن الإسراع الأول مقصود كالأستقرار الأخير في تصوير حاد المسلمين ، ثم عوهم ، ثم يستقر وضعهم ابتداءً ٣ - والحجة هناك كانت تطوى في عمصة عين ، من مدتها إلى مشاهد ، فسطر كيف تطوى هنا في معرض الإطالة إن مرحلة واحدة من مراحل حياة آدمية معقدة ، من بين حيوات كثيرة ، تستغرق مثل هذا الفرع .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ من طينٍ ، ثم جعلناه نطفةً في قرارٍ مكينٍ ، ثم خلقنا النطفة علقةً ، فخلقنا العنقة مضغةً ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾

مرحلة الحين وحده ، من حياة آدمية لا الحياة كلها ، تستغرق هذا الفراغ وتعرض هذا التمهيد ، وتذكر فيها جميع الخطوات لأب معروضة للعبارة ، ولتأثير الوجداني ، وليبان دقة العلم الإلهي فحيثما يحسن ولا شك التطويل .

٤ - ومن بين المشاهد التي يطول عرصها - حياناً - مشاهد العذاب في يوم القيامة بعد تشخيص المشهد كونه حاصر ، وتنسيق أحواله كأنه مشهود ، يطول عرصه يمسس الحس ويوقظ الخيال ، ويتسرب الخوف والتأثر إلى أعماق النفس وقرارة الوجدان وإطالة العرص هنا وسائل شتى تعرض منها بعض المادح

ومشهد القيامة هي أكثر المشاهد تنوعاً في القرآن ، حتى همت
أن أفرد لها فصلاً خاصاً لولا تصحح الكتاب (١)

«أ» مرة تكون الإطالة باللفظ المحيل لتكرار ، مثل
﴿إِنَّ الدِّينَ كَهَرُوا بآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ، كُلَّمَا نَصَحْتَ
حُودَهُمْ نَدَّبْنَاهُمْ حُلُودًا غَيْرَهُ لِيَذُقُوا الْعَذَابَ﴾

فالحيل هنا نزل يستعرض المشهد المروع ، ويكرر العملية
المفرقة ، وكما راد عزاء وارتياحاً ، راد إقبالاً على التكرار ذلك
أن الهول يشد إليه النفس ويوثقها ، كلما همت منه بالفرار !
«ب» ومرة تكون الإطالة بالنسق اللفظي ، كالتفصيل بعد
الإجمال ، مع عرض الأجزاء بالتفصيل ، مثل .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
فَتَشْرَاهُمْ بَعْدَ الْإِيمَانِ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَيَكْوَى
بِهَا جُودُهُمْ ، وَجَوَافُهُمْ ، وَطُحُورُهُمْ هَذَا مَا كَرَّمْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ
فَنُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْبُرُونَ﴾

فهو - أولاً - يحمل العذاب «فشرهم بعدد آليم» وقطع
الساق ، ليستريح المشاهد ، ويأخذ نفسه ويستعد للتفصيل ثم
أخذ في التفصيل

وهو - ثانياً - حيناً بدأ التفصيل بعد الإجمال ، بدأ العملية

(١) حصصها من المكية القرآنية كتاب خاص صدرت طبعته الأولى عام ١٩٤٨
وطبعته الثانية صدرت في عام ١٩٥٣

من أول مرحلة ، وعلى مهل ، ولذهب والقصة قد صار جمعا
 لا مثنى - بالإبداع إلى قطعهم الكثيرة ، وفي هذا تطويل بالكثرة
 « يوم يحمى عب » - لا عليهم - ثم ها هي ذي « يحمى عبها »
 فستظر حتى تُصهر لقد صُهرت ، فلندأ العملية الرهبة هذه
 هي الحاء تكوى لقد فرعو من الكي في الحاء فتتحرك الأجسام
 لتُحوب هذه هي الحبوب تكوى لقد فرعوا من الكي في الحوب
 فتتحرك الأجسام لتُظهر هذه هي الظهور تكوى تمهل . فلم
 ينته العرص بعد هذا التقريع والتأيب ، عند الانصراف المتحيل
 يتناوب العذاب جماعة أخرى من الصف الطويل « هذا ما كسرتهم
 لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكبرون »
 « ح » ومرة تكون الإحالة بتفصيل الحركات وتعدد ، وبتكرار
 الذي يحيله الألفاظ معاً .

﴿ هَذَا خِطَبَانِ احْتَصَمُوا فِي رَهْمٍ فَالْدِينُ كَهَرُوا قُطِّعَتْ
 هُم ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ؟ يُصَبُّ مِنْ فَوْقَ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ، يُصْهِرُ بِهِ مَا
 فِي بُطُونِهِمْ وَالْخُلُودُ ، وَهُمْ مُقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ، كَلَّمَا أُرْدُوا عَلَى
 أَعْقَابِهِمْ لَمْ يَنْصَرِفُوا مِنْهُمْ أَعْمَى ، وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾
 فهذا مشهد عيب صاحب ، حائل بالحركة المتكررة هذه
 ثياب من نذر تقطع وتفصل وهذا حميم يصب من فوق الرؤوس ،
 يصهر به ما في البطن والخلود وهذه مقامع من حديد وهذا هو
 العذاب يشتد ، وتتجاوز الطاقة ، هب « الدين كهروا » من الوهج
 والحميم ، والنصب الأليم ، يهيمون بالخروج من هذا « العم »
 وما هم أولاء يُردّون نصف « ذوقوا عذاب الحريق ! » ويعطل

الخيال يكرر هذه الصورة من أولى حقايقها إلى آخرتها ، حتى يصل إلى حقة الحروح ثم الرد العييف ، يبدأ العرض من حديد !

« د » ومرة تكون الإطالة توقف حركة المشهد ، وإحلاله من كل ما يشعر بالحركة . فهذا « طالم » يقف يوم القيامة ، وكأنما هو واقف وحده على مسرح ، بسىء ويعيد في الدم ، حتى لهم بأن تقول له كفى يا أحبا فلا فائدة ! مع أن المدة التي يستغرقها قصيرة نسبياً ، ولكن يحيل إليك أنها طويلة طويلة .

﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الْعَذِيبُ عَلَى يَدَيْهِ ، يَقُولُ يَا لَيْتَنِي تَخَذْتُ مَعَ الرُّسُلِ سَبِيلاً يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً حَبِيباً لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدِرًا ﴾

فهذا الدم الطويل ، والتذكر لما مضى ، مصحوباً بالعمة الطويلة المملوطة ، والموسيقى المنموحة المديدة ، يحيل إليك الطول ، ولو أن اللفظ نسبياً قليل وإطالة موقف الدم تنسق مع التأثير الواحداني المطلوب

وشبيه بموقف الدم ، موقف الاعتراف بها هم أولاء جماعة من المحرمين يسألون « ما سلككم في سقر ؟ » فيكون الجواب :

﴿ مَن نَّكَ مِنَ الْمُنْصَرِّينَ . وَلَمْ يَكُنْ تُطْعَم أَسْكَينَ وَكَانَ حَوْصُكَ مَعَ الْحَائِصِينَ وَكَانَ يُكَدَّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَى الْبَاقِينَ ﴾

وكان حسهم أن يقولوا ، كما كاهرين أو مكدين ولكن هذا يحسن الاعتراف بالتقصير

« هـ » وقد تشترك الوسائل الخاصة كلها في إطالة عرض المشهد .

فيستخدم السق اللطفي ، وتذكر التفصيلات ، ويوقف عرص
المشهد في بعض حلقاته ، كما في هذا المودح المفرد

﴿ وَهَذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً ، وَخُمْتُ الْأَرْضُ وَالْحَدَالُ
فَدُكَّتْ دَكَّةً وَاحِدَةً هَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ، وَاشْتَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ
يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَمَلَكَ عَلَى أَرْحَاقِهَا ، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ
يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ، يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُولِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ ، يَقُولُ : هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةً ،
إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حَبِيبِيَّةً ، هُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ، فِي حَقٍّ
عَابِيَةٍ ، قُطِفَتْ دَنَّةٌ ، كُنُوا وَاشْرَبُوا هَيْثَا مَا أَسْقَمْتُمْ فِي الْأَيَّامِ
الْحَالِيَةِ

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُولِيَ كِتَابَهُ شِمَالَهُ ، يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي مَاتَ كِتَابِيَّةً ،
وَلَمْ أَذَرِ مَا حِسَابِيَّةً ، يَا لَيْتَنِي كَانَتْ الْقَاصِيَّةُ ، مَا أَعْنَى عَنِّي مَالِيَّةُ ،
هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ خَلَوَهُ فَعَلُّهُ ، ثُمَّ الْحَجِيمَ صَوُّهُ ، ثُمَّ فِي
مَسْجِدٍ دُرْعَاهَا سَبْعُونَ دِرْعًا فَسَكَوَهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ،
وَلَا يَحْصُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ، فَلَيْسَ بِهِ الْيَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ ، وَلَا
طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ، لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾

في هذا العرص إطالة في التفصيلات ، وإطالة في التعيرات ،
إطالة في المعدات ، ووقف لبعض الحلقات وتسيفاً للجو كله
نحيء السلسلة التي « درعها سبعون درعاً » فتكون إحدى طرائق
التطويل والتحويل !

٥- ومن مباح الإطالة المقصودة مواقف المواجهة بين صورتين متقانتين إحداهما في الحياة الدنيا ، والأخرى في يوم القيامة على النحو التالي .

﴿ إِنَّ كِتَابَ الْأَنْزَارِ لِي عَيْنٍ ، وَمَا أدْرَاكَ مَا عَيْنُونا ؟ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ؟ يُشْهَدُ الْمَقْرُونُونَ . إِنَّ الْأَنْزَارَ لِي نَعِيمٌ ، عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ، نَعْرِفُ فِي زُجُوجِهِمْ نَصْرَةَ لَعْنٍ ، يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَحْتُومٍ حَمَامِهِ مَسْكٌ ، وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَبَّهْوا ، وَنُوحِواهُ مِنَ تَشْمِيرٍ ، عَمَّا تَشْرَبُونَ الْمَقْرُونُونَ ﴾

﴿ إِنَّ الدِّينَ أَحْرَمُوا كَانُوا مِنْ الدِّينِ آمَنُوا يَصْحَكُونَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَمَّرُونَ ، وَإِذَا انْقَسَوْا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ، وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا . إِنَّ هَؤُلَاءِ لَصَالُونٌ - وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ خَافِضِينَ ، فَالْيَوْمَ الدِّينِ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَ ﴾

إن هذا التطويل يتناول مشهدين : مشهد النعيم العظيم . الذي يتمتع به المقرَّبون ومشهد السحرة التي كانت تسلهم من المحرمين وكلما ردَّ المشهدين طولاً - وهذا المشهد الأخير بصفة خاصة - كانت المفاجأة في النهاية أوقع ، عندما يقول « فالْيَوْمَ الدِّينِ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَ » وهذا هو المقصود .

٦- وتطوُّن المواقف التي تعرض فيها قدوة في الإيمان ، يؤثر حلول عرصها في الوجدان ، ويدعو المشاهدين إلى أن يشاركوا المؤمنين عمادتهم وصفاتهم المعروضة على الأنظار وذلك في القرآن كثير ، نختار منه هذا المثال :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ خُسُوفِهِمْ ،
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا
سُبْحَانِكَ ، فَقَبْلِ عَذَابِ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَحْرَبْتَهُ
- وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ - رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُبَادِيًا بِأَيْدِي الرَّبِّ لِلْإِيمَانِ
أَن آمَنُوا بِرَبِّكُمْ ، فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ،
وَتَوَقَّعْ مَعَ الْآبِرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رِسْمِكَ ، وَلَا تُخْزِنَا
يَوْمَ الْقِيَامَةِ . إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ

﴿وَسُتَحَابُّهُمْ رِبِّهِمْ أَنِّي لَا أَصْبِحُ عَنْزٌ عَمِلَ مِنْكُمْ مِنْ
ذِكْرٍ أَوْ أُنْثَى ، نَعَصَكُمْ مِنْ نَعَصِ الْفَالِدِينَ هَدَحُوا وَأَحْرَحُوا مِنْ
دِيرِهِمْ ، وَأَوْدُوا فِي سَيْلِي ، وَقَانُوا وَقْتَنَا ، لَأَكْفُرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ،
وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ حَتَّى تَخْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَشْهَارُ ، ثَوَابٌ مِنْ عَدَدِ اللَّهِ ،
وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ ﴾

فمن ذا الذي لا تحدثه بهه في أَسَاء هذا المشهد الطويل الثابت ،
المتميز بالخشوع والخضوع ، الحافل بالتأثر العميق وفي أثناء
هذا الرد العظيم المفصل لتصحيات المؤمنين ، ولبحراء الذي ينتظرهم
يوم الدين من ذا الذي لا تحدثه بهه أن يسلك مع « أولي الأبصار »
هؤلاء ، بدعو دعاءهم ، ويخشع خشوعهم ويستحسب له ربه
معهم ، فيأله مثل ما يناهم ؟

ومثل هذه الصورة الأدبية الحية كثير ، حينما قصد القرآن إلى

التأثير بالقدوة في الوجدان والضمير .

* * *

وهكذا تتكشف لساظر في القرآن آفاق وراء آفاق ، من التناسق
والانساق من نظم فصيح إلى سرد عذب إلى معنى مترابط
إلى سق متسل إلى لفظ معرّ إلى تعبير مصور إلى تصوير
مشحون . إلى تخيل مجسم . إلى موسيقى معمة إلى انساق في
الأحراء إلى تناسق في الإطار إلى توافق في الموسيقى إلى افتداد
في الإخراج :-

وهذا كله يتم الإبداع ، ويتحقق الإعجاز

القصة في القرآن

القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه - كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة ، التي ترمي إلى أداء عرض فني صلب - إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء ، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها . شأنها في ذلك شأن الصور التي يرسمها للقيامة وللدعيم والعداب ، وشأن الأدلة التي يسوقها على الحق وعلى قدرة الله ، وشأن الشرائع التي يفصلها ، وأمثال التي يصرها إلى آخر ما جاء في القرآن من موضوعات .

وقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها ، وفي طريقة عرضها ، وإدارة حوادثها ، لمقتضى الأغراض الدينية ، وظهرت آثار هذا الخصب في سمات معينة سخرها لها بعد قليل ولكن هذا الخصب الكامل بعرص الديني ، ووفاء هذا العرص بدم الوفاء ، لم يمنع برور لخصائص الفنية في عرضها ولا سيما خصصة القرآن الكبرى في التعبير . وهي التصوير

وقد لاحظ من قبل أن التعبير القرآني يؤلف بين العرص الديني وعرص الفني ، فما يعرضه من الصور والمشاهد بل لاحظنا أنه جعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني ، ويحاطب حسنة الوجدان الدينية ، نعمة الجمال الفنية والفن ولدين صواب في

عميق النفس وقرارة لحسن وإدراك الجمال الفني دليل استعداد
 لنسي التأثير الديني ، حين يرتفع النص إلى هذا المستوى الرفيع ، وحين
 تصفو أنفس لتلقي رسالة الجمال
 وقد أوردنا في فصل « التصوير الفني » نموذجين من القصة ،
 عملت عليهما الريشه المعبرة عنهما ، وهي تعرضهما عرضاً أحياناً
 وقد وعدنا هناك بتفصيل البحث في القصة فسنأخذ الآن في هذا
 التفصيل^(١) .

أغراض القصة

سبقت القصة في القرآن تحقيق أغراض دينية بحثة كما
 سلفا ، وقد تناولت من هذه الأغراض عدداً كبيراً من الصعب
 استقصاؤه ، لأنه يكاد يتسرب إلى جميع لأغراض القرآنية ، فإثبات
 الوحي والرسالة ، وإثبات وحدانية الله ، وتوحيده الأديان في أساسها ،
 والإبذار والتشهير ، ومظاهر القدرة الإلهية ، وعاقبة الخير والشر ،
 والعجلة والترث ، والصبر والخرج ، والشكر والطر ، وكثير غيرها
 من لأغراض الدينية ، والمرامي الحلقية ، قد تناولته القصة ، وكانت
 أداة له وسيلاً إليه

فإذا نحن استعرضنا هذه أغراض لقصة القرآنية ، فإنما شئت
 أهم هذه الأغراض وأوضحها ، وترك استقصاءها وتنميتها

(١) هذا التفصيل على طوره بعد موزة للبحث الكامل الذي كتب عدده وأرجو أن
 يخرج هذا البحث الكامل في حلقه من سلسلة « مكتبة القرآن » إن شاء الله

١ - كان من أعرّض القصة إثنت الرحى والرسالة محمد
 - صلى الله عليه وسلم - لم يكن كاتباً ولا قارئاً . ولا عرف عنه
 أنه جلس إلى أئمة اليهود والنصارى ، ثم جاءت هذه القصص في
 القرآن - وبعضها جاء في دقة وإسهاب - كقصص إبراهيم ويوسف
 وموسى وعيسى مروردها في القرآن اتحد دليلاً على وحي برحى
 والقرآن نصّ على هذا العرص نصّاً في مقدمات بعض القصص أو
 في ديوطه

جاء في أول سورة « يوسف » .

﴿ يَا أَيُّهَا الْقَارِئُ قَرَأْ عَزِيْزًا لِّعَيْنِكَ يَقْبَلُونَ حَسْبُ نَقْصٍ عَلَيْكَ
 حَسْبُ الْقَصَصِ مَا أُوْحِيَإِلَيْكَ هَذِهِ الْقُرْآنُ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ
 مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

وجاء في سورة « القصص » قبل عرص قصة موسى

﴿ تَلَوْ عَيْكَ مِنْ بَأْسِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾
 وبعد انتهائها .

﴿ وَمَنْ كُنْتَ تَحْسَبُ الْأَعْرَابَ يَدْ بَصِيْبٍ إِلَيْهِ مُوسَى
 الْأَمْرُ ، وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، وَلَكِنْ أَشْأَانَا قُرْآنًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
 الْعُمُرُ ، وَمَا كُنْتَ نَازِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَلَوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَلَكِنْ
 كَذَّبُوا بِرُسُلِهِمْ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ، وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ
 رَبِّكَ ، لِيُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

وجاء في سورة « آل عمران » في أثناء عرصه لقصة مريم

﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ
يُنْقَلُونَ أَقْلَانِهِمْ إِلَهُمْ يَكْفُرُ مَرِيماً ، وما كنت لديهم إذ يُخْصِمُونَ ﴾
وجاء في سورة « ص » قل عرض قصة آدم

﴿ قل : هو سَأَ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ما كان لي من علم
شَيْئاً إِلَّا عِزِّي إِذْ يُخْصِمُونَ إِنِّي يُوْحِي إِلَيَّ إِلَّا أَسْمَاءُ أَرَنْدِيْ مِيزِ
إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ لِّهَذَا شَيْئاً مِنْ طِينٍ ﴾

وجاء في سورة « هود » بعد قصة نوح :

﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت
ولا قومك من قبل هذا .

٢- وكان من أغراض القصة : بيان أن الدين كله من عند
الله ، من عهد نوح إلى عهد محمد وأن المؤمنين كنهم أمة واحدة ،
والله الواحد رب الجميع ، وكثيراً ما وردت قصص عدد من الأنبياء
محتسمة في سورة واحدة ، معروضة بطريقة خاصة ، لتؤيد هذه
الحقيقة وقد كان هذا عرضاً أساسياً في الدعوة ، فقد تكرر محيى
هذه القصص ، على هذا النحو ، مع اختلاف في التعبير ، لتثبت
هذه الحقيقة وتوكيدها في النفوس بصرح لذلك مثلاً ، جاء في
سورة « الأنبياء »

﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان^(١) وضياءً وذكراً للمتقين ،

(١) في وصف النور : بأنها « الفرقان » ما يساعد على هذا التفسير بين الدين حتى في صفه
الكتاب ، والفرقان اسم كذلك للفران

الذين يحشون رءسهم بالعير ، وهم من الساعة مشفقون . وهذا
ذكر مبارك تتركه أفاضلهم له مكرون ؟

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين ﴾ قال
لأبيه وقومه : هذه التائين التي أنتم لها عاكفون ؟ قالوا : وحدها
آباءنا لها عابدين ﴿ إلى قوله ﴾ ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم
لأنحسرين ، ونحبناه ووطأ إلى الأرض التي نرك فيها لعين
ووهنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين ، وجعلناهم
أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة ،
وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين .

﴿ ووطأ آتينا حكماً وعلماً ﴾ ونحبنا من القرية التي كانت
تعمل الحنات إسم كانوا قوم سوء فاسقين ، وأدخلنا في رحمتنا ،
به من الصالحين

﴿ ونوحاً إذ نادى من قبل ، فاستجبنا له ، فنحنياه وأهله من
الكراب العظيم ، وبصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إسم
كانو قوم سوء ، دغريهم أنحسين

﴿ داود وسليمان إذ نحكمان في الحرت ، إذ بقشت فيه
عم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين فقهمها سليمان - وكلاً
آتينا حكماً وعلماً - وسخرنا مع داود الحد نسخر والطير .
وكنا عابدين ، وعلمناه صنعة بسوس نكم نحصكم من أناسكم

فهل أنتم شاكرون ؟

﴿ وَلَسْنَا مِنَ الْبَرِيحِ عاصِفَةً تَحْرِي بَأْمَرَهُ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي
بَرَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ، وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُّ لَهُ ،
وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ، وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسِيئٌ ضَلَّيْتُ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ
فَاخْزِئْ لِي ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ، وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِ
رَحْمَةً مِنَّا عِندَ نَادِيهِ ، وَذَكَرِيَ الْعَالَمِينَ

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ إِذْ دَرَسَ ، وَذَكَرَ الْكُفْلَ كُلُّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ
وَوَضَعْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِسْمَافِيلَ

﴿ وَذُكِرَ الْيُونُسُ (١) إِذْ ذَهَبَ مُغَاصًّا ، فَطَرَّ أَنْ يَنْتَقِرَ عَلَيْهِ ،
فَادْعَى فِي الظُّلُمَاتِ ، أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَخَرَجْنَاهُ مِنْ أَمْعٍ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ
﴿ وَذَكَرْنَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ، وَأَنْتَ خَيْرُ
الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَوَهَبْنَا لَهُ نَحْيًا ، وَأَضَلَّجْنَا لَهُ رَوْحَهُ
إِذْ هَمَّ يَخْرُجُ فَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَنَادَعَوْنَا رَعْمًا وَرَهْمًا ، وَكَانُوا
لَنَا حَاشِعِينَ

﴿ وَأَنَّا اخْتَصَيْنَا فَرَحَهَا (٢) ، فَفَتَحْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ، وَجَعَلْنَاهَا

(١) يونس صاحب الخوت

(٢) مريم

واسمها آية للعالمين

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ ، أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَإِنَّا رَتَكُمْ وَعَدُوٌّ﴾

وهذا هو العرص الأصيل . من هذا الاستعرص الطويل
وعيره من الأعراض لأخرى ، تأتي عرصاً وفي ثديه

٣- وكان من أعراض القصة بيان أن لدين كنه موحد الأساس
فصلاً على أنه كله من عند إله واحد وتعالج كات ترد قصص
كثير من الأساء محتمة كذلك مكررة فيها العقيدة الأساسية ،
وهي الإيمان بالله الواحد على نحو ما جاء في سورة « الأعراف »

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ، هُوداً ، يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ إلخ

﴿وإلى عادِ أخاهم هوداً قار ، يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ
إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ . إلخ

﴿وإلى ثمودِ أخاهم صالحاً قار ، يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ . إلخ

﴿وإلى مَدْيَنَ أخاهم شعيباً قال ، يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ... إلخ

فهذا التوحيد لأساس العقيدة ، يشترك فيه جميع الأساء في
جميع الأدوار ، ورد قصصهم محتمة في هذ اسباق تأكيد
ذلك العرض انحصار

٤- وكان من أعراض القصة بيان أن وسائل الأساء في الدعوة
موحدة ، وأن استقلال قومهم لهم متشابه فصلاً على أن الدين من

عبد إله واحد ، وأنه قائم على أسس واحد - وتعالى هذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء محتمةً بعبادته ، مكررة بها طريقة الدعوة ، على نحو ما جاء في سورة « هود » .

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله . إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم هذان الملا الذين كفروا من قومه . ما تراك إلا نשרاً مثلك . وما تراك إلا سفاك بالأيدي هم أرادوك بادي الرأي . وما ترى لكم علينا من فصل بل طغكم كاديين ﴾ إلى أن يقول ﴿ يا قوم لا أنسأكم عليه مالا إن أخري إلا على الله ﴾ وإذ أن يقولوا له ﴿ يا نوح قد خادتنا فأكثرت جدالك ، فأتيت بما نعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ ... إلخ

﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون يا قوم لا أنسأكم عليه أجراً إن أخري إلا على الذي قصري ، أفلا تعقون ؟ ﴾ إلى قوله ﴿ قالوا يا هود ما حنتنا سنة ، وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قوتك ، وما نحن لك بمؤمنين إن تقول إلا اعتراضك نعص آلِهتنا سوء قد إني أشهد الله وشهدوا أي يريء مما تُشركون من دونه ، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ إلخ

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم

من إليه غيره ، هو أشأكم من الأرض ومنعمركم فيها ، فاستعبروه
ثم توبوا إليه . إن زلي قريبٌ مُجيبٌ قالوا يا صاح ، قد
كُنتَ فيما مَرَّحُوا قبل هذا . تنهد أن نعد ما نعد آتوا ؟ وإنا
لنـي شكٌ مما تدعوننا إليه مُرببٌ . إلح

٥- وكان من أعراس القصة بيان الأصل مشترك بين دين
محمد ودين إبراهيم بصفة خاصة ، ثم أديان بني إسرائيل بصفة
عامة ، وإبرار أن هذا الاتصال أشد من لاتصال النعام بين جميع
الأديان . فكررت الإشارة إلى هذا في قصص إبراهيم وموسى
وعيسى

﴿ إِنَّ هَذَا لَنـي الصُّحُفِ لِأَوَّلَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾
﴿ أَمْ لَمْ يُبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزُرُ
وَارِدَةَ وَرَزْ أُخْرَى ؟ ﴾ ﴿ إِنَّ أَوَّلَ الدِّسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ
وَهَذَا السِّيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ﴿ مِلَّةُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ
لِمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ﴿ وَفَقِينَا عَلَى آثَارِهِمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا
لِمَا فِي يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ، وَهَؤُلَاءِ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ إِلَى نـي
هَوَل ﴾ ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا فِي يَدَيْهِ مِنْ
الْكِتَابِ ، وَهُدًى وَبُحْرَانًا عَظِيمًا ﴾

٦- وكان من أعراس القصة بيان أن الله يبصرُ سِيَاءَهُ فِي سِيَاءَةِ
وِيهْلِكَ الْمَكْدِينِ ، وودع تشبهُاً لمحمد ، وتأثيرٌ في نفوس من يدعوهم
إلى الإيمان . « وَكَلَّا نَقْصُرُ عَنْكَ مِنْ آيَاتِ الرُّسُلِ مَا نَشِئُ بِهِ قُوَاذِكُ

وحده في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » وتعد هذا العرص
 كانت ترد قصص الأسماء مجسمة ، محتومة بمصارع من كذبهم
 وينكرر هذا عرص القصص كما جاء في سورة « العنكبوت »
 ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فبنت فيهم ألف سنة - إلا حمسينَ
 عاماً - فخذهم الطوفان وهم ضالون ، ونحيبنا وأصحاب السفينة ،
 وحملها آية للعالمين

﴿ إبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ، ذلكم خير
 لكم إن كنتم تعلمون . ﴾ إلى أن يقول ﴿ وكان جواب
 قومه إلا أن قالوا : اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن
 في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون ﴾ إلح

﴿ ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم
 بها من أحدٍ من العالمين ﴾ إلى أن يقول ﴿ إن منزلون على
 أهل هذه القرية رحمة من ربهم فكانوا يشقون ، ولقد تركنا
 منهم آيةً سهلاً لقومٍ يعقلون ﴾

﴿ وإلى مدثر أحاهم شعبياً فقد : يا قوم اعبدوا الله وأرجوا
 اليوم الآخر ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين فكذبوه فخذهم
 الرجمة ، فاصبحوا في دارهم حامين ﴾

﴿ وعاداً وثمود - وقد ننس لكم من مساكم - وريث لهم
 اشيطون أعماهم ، فصدتهم عن السبل وكانوا مستهزئين ﴾

﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ، فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾
 ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَذَلْنَاهُ الصَّيْحَةَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَنَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانُ اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾
 وتلك هي النهاية الواحدة للمكذبين .

٧ - وكان من أعراض القصة تصديق لتشير والتحذير ، وعرض عمودح واقع من هذه التصديق ، كالذي جاء في سورة « الحجر » .
 ﴿ تَبَىٰ عِبَادِي أَيُّ نَا الْعَصُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَا عِدَائِي هُوَ الْعِدَابُ الْأَلِيمُ . ﴾

فتصديقاً هذ وذلك جاءت القصص على النحو التالي .
 ﴿ وَتَنْهَىٰ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَقَالُوا سَلَامًا قَانَ إِيَّاكُمْ وَجِلُّوا قَبُولًا لَا تُؤْخَذُ إِيَّاكُمْ شُرَكَاءُ عَلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ . إبح

وفي هذه القصة نبدو « لرحمة »

ثم ﴿ فَمِمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَانَ إِيَّاكُمْ قَوْمٌ مُّسَكَّرُونَ قَالُوا : بَلْ جِئْنَاكَ بَعْدَ مَا كَانُوا فِيهِ يَمُرُونَ ، وَاتَّبِعْنَاكَ لَدُنْكَ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فَأَشْرَ بِأَهْنُكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ ، وَتَشْعُرُ دَارَهُمْ ، وَلَا لَتَيْتُمْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ، وَاقْصُرُوا حَيْثُ تَوَمَّرُونَ وَقَصَصْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ

الأمر أن دار هؤلاء مقطوعٌ مُضحٍ ﴿١٠﴾

وفي هذه القصة تبدو « الرحمة » في جانب لوط ، ويبدو
« العذاب الأليم » في جانب قومه المهلكين

ثم ﴿١١﴾ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ، وانشأهم
آبائنا فكانوا عنها مفرسين ، وكانوا يتخفون من الحار بيوتهم ،
فأخذتهم الصيحة مُضْحٍ ، فاعنى عنهم ، كانوا يكسبون ﴿١٢﴾

وفي هذه القصة يبدو « العذاب الأليم » للمكذبين
وهكذا يصدق لأبياء ، ويبدو صدقه في هذا القصص الواقع ،
هذا الترتيب

٨- وكان من أعراس القصة بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفائه ،
كقصص سليمان وداود وأيوب وإبراهيم ومريم وعيسى وكريا
ويونس وموسى ، فكانت ترد حقائق من قصص هؤلاء الأنبياء
تكرر فيها النعمة في مواقف شتى ، ويكون إبرازها هو العرص الأول ،
وما سواه يأتي في هذا الموضع عرضاً

٩- وكان من أعراس القصة ، تشبه أبناء آدم بن عواية الشيطان ،
وإبرار العداوة الحادثة بينه وسهم مد أسهم آدم ، وإبرار هذه
العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى ، وأدعى إلى الحذر الشديد
من كل ماحسة في النفس تدعو إلى الشر ، وإسدها إلى هذا العدو
الذي لا يريد بداس الحير

ولما كان هذا موضوعاً جالداً ، فقد تكررت قصة آدم في
مواضع شتى

١٠- وكان للقصة أعراس أخرى متفرقة منها .

باب قدرة الله على الحوار كقصة خلق آدم وقصة موند
عسى وقصة إبراهيم والظير الذي آت إليه بعد أن جعل على كل
جبل منه جزءاً وقصة «الذي مرَّ على قرية وهي حاوية على عروشها»
وقد أحياء الله بعد موته مئة عام .

وبين عاقبة الطيبة والصلاح ، وعاقبة الشر والإفساد كقصة
ابن آدم وقصة صاحب الخبز وقصص بني إسرائيل بعد
عصيانهم وقصة سد مأرب وقصة أصحاب الأحود

وبين الفارق بين الحكمة الإنسانية القريية العاجلة ، والحكمة
الكوية البعيدة الآجلة كقصة موسى مع «عد من عداد آتبه
رحمة من عبدا وعلماء من لدا علماء» وسعرها بالتفصيل في
مناسة أخرى

إلى آخر هذه الأعراض الوعظية ، التي كانت تساق ها القصص
فني عمرها

آثار خضوع القصة للعرض الديني

حصعت القصة في القرآن للعرض الديني - كما أسلفنا - فترك
هذا الخصوع آثاراً وصحة في طريقة عرضها ، بل في مادتها وبحر
عرض فيما يلي ، أوضح هذه الآثار :

أ- لقد كان أثر هذا الخصوع أن تزد القصة الواحدة
- في معظم الحالات - مكررة في مواضع شتى ولكن هذا لتكرر
لا يتناول القصة كلها - عالياً - إنما هو تكرار لبعض حلقاتها ،
ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها ، أم جسم القصة كله ،

فلا يكرر إلا نادراً وبمساسات حاصة في السياق ، كما صرنا له
مثلاً عند الكلام على أعراض القصة

وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ملاحظاً السياق الذي
وردت فيه يحددها مناسبة لهذا السياق تماماً ، في احتيار الحلقة التي
تعرضها أو تعرض هناك ، وفي طريقة عرضها كذلك . ويجب
أن يذكر دائماً أن القرآن كتاب دعوة دينة ، وأن التماسق بين
حلقة القصة التي تعرض والسياق الذي تعرض فيه هو العرص المقدم
وهذا يتوافر دائماً ، ولا يحمل بالسمة الفنية إطلاقاً

على أن هناك ما يشبه أن يكون بعداً مقررًا في عرض الحلقات
لمكررة من القصة الواحدة - يتضح حين تقرأ بحسب ترتيب برونها -
معظم القصص يبدأ بإشارة مقتصة ، ثم يطول هذه الإشارات
شيئاً فشيئاً ، ثم تعرض حلقات كثيرة تكوّن في مجموعها جسم
القصة - وقد تستمر الإشارات المقتصة فيما بين عرض هذه الحلقات
الكبيرة عند المساسات - حتى إذا استوفت القصة حلقاتها ، عادت
هذه الإشارات هي كل ما يعرض منها .

ونصرت مثلاً على هذا الطام - قصة موسى - إذ إنها أشد
الفصوص في القرآن تكرراً فهي من هذه الناحية تعطي فكرة كاملة
عن هذا التكرار .

وردت هذه القصة في حوالي الثلاثين موضعاً . يذكر أهمها
وهمل بعض المواضع التي ورد فيها الاسم مجرداً فكيف جاءت
في هذه المواضع ؟ ١- ٣- تيسر في المراحل التالية

١ - في سورة الأعلى (السورة الثامنة في النزول) إشارة قصيرة .
« إن هذ لي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى » . إشارة

قريبة منها في النجم (السورة ٢٣) .

٢- وفي النجم (السورة العاشرة) إشارة إلى فرعون بنون ذكر موسى مع عاد وثمود : « وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طَعَنُوا فِي الْمِلَادِ ، فَآكَثَرُوا فِيهِ الْفَسَادَ ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » وإشارة قريبة منها في سورة البروج (السورة ٢٧)

٣- وفي سورة الأعراف (٣٩) بدأ التفصيل الأول للقصة في معرض قصص مشترك مع نوح وهود ولوط وشعيب ، اتحدت فيه صيغة الدعوة وصيغة التكذيب ، والعقاب الذي أحدهم المكذبين وقد بدأت القصة هنا برسالة موسى وهارون إلى فرعون وملكه « ثم بعثنا من بعدهم موسى نبينا وسلطانا من قبلنا إلى فرعون ومنته .. » ثم ذكر معجزة العصا واليد البيضاء ، وجمع السحرة والمباراة بينهم وبين موسى ، وعلمه عليهم ، وإيمانهم به وتعذيب فرعون لسي إسرائيل بعد ذلك وتسييط الحراد والقمل والضفادع والدم على فرعون وقومه ، واستعانتهم بموسى ، وكهف الأذى عنهم ، وعودتهم لتعذيب بني إسرائيل ثم خروج هؤلاء من مصر وبعد الحروج طلبهم من موسى أن يتخذ لهم إلهاً كما للمصريين آلهة ، وتذكيره هم برهم ثم ميعاد موسى مع ربه بعد ثلاثين ليلة ريدت إلى أربعين ، وطله رؤية ربه ، وذلك الحبل وانصعاق موسى وإفاقته وعودته إلى قومه حيث وحدهم قد اتحدوا لهم عملاً إلهياً ، وعصاه على أجليه . ثم اختيار سبعين رجلاً منهم لميفات ربه ، وعشيتهم بالحبل لما طهروا رؤية الله حجرة وإفاقتهم ، ثم دعاؤهم بطلب الرحمة ، فأورد عليهم بأن الرحمة قد كتبت للمؤمنين الذين يتبعون النبي الأمي . .

٤- ثم نرد إشارات لرسالة والتكذيب وإهلاك المكذبين ،

في قصص مشترك إحداهما في الفرقان (٤٢) والثانية في مريم (٤٤)
 ٥- وفي سورة طه (٤٥) يبدأ تفصيل آخر يبدأ من حلقة
 نسق من حلقة الرسالة التي ذكرت في «الأعراف» تلك هي رؤية
 موسى لنار من جانب الطور

﴿وهل أتاك حديث موسى ، إذ رأى نارا فقال لأهله
 مكنوا إني آنست نارا نعتي آتيكم بها نقير أو أحد على نار
 هدي﴾ فيما أتاه مُودي يا موسى ، إني أن رثك وحلج عليك ،
 بك بالوادي المقدس طوى ، وأن اخترتك فاستمع لما يُوحى . ﴿
 وبعد أن يُكف السحاب إلى فرعون ، يحاور ربه ليرسل معه
 هارون ، يشد أزره ويكون وزيراً له ، فيذكره الله نعمته عليه في
 مولده ، ورده إلى أمه - في إشارة سريعة - ثم تسير القصة كما
 سارت في الأعراف (مع حذف آيات الحراد والقمل والضفادع
 والدم ، وعهد فرعون لسي إسرائيل وبكته ومع ريادة حلقة وهي
 أن السامري هو الذي صنع العجل ، وتفصيل قصة صحه . ويذكر
 لميعاد بسرعة ويعمل الميقات)

٦- وفي سورة الشعراء (٤٧) تبدأ القصة من حلقة الرسالة ،
 وتسير في الخطوات التي سارت بها إلى حلقة العجرواح ، ولكنها
 تريد هنا أمرين : الأول ذكر موسى أنه قتل رجلاً من المصريين
 فهو يخشى أن يؤخذه ، وتذكير فرعون به بأنه قد ربي فيهم وليداً
 وعمل هذه الصفة ومضى والذي ذكر املاق النحر كالطود العظيم
 وهذا وذلك مع تنويع في الحوار بين فرعون وموسى ، وإثبات
 إله بصمته وسوع في الحوار مع السحرة كذلك

٧- ثم تذكر في سورة النمل (٤٨) حلقة التكذيب والعقاب
مجملة مع قصص مشترك

٨- وفي سورة القصص (٤٩) تبدأ القصة من أول حلقة فيها
من مولد موسى في إبان اضطهاد قومه فوصعه في التابوت وإلقائه
في البحر والتقاط آل فرعون له ، ونحرهم المراضع عليه وقول
أمه لأخته أن تقص أثره . ومعرفته بأمره ، وإشارتها على آل فرعون
عرصع للطفل هي أمه ثم كرهه ثم قتله للمصري ، ومحاولته
قتل آخر ، وتهديده بإياه بفشاء من القيلة الأولى ويصح رجل
له يهرب وقد جاءه من أقصى المدينة يسعى وخروجه إلى أرض
مدين والتقاءه ستي شعيب ، وسقيه لهما ، وإعجاب إحداهما به ،
وحصنها أيها على استخداه وعمله مع شعيب ورواحته ناسه
حسب شرطه ثم انقصاه عنه وذهبه ناهيه ثم رؤيته السر (التي
بدأ من القصة في سورة طه) ثم تسير القصة كما سارت هناك ،
برياده واحدة هي نهكم فرعون في قوله : « فأوقدني يا همام على
لطين فاجعل لي صرحاً ، علي أطلع إلى إله موسى ! » وتنتهي
عند حلقة عرق فرعون ، بعد خروج موسى .

٩- ثم في سورة الإسراء (٥٠) إشارة سريعة إلى إعراف فرعون
وانمكن لبني إسرائيل .

١٠- وفي سورة يوسف (٥١) عرص قصير - في وسط قصص
مشترك - لبيان عاقبة التكذيب وقد ذكرت فيه حلقة السحر
باحتمار ، ونحاوز بني إسرائيل البحر ، وتباع فرعون لهم وعرقه
ونكر رد في حلقة العرق أن يقول : « حتى إذا أدركه العرق قل
آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ! فكان الرد عليه

« لَأَن ؟ وقد عصيت قُلُوبُكَ وَكُنتَ مِنَ الْمُسْخَرِينَ ؟ «لِيَوْمِ نُنَجِّيكَ
بَدَنَكَ لَتَكُونَ لِمَنِ خَعَلْتَ آيَةً « . وهي زيادة لا ترد إلا في هذا
الموضع .

١١- ثم في سورة هود (٥٢) إشارة سريعة إلى الإهلاك بعد
التكذيب في صدد قصص مشترك .

١٢- وفي سورة غافر - أو المؤمن - (٦٠) تعرض حلقة
الحوار بين فرعون وموسى ولكن يزيد في هذا الحوار قول فرعون
« دروني أقتل موسى وليدع ربه « . وظهر رجل مؤمن من آل فرعون
يكنى إيمانه ، يشير عليهم ألا يقتلوه ، فقد يكون على صراط مستقيم
وهي زيادة لا ترد في غير هذا الموضع

١٣- وفي سورة فُصِّلَتْ (٦١) إشارة سريعة وكذلك في
سورة الزحرف (٦٣) إشارتان سريعتان ولكن يريد هنا أن فرعون
يقول .

﴿ آتَيْسَ لِي مُلْكٌ بِصَرِّ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ؟ أَوَلَا
تُنْصَرُونَ ؟ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ؟ ﴾
وهي زيادة لا ترد إلا في هذه السورة .

١٤- وفي سورة الداريات (٦٧) إشارة حاطفة إلى إرسال
موسى إلى فرعون سلطان مبر ، وتكديسه وإهلاكه .

١٥- وفي الكهف (٦٩) تعرض حلقة مقابلة موسى لعدو من
عبد الله أوتي من لده رحمة وعلم علماً وقد طلب إليه موسى
أن يصحبه ليستفيد من علمه ، فأخبره أنه لن يصبر معه بعلمه ،
فوعده موسى أن يصبر ، ثم لم يستطع معه صبراً ، لأن لرحل أحد

في تصرفات لا يدرك كمها موسى ، ولا يعرف ها معرى فشرح
به الرجل انعام سرها وافترقا وهي حلقة تذكر مرة واحدة

١٦- ثم في سورتي إبراهيم والأنبياء (٧٢ ، ٧٣) بشرتنا
سرعتان لهم في ثيبيهم وصف الثروة بأنها «مرفأ» على نحو
ما سبق في هذا الفصل

١٧- ويأتي تفصيل آخر في سورة البقرة (٨٧) في معرض
تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم ، ومقابلتهم هذه النعم بالمعصية
والخروج - وفي هذا المعرض يكرر بعض الحلق التي سقت في
قصة موسى - ومن ذلك إعطاؤهم المن والسلوى ولكن يريد هـ
تطويعهم على هذه النعم ، وطلبهم أطعمه موعنة بدل المن والسلوى
ثم حلقة البقرة التي أمرهم الله بدسجها ، فجعوا سلكأون ، ويسألون
عن صفاتها ويتمحلون فيها ، حتى استعدوا لعدير ، «فدسجوها
وم كدوا يصعون» وهي - كما ترى - حلقة جديدة لم تذكر
من قبل أصلاً .

١٨- وفي سورة النساء (٩٢) إشارة إلى طلبهم أن يروا لله حجرة
للتدليل على عنتهم ومحلهم

١٩- وفي سورة المائدة (١١٢) تذكر حلقة وقوفهم على
أبواب الأرض المقدسة لا يدخلون :

﴿ فَأَوْا يَا موسى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا حَارِينَ ، وَبَنَّا لَرَّ نَدْخُلُهَا
حَتَّى يَحْرُحُوا مِنْهَا ، فَإِنْ يَحْرُحُوا مِنْهَا فَإِنَّ دَاجِيُونَ ﴾ ١
قوله ﴿ قَالُوا يَا موسى إِنَّ فِي نَدْخُلُهَا نَدَامَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ
أَنْتَ وَزُكَّتْ هَاتِلَا إِنَّ هَ هَا دَعِدُونَ قَدْ رَبُّ إِيَّيْ لَا أَمَلَتْ

إلّا نفسي وأخي فافرقنا وبين القوم الفاسقين قال فإنها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، فلا تأمن على القوم الفاسقين ﴿٤﴾ .
 وذكرهم هنالك في الله فلا يأتي بعد ذلك ذكر موسى ولا يذكر عن بني إسرائيل إلا تفرقهم وعداؤهم للمسيح والمسلمين
 هذه القصة أشد القصص تكراراً في القرآن وقد رأينا من هذا الاستعراض نوع التكرار ، وأنه - فيما عدا ستة مواضع - إشارات وعطية إلى القصة اقتضاها السياق ، أما الحقائق الأساسية فلم تكرر تفرساً ، وإذا كررت حلقة منها جاءت شيء حديد في تكرارها وهذه القصة نموذج للقصص الأخرى ، وعلى صحتها ندرك أن ليس في القصص القرآني ذلك التكرار المطلق ، الذي نحمل بعض من يقرأون القرآن ، فلا تدقيق ولا إمعان

• • •

«ب» وكان من آثار حصوع القصة في القرآن للعرض الديني - عبر التكرار - أن تعرض بالقدرة الذي يكفي لأداء هذا العرض ، ومن الحقيقة التي تتفق معه ، فقرة تعرض القصة من أولها ، ومرة من وسطها ، ومرة من آخرها ، وتارة تعرض كاملة ، وتارة يكتب بعض حقائقها ، وتارة تتوسط بين هذا وذاك ، حسيماً تكمن العبرة في هذا الجزء أو ذاك ذلك أن أهداف التاريخي لم يكن من بين أهداف القرآن الأساسية كأهداف القصصية سواء ، فسارت القصة وهدفها الأول هو الهدف الديني ، على النحو التالي .

١ - بحث قصصاً تعرض مد الحلقة الأولى - حلقة ميلاد نبيها ، لأن في مولده عظة بارزة ، وذلك مثل :

قصة آدم (مد حقه) وفيها مطهر لقدرة الله ، وكمال علمه ،
ونعمه على آدم ونبيه وفي حادثة بئس بعده مما فيها من أعرص
دينية أشربا من قبل إليها .

ومثل مولد عيسى ابن مريم وهو يعرض بتفصيل كامل ،
ذلك أن مولده هو الآية الكبرى في حياته ؛ وحيث هذا المولد قام
الحدس كله ؛ وعنه تعرضت كل قصص المسيحية قبل الإسلام وبعده

وقصة مريم فقد ندرت لله وهي في بطن أمها ، وتولى كفالتها
زكريا ؛ ثم رقت مد مولدها ررقاً حسناً من عند الله ، فكانت

﴿كَلَّمَ ذَاكِرَ عَلَيْهَا زَكْرِيَا ابْخِرَابَ وَحَدَّ عَمْدَهُ رَرَقًا قَالَ

يَا مَرْيَمُ أَنِّي لَكِ هَذَا ؟ قَدِتْ . هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾

ثم تطوى حلقاتها حتى تأتي حلقة ميلاد عيسى ، وهي الحلقة
الهامة الثانية في حياته

وقصة مرسى ، لأن مولده في عهد اضطهاد بني إسرائيل ،
وتدبير الدكور من طفلهم ، ونجته هو من ذلك مع وجوده بين
آل فرعون أنفسهم قبعة خاصة في بيدار رعاية الله له ، وإعداده
إعداداً خاصاً للمهمة التي سيهض بها ثم تذكر من حته حلقاتها
دات المعرى .

واسماعيل وإسحاق تعرض حلقة مولدهما ، لأن في هذا المولد
عرة فأولهما ررقه إبراهيم على الكبر ، وأسكنه على الرعم منه -
بحوار البيت المحرم ، والذي نُشِر به وامرأته عجزر وقد بلغ من
الكبر عتياً

وكذلك يذكر موند يحيى لكرهه ؛ بعد أن وهن منه الأعظم واشتعل الرأس شيباً .

٢- ونجد قصصاً أخرى تعرض من حقة متأخرة نسباً .
فيوسف تبدأ قصته صبيّاً فن هذه الحلقة يرى الرؤيا التي تسير حياته كلها ، وتؤثر في مستقبله جمعاً ، إذ يرى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين ، فبدرك أبوه معراها ويقره إليه ، فيعر إخوته منه . ثم تسير القصة في طريقها المرسوم بعد هذه الرؤيا

وإبراهيم تبدأ قصته فتى يطر في السماء يرى نجماً ، فيظنه ابنه ، فإذا أفل قال لا أحب الآفلين ثم يطر مرة أخرى فيرى القمر ، فيظنه ربه ، ولكنه يأفل كذلك ، فيتركه وعصي ثم يطر إلى الشمس فيعجبه كرهها ، ويطلبها - ولا شك - إلهاً ! ولكنها تخلف ظنه هي الأخرى ، فيبيء إلى ربه الذي لا يرى ويدعو ناه وقومه إلى هذا الإله الواحد فلا يحيونه ، فيحطم أصنامهم في عملة منهم حيث يقولون . « سمعنا في ندكرهم يقان له إبراهيم » ويهمون بإحراقه ، فيجبه الله منهم . « قلنا ، يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم »

وتبدأ قصة داود وهو في مقتبل الشباب تبدأ بحلقة صراعه لحولوت - وهو فارس صحم مشهور - فيعلب عليه داود ، لأن الله ينتصره . ومن هنا تبدأ قصته .

ولعل سليمان كان في مثل سن أبيه حينما جلس معه يحكم في قصة الحرث . « إذ نَفَسَتْ فيه عم القوم وكنا لحكمهم شاهدين » .

ولقد كان هذا الحكم المكر دلالة على ما أعدّه الله لسليمان من
تدبير الملك الأكبر

٣- ثم نجد قصصاً لا تعرض إلا في حلقة متأخرة جداً
فوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وكثيرون غيرهم ، لا
تعرض قصصهم إلا عند حلقة الرسالة ، وهي الحققة الوحيدة التي
تعرض من حياتهم ، لأنها أهم حلقة منها ، والعبرة كاملة فيها
هذا كله من ناحية الاسداء ، وأما من ناحية الإطراب والإيجاز
فهما كذلك حصصاً في حلقات القصة من عطة وأهمية نصرت
لذلك الأمثال فيما يلي

١- قصه كقصّة موسى تذكر بجميع حوادثها وتفصيلاتها ،
من مولده - بل قبل مولده - إلى وقوعه بقومه آدم الأرض المقدسة .
حيث كتب عليهم إليه أربعين سنة ، حراء وفقاً لأن في كل
حلقة من حلقات القصة عرضاً ديبياً يبرز ، وله صلة بأهداف القرآن
العبية

وكذلك قصة عيسى - مع شيء من الاختصار في حلقاتها
الوسطى - يذكر مولده بتفصيل كامل وتذكر معجزاته بتوفية
وتذكر قصته مع الحواريين حين طسوا لمائدة فأرست إليهم وتذكر
حققة تكذيبه ومحاولة صلبه ورميه ، وتغرق قومه من بعده . ويزاد
عندها تصوير موقفه يوم القيامة بسأله الله إن كان قد قن لقومه
التحذيري وأمي إلهين من دون الله ، فينتراً من ذلك إليه ، ويدكر
أنه دعاهم لله وحده ، وأنه يدع أمرهم لله إن شأ برحمتهم وإن
يشأ بعدهم

ومند أن تبدأ قصة يوسف نسير مفصلة حتى تنهي لما يقع

له مع إخوته ، وما يحدث له في مصر بعد شرائه وتربيته ، ويراودة امرأة العزيز له وسجنه ، وتغييره رؤس حادمي الملك ، ثم تغييره رؤيا الملك وحروجه ، وولائه « على خزن الأرض » (وزارتي المالية والتموين) ! ومجيء إخوته ودعوتهم ، ومجيء أخيه وعودة إخوته لأسهم بدونه ، وكمال القصة بتقديم أبيه وأهله كلها تفصل تفصيلاً دقيقاً ، لأن التفصيل مقصود ، أولاً ، لإثبات الوحي والرسالة كما أسلفنا ، وثانياً ، لأن هذه التفصيلات قيمها الدببة في القصة

وقصة إبراهيم لا تعرض من أولها ، ولكن تعرض منها حقائق شتى . حلقة إيمانه التي أسلفنا ، ومحاورته لأبيه وقومه ، وحطيم الأصنام ، واعتزاله أمه وقومه ، وهبة إسماعيل وإسحاق له ، ورؤياه أنه يدبح به ، واقتداؤه بسوء الكعبة والتأديب في أساس للحج وطلبه من ربه برهاناً على إحياء الموتى ، لا ليؤس فقد آمن ، ولكن ليطمئن قلبه ، حيث أمره الله أن يأخذ أربعة من الصبر ، فيصمهم به ، ثم يجعل على كل حمل منهم حراً ، ثم يدعوهم فيأتين إليه سعيّاً .. إلخ

ومن قصة سيمون تعرض كذلك حلقات مطولة حكمه في الحث ومملكه وفتنه بلحجن الحيد ، واستعداده الله من هذه الفتنة وتسخير الشياطين والرياح له ثم فتنة الأحرى التي لا يذكر القرآن سبها - وتذكر التوراة بها المرأة - وقصته مع السحرة ومع هدهد ومع بنقيس رموه وهو مكين على عصاه واشياطين لا تعلم . وما في ذلك كله من معاري مقصودة

٢ - وهالك قصص متوسطة التفصيل .

فقصة نوح تذكر منها تفصيلات رسالته ودعوته لقومه واستكثارهم

عنها وحلقة صبح السمينه وحلقة الطوفان ، وعرق ابنه ، ودعائه
 الله أن يحييه ، وعدم استجابته له ، لأنه ليس من أهله ، ولو كان
 ابنه ، لأنه عملٌ غير صالح !
 وقصة آدم تفصل تفصيلاً في شأنه ، وحطيته ، وهوطه ،
 وثوبته ، واستجابة الله له .

وقصة مريم يطب فيها عند مولدها ، وعند مولد عيسى
 وقصة داود تدور شيئاً من التفصيل ، لا سح تفصيل قصة
 سليمان ، ولكنه يتناول حلقات كثيرة منها .

٣- وهناك قصص قصيرة

فقصص هود وصالح ولوط وشعيب - مع تكرارها - قصيرة
 لأنها تعرض عند حلقة الرسالة وحدها ، فتتضمن الرسالة والحوار
 مع قومهم ، وتكذب هؤلاء القوم ، ثم إهلاكهم جميعاً
 وقصة إسماعيل تذكر عند مولده ، وعند اعتدائه من الذبح ،
 وعند اشتراكه في باء الكعبة مع أبيه ، في اختصار سبي ، في
 هذه الحلقات جميعاً

وقصة يعقوب تذكر في سياق قصة يوسف ، وتذكر مرة أخرى

﴿ إِذْ حَصَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ، إِذْ قَالَ نَسِي مَا تَعْبُونَ مِنْ
 عَدِي ؟ قَالُوا : نَعُدُّ إِلَهَكَ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾

وقد أوردت هذه الحلقة هه لأهميتها في بيان التوحيد الذي
 أوصى به يعقوب .

٤- وهناك قصص منتهية في القصر .

فقصة زكريا تذكر عند مولد يحيى ، وعند كفالته لمريم

وقصة أيوب تذكر عند مس الصبر له ، ثم استعاضته بالله وشفاؤه
ورد أهله إليه . وقصة يوسف تذكر عند اسلاع اخوته له ثم سده
بالعراء ، ورسالته لقومه وإيمانهم به .

٥ - وقصص شار إليها ولا تذكر شيء عنها - إلا وصفاً حاطفاً
لأصحابها . كقصص إدريس وإيسع وذي الكفل ، وطائفة أخرى
لا تذكر إلا أسماءهم في صدد استعراض سجل الأنبياء .

٦ - فأما القصص الأخرى المتفرقة كقصص أصحاب الأحدود
وأهل الكهف وبنو آدم وصاحب الخطين وأصحاب الحة
ومسد مأرب والذي مرَّ على قرية وهي حاوية على عروشها
وهي القصص الوعظية المحنة . فتعرض بالقدر الذي سيع العظة ،
وقد استعرضنا بعضها سلفاً . وستعرض البعض الآخر لاحقاً
فيكتفي هنا بهذه البيان عنها . ما يريد أن يبين أن القصة القرآنية
تعرض بالقدر الذي يتفق مع العرض الديني منها . وقد بلغنا من
ذلك ما أردنا .

* * *

١- وكان من أثر حصوع القصة للعرض الديني أن تخرج
التوجيهات الدينية سياق القصة نفسها وبعبارة وفي شأها كذلك
فأما ما يذكر من التوجيهات قبلها فقد ذكرنا منه مثالين فيما
مضى أولاً . التنبه إلى دلالة القصص على الوحي بها ، كما في
قصة يوسف وقصة آدم وثانياً . مجيء القصص مصدقة للإنباء
مثل « بنى عادي أبي أر العمور الرحيم ، وأن عادي هو العباد
الأنيم » ثم سرد القصص التي تدل على الرحمة والتي تدل على العذاب
وأما ما يذكر منه بعدها ، فقد ذكرنا منه كذلك مثالين فيما

مضى أولاً التنبؤ إلى دلالة القصص على الوحي بها ، كما في
 عقاب قصة موسى في سورة القصص ، وما في أعقاب قصة نوح
 في سورة هود وثانياً التنبؤ إلى أن عقاب الله عادل ، وأنه لا
 يأخذ لقوم إلا بعد الإيدار ، كالذي ورد في سورة العنكبوت عقب
 قصص الأنبياء مجتمعة :

﴿ فَكَأَلَّا كُذِّبًا لِّدَعْوِهِمْ مِنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ، وَمِنْهُمْ
 مَنْ حَدَّثَهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ
 أَعْرَفْنَا ، وَمَا كُنَّا لِنُظْلِمَهُمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

والذي يتبع قصص القرآن يجد عقب كل قصة تعقيباً دساً
 يناسب العبرة فيها
 وأما ما يذكر من التوجيهات في ثاياتها ، فنصرب منه الأمثلة هـ

١ - .. أن كالأدي مر على قرنة وهي حاوية على عروشها ،
 قال أني يحيني هذه لله بعد موتها ؟ فأما الله ميتة عام ، ثم يعنه ،
 قال كم لست ؟ قال لست يوماً أو بعض يوم قال : بل لست
 مئة عام ، فاطر إلى طعامك وشرابك م يشنه ، وانظر إلى حمارة
 - وسخعت آه داس - وانظر إلى العظام كيف نشرها ثم تكسوها
 بحماً هذا تنبؤ له قال أعظم أن الله على كل شيء قدير ﴿

فيصع في سياق القصة ﴿ ولحمت آية لداس ﴾ وفي ٣٠٣

﴿ قال أعظم أن الله على كل شيء قدير ﴾

٢- وفي قصة سليمان مع سقيس نقول هههه .

﴿إِنِّي وَحَدَّثْتُ امْرَأَةً مِنْكُم وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهِيَ
عَرْشُ عَظِيمٍ وَحَدَّثْتُهَا وَقَوْمُهَا يَسْتَحْدُونَ لِي شَمْسٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ ،
وَرَبِّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَهْمُهُمْ فَصَدَّوْهُمْ عَنْ سَبِيلِهِمْ لَا يَهْتَدُونَ
إِلَّا سُبْحُوا لِلَّهِ الَّذِي تُحَرِّجُ الْحَبَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَعْلَمُ
مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾
كل هذا نقوله هههه في ثانيا القصة ، ليهتدي الآدميون هههه
فيما يقول !

٣- وفي قصة يوسف مع حادمي الملك يفسر هما الرؤيا
ثم يقول

﴿دَلِكُمَا مِنْ عِلْمِنِي رَبِّي إِنِّي بَرَكْتُ مِلَّةَ نُوحٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ،
وَهُمْ بِالْآجِرَةِ هُمْ كَاذِبُونَ ، وَاسْعَتْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لِي أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
عَلَيْكَ وَعَلَى النَّاسِ ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

وهكذا لا يسر سياق القصة إلا وفي ثلث تلك التوجيهات ،
زيادة على المعرى الذي تؤدي له محادثتي دون توجيهاتها
والقارئ لقصص القرآن يجد هذه التوجيهات مشورة في ثايلها
على هذا النحو أو على نحو سواه ، وبكده يبعدها بكثرة ووعده ،
تدبر على العرض الأساسي من سياق القصة ، وهو العرض لديي
أولاً وقبل جميع الأعراض .

الدين والفن في القصة

قلنا إن حصوع القصة للعرض الأدبي ، لم يجمع بروز الحصاص في القصة في عرصها ، ولأن يقول إنه كان من أثر هذا الحصوع بروز حصاص فية بعيد تحسب في الرصيد الفني للقصة في عالم القول الصليق ، وتصديق ما قناه في أول هذا الفصل من أن القرآن « يحمل الحمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني ، فيحاطب حاسة الوجدان الأدبية ، بعة الحمال الفنية »

ونحن سنعرض فيما يلي هذه الحصاص الفنية التي سمها « مظهر التسيق الفني في القصة »

* * *

« أ » كان من أعراض القصة في القرآن إثبات وحدة الإله ، ووحدة الدين ، ووحدة الرسل ، ووحدة طريق الدعوة ، ووحدة المصير الذي يلقاه المكذبون على نحو ما بين في أول هذا الفصل

فمن شأن حصوع القصة هذه الأعراض أن يعرض شرط الأنبياء والرسل اندعش إلى الإيمان بدين واحد ، وإسبانية المكذبين هذا الدين الواحد ، مرات متعددة تتعدد هذه الأعراض ، وأن يشي هذا ظاهرة التكرار في بعض المواضع ولكن هذا شأن حملاً فنياً من ناحية أخرى ، ذلك أن عرض هذا الشريط يحيل لمتأمل أنه بي واحد ، وأنها إسبانية واحدة ، على تطوار الأيمان والآمال كل بي يمر وهو يقول كلمته الهادية ، فتكده هذه الإسبانية الصالحة . ثم يصي ، ويحيي قاليه فيقول انكمة داه وعصي ، وهكذا

﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه . فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ . إني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيمٍ﴾ هل الملا من قومه : ﴿لَرَأَيْتُكَ فِي صَلَاتٍ مَبِينٍ﴾ قال : يا قوم لَسَ لِي صَلَاةٌ . ولكي رسولٌ من ربِّ العالمين ، أُنْعِمُكُمْ رسالاتِ ربِّي وأنصح بكم ، وأعلم من الله ما لا تعلمون . أو عَجِمَ أن يحاءِكم دُكْرٌ من رُكُمٍ على رَحْلٍ مَكَمٍ لِيُبْدِرَكُمْ ، وَلِتَشْقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ؟ فَكَذَّبُوهُ ، فَتَحْيَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الصُّفُوفِ ، وَأَعْرَفُوا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِيَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا حَمِينَ .

﴿وبلى عادٍ آحدهم هوداً﴾ قال : يا قوم عَدُوا الله ما لَكُمْ من إلهٍ غيرهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ قال الملا الذين كَفَرُوا من قومه : إِنَّا نَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ، وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَادِبِينَ قال : يا قوم لَسَ لِي سَفَاهَةٌ ، ولكي رسولٌ من ربِّ العالمين ، أُنْعِمُكُمْ رسالاتِ ربِّي . وَأَن لَّكُمْ نَصِيحُ أَمِيرٍ . أَوْعَجِمَ أن يحاءِكم دُكْرٌ من رُكُمٍ على رَحْلٍ مَكَمٍ لِيُبْدِرَكُمْ ؟ رَدُّكرو بِدَحْلِكُمْ حَلَاءً من بعد قومِ نوحٍ ، وَرَادَّكُمْ فِي الْخَلْقِ نَسْطَةً ، فَادْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ قَالُوا : أَجِئْنَا بِعَبْدِ اللَّهِ وَاحِدَةٍ ، وَبَدْرٍ مَا كَانِ بَعْدَ آدَمَ ؟ فَأُتِيََا عَا تَعْدُنَ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . هـ . قد وقع عليكم من ربكم رجسٌ وخُسٌّ وَعَصَبٌ . أُنْعِدُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمِيْمَةٍ أَنَّمْ وَأَبْؤُكُمْ مَا تَرَى اللَّهُ سَهَا من سَلْعَدٍ ؟ فَانْظُرُوا إِيَّايَ مَعَكُمْ مِنَ الْمُسْتَطِيرِّينَ فَاتَحْيَاهُ

والذين معه برحمةٍ منا وقطعنا دمر الدين كذبوا ، ياتوا ، وما كانوا
مؤمنين

﴿ وإلى نمرود أحدهم صالحاً ﴾ قال يا قوم اعدوا لله ما لكم
من إله غيره ، قد جاءكم نبيُّه من ربكم : هذه ناقة الله بكم
آية فسروه تأكل في أرض الله ، ولا تمسوه بسوء فأحدكم
عدو أليم ، وادكروا إذ جعلكم خصاء من بعد عاد ، وبآذكم في
الأرض ، تتجبنون من سهوها قصوراً ، وتسبحون لحد بيوتاً فادكروا
آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين . قال الملائكة الذين استكروا
من قوم سد بن استضعفوا - من آمن منهم - اتعجبون أن صالحاً
مرسل من ربه ؟ قالوا إنا نأمر به المؤمنين قال الذين استكروا
إنا بالذي آمنتم به كافرون ففعلوا بناقته ، وعتوا عن أمر ربهم ،
وقدوا يا صالح اننا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذهم
الرحمة فاضتحوا في دارهم حائمين ﴿ لح

وكلمة نكر هذه الاستعراض ، كان هناك مجال لتلمي هذا
الشريط ، الذي يقف مرة عند كل شيء ، ثم نمضي في عرصه
مصدراً حتى يقف محمد أمام كهر فريش وإذا هو يقول
تلك القوة الواحدة ، وإذا هم يردون ذلك الرد المكرور وفي
تأمل الشريط على هذا النحو حمال ففي أكيد

• • •

« ب » وكان من آثار حصوع القصة للعرض الديني أن تعرض
 منها الحقائق التي تقتضيها هذه الأعراس وقد شأ عن هذا ما يشبه
 أن يكون نظاماً عاماً ذلك أن آخر حلقة تعرض - بحسب ترتيب
 السور - تتفق مع أظهر عرض ديني صيغت القصة من أحله ،
 وفي الوقت ذاته يتفق هذا الختام مع الأصول الفنية ، ويبدو كأنه
 ختام في لداته ، لا للعرض الديني من ورائه

وقد لاحظنا من قبل في قصة موسى أن آخر ذكر لها يرد في
 سورة المائدة ، والحقيقة التي تعرض فيها هي حلقة التيه فهؤلاء
 إسرائيل قد أعادق الله عليهم نعمته ، وأملى لهم في رحمته ، ثم ها هم
 أولاء في النهاية لا يحافظون على النعمة ، ولا يدحون الأرض المقدسة ،
 وقد جهد موسى ما جهد لردهم إليها ، فيكون تأديبهم على هذا
 ابطال ، تركهم في التيه لا مرشد لهم ولا معين ، حتى يأتي الأهل
 المعلوم .

ذلك عرض ديني يحث ولكر تُرى كان هناك ختام في
 أحمل من مشهد التيه ، في مهابة ذلك الجهد الجهد ، وبعد ذلك
 التردد الشديد ؟ إن مشهد التيه هو المشهد الفني الأنسب ، لو كانت
 القصة مطلقة من جميع القيود

فستع هذه الظاهرة في قصص أخرى

١ - هذه قصة إبراهيم ترد في حوالي العشرين موضعاً ، ثم
 يكون آخر موضع ترد فيه هو « سورة الحج » (١٠٣) فتعرض
 فيها الحلقة التالية .

﴿ وَذُنُّوْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ۚ
 وَظَهَرَ يَتِّيَ لِلْعَالَمِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ ۚ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ

بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِحَالاً وَعَلَى كُلِّ صَامِرٍ بِأُيُسٍ مِنْ كُلِّ فُحٍّ عَمِيقٍ ﴿

فهما - من الوجهة الأدبية - ربط بين شعائر الحج في الإسلام وشعائره في دين إبراهيم وذلك عرص - كما قلنا - مقصود ، وقد ورد في حتام السورة نفسها آخر ذكر لإبراهيم في قوله « مله أئبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل » . ولكن لسطر من الوجهة الفنية النجدة ، أكره هناك مشهد يحم به قصة إبراهيم ، نبيق من مشهده يؤد في الناس بحج ، وهو نبي البيت ، ومودع طفله إسماعيل هناك قبل ليلاء ٩ . به أئبق حتام هي بلا حداث ، ولو لم يكن الغرض الديني هو الذي اقتضاه

٢ - وهذه قصة عيسى ابن مريم ترد وروداً أساسياً في ثمانية مواضع ، وآخر حلقة منها تعرض في سورة المائدة (١١٢) على النحو التالي :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ : يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَلَيْسَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّجِدُونِي وَأُمِّي إِلَهُنَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ ، فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ، أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّؤُوفَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

فهذا الحتام هو حتام ديني وحاتم في آ ن واحد ، لقصة

كفصة عيسى مولده عجيب ، وعن هذا المولد شأت سهات تأله . وحول هذه النقطة المعقدة ثارت المشكلات فهو هو دا في اللحظة الأخيرة أمام حلقه يعترف بعودته . ويشهد بما قاله لقومه ويخوِّص الأمر بهم إلى الله العزيز الحكيم

الله يقتضي هذا الحتام ، حين تساق القصة مساقها في القرآن

٣- وقصة آدم ، تختم في كل مرة بهبوط ، فإذا ردت فإلى تريد استعصار آدم من دسه وقبوله عند ربه ؛ ثم لا تريد على ذلك شيئاً مما وقع له في الأرض بعدها . كما تريد التوراة مثلاً - ذلك أن الهدف الديني يتم بهبوط آدم من الجنة حراء لانتاعه مشورة عدوه القديم ، ونسيانه لأمر ربه الكريم

أما الله فيحد في هذا الحتام كل ما يبعيه الفدان . الهبوط من الجنة ، وترك القصة مفتوحة بعد هذا التحيل تنع آدم المسكين وروحه في الأرض عرييين لم يعرف أقطارها ، ولم يعود حباتها ، وليس لهم من حره ناعاش فيها إلى آخر ما يتملاه التحيل من مشهد وفروض ، يقضي على حماسة الفي كل إسهاب في القصة بعد هذا الحتام .

٤- وقصة سيمون ترد في ثلاثة مواضع ، وآخر سورة ترد فيها هي سورة الأنبياء (٧٣) وذكر منها الحلقة التالية

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ هُمُ عَنُ الْقَوْمِ وَكَانَ لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ هَهُمْ سِيمُونَ وَكَانَ آتِيَا حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْحَالِ يُسَخِّرُ وَطَيْرُ وَكَانَ فَاعِلِينَ ، وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لَتَحْصِيَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ شَاكِرُونَ ؟

ولسليمان الرِّيح عاصفةً تجري بمره إلى الأرض التي ناركنا فيها ،
وكذلك كُلُّ شيءٍ عِلْمٌ ، ومن الشياطين من يعصون به ويعملون عملاً
دونَ ذلك ، وكنا لهم حافِطين ﴿

وهنا عرص ديبى من أعراس قصة سليمان الكثيرة ولكن
قد يبدو أن الحتام الهي هنا لم يتفق مع الغرض الديبي ، وأن مشهد
سليمان متكناً على عصاه بعد موته قد يكون هو الحتام الهي المطلوب
وهذا المشهد يصلح ولا شك ، ولكن مشهد الحكم والحكمة هنا
له قيمته الفنية أيضاً في حياة سليمان فهو « سليمان الحكيم » كما
يلقب ، وهو « سليمان الملك » وفي هذا الحكم المكر شاهد
بالحكمة الموعودة ، وإرهاص للملك العريس ثم هي طريقة
من طرق العرص ، أن تنتهي قصة لظل تشهد من مشاهد طفولته
أو صباه ، دي علاقة وثيقة بمحور قصته من البدء بالحاتم

٥ - وحتى القصص المشتركة بين عدد من الأنبياء - وأعراسها
الديبية معنومة - قد اتسق آخر عرصها مع الحاتمة الفنية في اختصار .

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ، فَقَدْ كَذَّبَتْ قَوْمُ نوح ، وعدّ وثمود ،
وقوم إبراهيم وقوم نوط ، وأصحاب المدين ، وكذبت موسى ، فأُمْلِيتُ
للكافرين ثم أحدهم ، فكيف كان تكبر ؟ ﴾

ودلت حتام واقعي ، وحاتم ديبى ، وحاتم هي في أن
٦ - أما قصة يوسف فكان فيها توافق في الحتام من نوع خاص
يتفق مع القصة في الانداء فقد بدأت القصة برؤيا يوسف فحاتمت
تتحقق هذه الرؤيا ، وسجود إخوته به وأيوبه وم نخط خطوه وراء

هذا كما وقعت التوراة ، لأن العرص الديني قد تحقق ، وتحقق معه للقصة أجمل نعتام .

• • •

«ح» وكان من مقتضى لأعراس الدينية بقصة أن تتساق مع الوسط الذي تعرض فيه ، فأشأ التساق نوعاً من لتاسق الفني الذي عرصنا له في فصل خاص ، تدول فيه مسائر ألوان التصوير في القرآن

أما مصهره في سياق القصة ، فقد ذكرنا نموذجاً منه آنفاً عند ذكر أعراس القصة ذلك في مثال «مسي» عادي أي أن العصور الرحيم ، وأن عدائي هو العذاب الأليم « ثم التعقيب على هذا بقصص تصدق هذا الإساءة .

فالآن نذكر له مدح أخرى ، يتفق بها العرص الديني ، والتساق الفني تمام الاندلاق .

١ - في سورة الأعراف عرص قصة آدم على النحو التالي

﴿ ولقد خلقناكم ، ثم صوّزكم ، ثم قلنا سمعوا وأطيعوا ﴾
لآدم فسمعوا إلا إبليس لم يكن من الساعدين قال ما معك
لأ تسجد إذ أمرتك ؟ قال أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته
من طين قال فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاحرّح
إك من الصاغرين . قال : أنظرني إلى يوم أعتور قال إلك
من امطرين قال هما أعويني لأقعدن لهم صراطك المستقيم
ثم لأنهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيماهم وعن شمائلهم ،

ولا تخذ أكثرهم شاكرين قال أخرج منها مذقوماً متحوراً
 لمن شئت منهم لأمثال خبثهم منكم خضعين و آدم شكر أنت
 وروحك الحية ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة
 فتكون من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليؤدي لهما ما ووري عليهما
 من سؤيتهما ، وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن
 تكونا منكبين ، أو تكون من الخالدين ، وقاسمهم يبي لكما لمن
 أصبح ، قدلاًهما يعرور ، فمداقا الشجرة نذت لهما سؤيتهما ،
 وطفف بخصيص عليهما من ورق الحية ، وبادهما ربهما ، ألم أنهيكما
 عن تدك الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكم عدو مبين ؟
 فلا ربنا طمعت أنفسا ، وإن لم نغير لنا وترحم للكون من
 الحاسرين قال اضبطوا ، بعصكم لعص عدو ، وكنم في
 الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون ، وفيها تموتون ،
 ومنها تخرجون ﴿

ثم يستمر السياق ، فيدعو بي آدم بعد هذه القصة أن يحدروا
 الشيطان « يا بني آدم لا تقسك الشيطان كما أخرج أبوكم من
 الجنة » وأن يتمتعوا في الحدود المأخوذة ، وألا يعزوا كذلك ما
 فعل الله ، وأن يطيعوا الرسل الذين يأتونهم من عند الله « إن جعل
 الشياطين أولياء لندى لا يؤمنون » ثم يستطرد إلى يوم القيامة
 حيث يستعرض موقف المؤمنين الذين اتبعوا هدى الله وموقف الكافرين
 الذين اتبعوا عوادة الشيطان ، حتى ينتهي الاستعراض إلى دحون

هؤلاء انار ودخلوا أولئك الحنة ، حيث ياديهم « رجال الأعراف »
 على السحر الذي ذكرناه في « فصل التصوير الفني » هناك
 « ادخلوا الحنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحربون » وحيث سادون
 من الملائكة الأعلى « أن تلکم الحنة أورثتموه بما كنتم تعملون »
 فكأنما كانت هذه « عودة المنهارين وأوتة المغريرين » عن
 دار العيم وكأنما استحقوا الإياب وأورثوا الحنة ، لأنهم عصوا
 الشيطان ، بعد أن كان أتباعه سب الحروح
 وفي هذه « الأوتة » تناسق في العرض مع ذلك « الحروح »
 كان مكانه هناك في فصل « التناسق » فهو بلا شك من مستوى
 ذلك الطراز

ومثل هذا التناسق منحوط في القصص ، نكتي منه هذا المثال ،
 ليعرف القارئون على هذه سائر القصص في القرآن

الخصائص الفنية للقصة

ثم نعرض بعد ذلك للخصائص الفنية العامة ، التي نحقق
 العرض الذي بنفصة عن طريق الجمال الفني إذاً هذا الجمال
 يجعل ورودها إلى النفس يسر ، ووقعها في الوجدان أعمق والبحث
 على هذا السحر يتناول أربع طواهر فنية ها حساب معلوم في الدراسة
 الفنية للقصة الحرة في عالم الفنون .

* * *

« ١ » أولى هذه الخصائص الفنية نوع طريقه العرض
 وقد لاحظنا في قصص القرآن أربع طرق مختلفة للانداء
 في عرض القصة ، على النحو التالي .

١- مرة يذكر ملخصاً للقصة يسبقها ، ثم يعرض التفاصيل بعد ذلك من تبدأ إلى سببها . وذلك كطريقة قصة « أهل الكهف » فهي تبدأ هكذا .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالْأَقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ؟ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ، فَقَالُوا : رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ، فَصَرَّفْنَا إِلَى آدَائِهِمْ فِي الْكَهْفِ سَبْعِينَ عَدْدًا . ثُمَّ نَعَثَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيَّ الْجَرْيِينَ أَحْسَنُ لِمَنْ لَمْ نُنَوِّسْ لَهُمْ أَمْثًا ﴾

ذلك ملخص بقصة . ثم تنبع تفاصيل تشاورهم قبل دخولهم الكهف وحالتهم بعد دخولهم ، ونومهم ، ويقطعون ورسولهم واحداً منهم ليشتري لهم طعاماً ، وكشفه في المدينة . وعودته ، وموتهم ، وبقاء المبدأ عليهم ، وختلاف القوم في أمرهم إلخ فكان هذا التلخيص كان مقدمة مشوقة لتفاصيل

٢- مرة تذكر عافية القصة ومعاها . ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أواخرها وتسير بتفصيل خطواتها . وذلك كقصة موسى في سورة القصص وهي تبدأ هكذا .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ تَتْلُو عَلَيْهِمْ مِنْ سُلُوسِ أَمْثَلِ وَمُوسَى وَهَارُونَ بِالْحَقِّ يَرْجُونَ يُؤْمِنُونَ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ وَخَلَقَ أَهْلَهَا شَيْعًا يَسْتَضِيءُ بِطَانَةِ رَبِّهِمْ يُدْخِلُ أَسْمَاءَهُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ . إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَبَرِيدٌ أَنْ يَمُرَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَاعُوا فِي الْأَرْضِ ، وَيَجْعَلَهُمْ أَتَمَّةً وَيَحْبِسَهُمُ الْوَارِثِينَ ، وَتُكْرَمُونَ فِي الْأَرْضِ .

وبري هرعون وهامان وجودهما مهم ما كانوا يحذرون ﴿

ثم يمضي في تفصيلات قصة موسى مولده وشدته ورضاعه
وكره وقتله المصري وحروجه كما فصل من قبل فكان هذه
المقدمة ، التي تكشف الغاية من القصة كانت تمهيداً مشوقاً لمعرفة
الطريقة التي تتحقق بها هذه الغاية المرسومة بصورة

وقرت من هذا النحو قصة يوسف ، فهي تبدأ بالرؤيا بقصتها
يوسف على أنه فسئله أنوه بأن سيكون له شأن عظيم هكذا .

﴿ إذ قال يوسف لأبيه : أنت بي رأيت أحد عشر كوكب ،
والشمس والقمر ، رثتهم لي ساحدين قال : أنتي لا تقصص
رؤياك على إخوتك فبكدوا لك كيلاً ، إن الشيطان للإنسان عدو
مبين وكذلك تخشيت رثت وتعلمت من تأويل الأحاديث ويتم
نعمة عليك وعلى آب يعقوب ، كما أنمها على أولئك من قبل
براهيم وإسحاق إن رثت عليم حكيم ﴾

ثم تسير القصة بعد ذلك ، وكأنه هي تأويل للرؤيا ، ولما توقعه
يعقوب من واثقه . حتى إذا تحققت انتهى القصة . ولم يسر فيها
كما سارت التوراة بعد هذا الحتم المهي الدقيق .

٣ - مرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا ملحق ، ويكون
في مدحاتها الحادثة ما يعني مثل ذلك قصة مريم عبد مود عسى ،
ومدحاتها معروفة ، وسعرصتها بتفصيل في مائة آية وكذلك
قصة سليمان مع الملوك والهدد ونفس وسعرصتها أيضاً

٤ - مرة بحين القصة خشية فيذكر فقط من الألفاظ ما

يسَّه إلى انتهاء العرض ، ثم يدع القصة تتحدث عن نفسها بواسطة
الطائر وذلك كشهد الذي عرضته من قصة إبراهيم وإسماعيل
في فصل التصوير .

« ويد يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » هذه إشارة
إلى . أما ما يلي ذلك فهو لآ إبراهيم وإسماعيل . « رب ثقل مآ
إبتك أنت السميع العليم » إلى نهاية المشهد الطويل وهذا طائر
في كثير من قصص القرآن

• • •

« ب » وثلاثة هذه الخصائص نوع طريفة المفاجأة

١ - مرة يُكْتَمُ سرّ مفاجأة عن الطفل وعن الطيرة ، حتى
يكشف هم معاً في آن واحد مثال ذلك قصة موسى مع العبد الصالح
العالم في سورة الكهف فهي تجري هكذا .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أُفْرِحْ حَتَّى أَتَمَّ مَخْمَعِ الْخَرِيرِ
أَوْ أَمْصِي حَقًّا فَلَمَّا لَمَعَا مَخْمَعٌ بَيْنَهُمَا نَسَا حَوْتَهُمَا فَاِتَّخَذَا سَبِيلَهُ
فِي الْبَحْرِ سَرَبًا فَلَمَّا خَاوَرَا قُلُوبَهُمَا آتَاهَا عَادَاةُ ، لَقَدْ لَبِثَا مِنْ
سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا وَر . رَأَيْتَ بِذُنُوبٍ إِلَى لُصْحَرَةٍ » فإني نسبت
الحوب وما نسيه بلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر
عَجَاةً قَالِ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَمْنَحُ هَزَنَدَا عَلَى آثَرِهِمَا قَصَصًا ، فَوَحَدَا
عَدَاً مِنْ عَدُوِّهَا آتِيَهُ رَحْمَةً مِنْ عَدُوِّهَا ، وَعِثَّمَاهُ مِنْ لَدُنْ عِثْمَا
قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعْتَمِرَ بِمَا عِثَّمْتُ رُشْدًا ، قَالَ
بَلَى لَنْ نَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ، وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ؟

قال : سَتَحْدِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - صَبْرًا ، وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا
 قال : فَإِنْ اسْتَعْرَضَ فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَخْبِرَكَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
 ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَدْ . أَخْرَقَهَا
 لَتَعْرِقَ أَمْدُهَا ؟ لَقَدْ حُتَّتْ شَيْئًا إِمْرًا ، قَالَ . أَلَمْ أَقُلْ . إِنَّكَ لَنْ
 تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ؟ قَدْ لَا تُؤَاجِدُنِي مِمَّا نَسِيتُ ، وَلَا تُرْهِقُنِي
 مِنْ مَرِي عُسْرًا

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا عُلَمَاءَ قَوْمِهِ قَالَ . أَقْنَيْتَ نَفْسًا
 رَكِيئَةً بَعِيرٍ نَفْسٍ ؟ لَقَدْ حُتَّتْ شَيْئًا نَكْرًا ، قَالَ . أَلَمْ أَقُلْ لَكَ . إِنَّكَ
 لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ؟ قَدْ . إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا
 تُصَاحِبْنِي . قَدْ نَلَعْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا هُنَا ، فَاتُّوا
 أَنْ بَضِيعَهُمَا ، فَوَحَدَا فِيهَا حَبِيرًا يُرِيدُ أَنْ يَبْقِصَ فِئَامَهُ دَل .
 لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ إِخْرًا ، قَالَ هَذَا عِرْقُ يُبْنِي وَبَيْنَكَ
 سَابِغُكَ تَأْوِيلُ مَا مَسْتَطِيعٌ عَلَيْهِ صَبْرٌ ﴿

فإلى هنا نحن أمام معاجات متوالية ، لا نعلم لها سرًا ، وموقفها
 منها كموقف بطيها موسى بل نحن لا نعرف من هو هذا الذي
 يتصرف تلك التصرفات العجيبة ولا سنشأ القرآن باسمه ، تكلمة
 بسجور لعصص الذي يحيط بنا وما قيعة اسمه ؟ إنما يراد به أن يمثل
 الحكمة الكونية العلي ، أبي لا ترتب النتائج القرينة على المقدمات
 استصورة ، بل مهدف إلى أعراض بعيدة لا تراها العين المحدودة ،

فعدم ذكر اسمه يتفق مع هذه الشخصية المعنوية التي يمثلها و
القوى المجهولة لتتحكم في القصة منذ نشأتها ، بها هو ذا موسى
يريد أن يلتقي هذا الرجل لموعد ، فيبص في طريقه ولكن فتاه
يسى عداءهم عند الصحرة ، وكأنما سبه ليعود ، فيجد هذا الرجل
هناك ، وكان لقاءه يقوتهم لو سارا في وجهتهما ، و لو لم تردهما
الأقذار إلى الصحرة ككرة أخرى كل الخو عامص مجهول ،
وكذلك اسم الرجل العامص مجهول .

ثم يأخذ السر في التحلي ، فيعلمه لطارة حين يعلمه موسى .

﴿ أَمَّا سَفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ، وَرَدَّتْ أَنْ
أُغِيْبَ ، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مِنْكَ يُحَدُّ كُلُّ سَفِينَةٍ عَصَاً وَأَمَّا الْعُلَامُ
فَكَانَ نُوحٌ مُؤْمِنٌ ، فَحَسِبْنَا أَنْ يَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَأَرَدْنَا أَنْ
يَبْدِيَهُمَا رِجْمًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ، وَأَمَّا الْاِخْدَارُ فَكَانَ
لِالْعُلَامِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَابِحًا ، وَرَدَّ رَبُّكَ أَنْ يَنْعَا شُدُّهُمَا ، وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ، رَحْمَةً
مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا نَعْنُ عَنْ أَمْرِي . ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْمَعْ عَلَيْهِ
صَرَ ﴾

وفي دهشة السر المكشوف يحنى الرجل كما بدا لقد يحظر
بلاذهان الدهشة بعد أن تصحو أن تسأل من هذا ؟ ولكنها لم
تتلقى جواباً لقد مضى في المجهول ، كما حرح من المجهول ،
فالقصة تمثل الحكمة الكبرى ، وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها
إلا بمقدار ، ثم تبقى مجهولة أبداً

دك أفق من افاق التناسق كذلك ، كان موضعه في فصل التناسق هالك فليرده القارئ بمسه إلى تلك الآفاق !
 ٢- ومرة يكشف السر لبطارة ، ويترك أبطال القصة عنه في عمادية ، وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون بالسر ، وأولئك شاهدون تصرفاتهم عذلين وأعل ما يكون ذلك في معرض السحرية ، لشتري البطارة فيها ، منذ أول لحظة ، حيث تتاح لهم السحرية من تصرفات الممثلين !

وقد شهدنا مثلاً من ذلك في قصة أصحاب الحنة

﴿ يَذْقِمُوا بِضْرَتَهُ مُضْجِينَ ، وَلَا يَشْتُونَ ، فَطَافَ عَلَيْهِمْ طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ يَكْتُمُونَ ، فَأَصْحَتْ كَالضَّرِيمِ ﴾

وبما نحن نعلم هذا ، كان أصحاب الحنة يجهلون

﴿ فَتَنَادُوا مُضْجِينَ أَلْأَعْدَاءُ عَلَى خَرَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ أَلَا لَدُنْهُمْ يَوْمَ مَسْكِينٍ وَعَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾

وقد طيف نحن البطارة بسحر مبهمة ، وهم سادون ويحافظون ، والحنة حذوية كالضريم ، حتى انكشف لهم السر أخيراً بعد أن شبع نهكاً وسحراً « قَبُولُ » لَصَالُونَ بل نحن محرومون « ١ » وذلك جراء من يحرم المساكين !

فهذا هو من التناسق كذلك ، يصف إلى بطارته هالك
 ٣- ومرة يكشف بعض السر لبطارة ، وهو حاف على الظل في موضع ، وحاف على البطارة وعن الظل في موضع آخر ، في

القصة الواحدة مثال ذلك قصة عرش بلقيس الذي حيي به في
عمصة ، وعرف بحسنه بين يدي سليمان ، في حين ان بلقيس
صنّت تحجّل ، تعلم : « فما جاءت فيل هكده عرشك ؟ » قالت
كأنه هو « ! فهذه مهاجاة عرف بحسن سرها سهاً ولكن مهاجاة
لصرح الممرد من قوارير ، طلت حافية عت وعيا حتى هوحشا سرها
معها حينما اقبل ها ادخلي الصرح ، فلما رآته حسسته لحية وكشفت
عن ساقها ، قال : انه صرح ممرد من قوارير ! » وسد ذكر القصة
بالتفصيل بعد قليل

٤ - ومرة لا يكون هناك سر ، بل تواجة المهاجاة لطل والبصرة
في آن واحد ، ويعلمان سرها في الوقت ذاته وذلك كمحادثات
قصة مريم ، حين تنحذ من دون أهلها حيناً فتهاجها هناك الروح
لأمير في هيئة رجل ، فتقول : اي أعوذ بآرحمن منك إن كنت
نصياً » نعم بنا عرفنا قصه بلحظة أنه « الروح » ولكن الموقف لم يطل
فقد حبرها « قال : إنما أن رسول ربك لأهب لك علماً
ركماً ! » وقد عرخت كذلك معها إذ جاءه المخلص إلى حدع
المحنة « فب ي يتي مت قبل هه وكنت ستاً منسياً ، فاداه
من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سراً » إلح

* * *

(ح) وثالثة انحصائص انصيه في عرض القصة تلك الفحوت
بين المشهد ومشهد ، التي نركها تقسيم المشهد و « قص » الماظر ،
في يؤده في المشرح الحدث براب الستار ، وفي اسيم الحدث
البحار الحقة ، بحيث نرك بين كل مشهد أو حقتين فحوه

بملوؤها الحيوان ، ويستمتع بإقامة القطرة بين المشهد السابق والمشهد
اللاحق

وهذه طريقة متعة في جميع القصص القرآني على وجه التقريب ،
ويعكس أن نلاحظ فيما عرصه من القصص قلاً ، أما في هذه المسألة
عصرت عليها مثلاً من قصة يوسف فانقصة قد قسمت ثمانية
وعشرين مشهداً ، فلعرض بعض مشاهدنا .

لقد قدم إخوة يوسف وهو على حرائر لأرض ، في سنوات
الجدب ، يطسبون القمح ، فطلب إليهم أن يحضروا أحاسم الآخر
- شقيقه - فأحضروه - على كره من أبيه - ثم وضع صُواع الملك
في رحله وأخذ به رهيبه ، باسم أنه سارق ، يسقيه يوسف عبده !
ثم ها هم أولاء إخوته يتحجرون جاساً يتشاورون في أمرهم ،
وقد أسى عليهم يوسف أن يأخذ أحدهم مكانه

﴿ فَمَا اسْتَبَاسُوا مِنْهُ خَصَصُوا نَحِيًّا فَإِنْ كَبِرْهُمْ أَلَمْ نَعْمُوا
أَنْ أَمَّاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ، وَمَنْ قَتَلَ مَ قَرَّطُمْ فِي
يُوسُفَ ؟ فَلَنْ أُنْزَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ،
وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ أَجْعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَذُوبُوا ، يَا أَبَا إِنْ أَنْتَ
سَرَقَ ، وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا ، وَمَا كُنَّا لِنَعْتَبِ حَافِطِينَ ، رَأْسًا
الْقَرْيَةِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ، وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْنَيْنَا فِيهَا ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

وهنا يسدل الستار ، لنتني بهم في مشهد آخر لا في مصر ولا
في الطريق ، ولكن أمام أبيهم ، وقد قالوا له ، وصاحبه به أخوهم
دون أن سمعهم يقولونه ، إذ يرفع الستار مرة أخرى ليجد ناهم
بخطيئتهم .

﴿ قَالَ • بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ، فَصَرَّ جَمِيلٌ •
 عسى الله أن يأتيهم جميعاً • به هو العليم الحكيم ﴾
 ويسدل الستار .

وهنا يرى مشهداً آخر بين يعقوب وبنيه ، براه قد ابيضت
 عيابه من الحر ، وهو دائم الحسرة على يوسف ، وأساؤه يستذكرون
 عليه هذا كله :

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ، وَقَالَ يَا أَسْمَاءُ عَلَى يُوسُفَ ، وَأَبْيَضَّتْ عَيْبَاهُ
 مِنَ الْحَرِّ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأْ تَذَكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ
 حَرَصاً ^(١) أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ، قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزِّي
 إِلَى اللَّهِ ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ يَا نَبِيَّ ذَهَبُوا فَتَخَسَّسُوا
 مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ، وَلَا تَبْيَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يَبْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ
 اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

وهنا يسدل الستار ، ويصوون الطريق لا يعلم عنهم فيه شيئاً ،
 إذ يرفع الستار فجددهم في مصر أمام يوسف .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الْمَصْرَ ،
 وَحُتْنَا بِضَاعَةٍ مُرْحَاةً ، فَأَوْفِرْ لَنَا الْكُتْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ أُمَّةً
 يَجْرِي الْمَتَصَدِّقُونَ ﴾ . وهكذا .

وتسير قصص أهل الكهف ومريم وسليمان على نسق نفسه ،
 وسنعرض بالتفصيل في الفقرة التالية .

(١) دائماً من الهم والحر

التصوير في القصة

وأخيراً يخصص هذا العود للحصيفة الرابعة ، ترر الحصاص
الهيبة في القصة ، وأشدّها اتصالاً بموضوع هذا الكتاب « التصوير
القي في القرآن » هلقد سبق أن قلنا : إن التعبير القرآني يتناول القصة
بريشة التصوير المدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي
يعرضها ، فتسجل القصة حادثاً يقع ومشهداً يجري ، لا قصة تُروى
ولا حادثاً قد مضى .

ولآن نقول : إن هذا التصوير في مشاهد لقصة أنواع
لون يبدو في قوّة العرض وإحياء وكون يبدو في تحييل العواطف
والاممالات ولون يبدو في رسم الشخصيات وليست هذه الألوان
منفصلة ، ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف ويظهر على اللوين
لآخرى ، فيسمى باسمه أما الحق فإن هذه اللمسات الهيبة كلها
تبدو في مشهد القصص حياً وهو يوضح مثال ، لا يوضحه
المقال

• • •

استعرضنا من قبل قصة أصحاب الحة ومشهد إبراهيم
واسماعيل أمام الكفة ومشهد نوح وانه في الصوفان وكلها أمثلة
لقوّة العرض والإحياء ، حتى يظن القارئ أن المشهد حاصر بحس
وبرى على بحر ما ساء أما الآن نصيف مثلاً حديثاً
ها نحن أراء مشهد « أهل الكهف » يتشاورون في أمرهم
عدما اهتدوا إلى الله بين قوم مشركين .

﴿حَرُ نَقْصُ عَلَيْكَ بَأْهُمْ بِالْحَقِّ﴾ إِيَّاهُمْ فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ،
 وَذُنُوبُهُمْ هُدًى ، وَرَبُّهُمْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، يَذْقُمُوا ، قَدَلُوا ، رَبَّنَا رَبِّ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَلَمْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ، لَقَدْ قُنَّا إِذْ شَطَطًا
 هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ مِنْ رَبِّهِ
 لَمْ يَطْلُمْ مِنْ أَقْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ؟ وَذُ اعْتَرَفْتُمْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
 - إِلَّا اللَّهَ - فَادْعُوا إِلَى الْكُفْرِ ، بِشَرِّ لَكُمْ رَبِّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ،
 وَيَهْدِي لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَعًا

هذا ينتهي المشهد ، وبسبب الستار ، أو تقطع الحقيقة عن
 أحداث الصرق التي اهتدى إليها المسرح والسيمياء في القرد العشريين
 فإذا رفع لسان مرة أخرى ، وحدها قد يقدوا ما استقر عليه
 راسهم ، فيها هم أولاء في الكهف ها هم أولاء براهم رأي العين
 ه يدع التصوير هنا شكاً في أننا نراهم يقيناً .

﴿وَتَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ،
 وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْ ذَاتِ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَخْوةٍ مِنْهُ﴾ .

أقول : إحياء المشهد ؟ إن مسرح الحديث بكل ما فيه من
 طرق الإضاءة يكاد يعبر عن تصوير هذه الحركة المتواصلة ،
 حركة الشمس وهي « تراور » عن الكهف عند مطلعها فلا نصيته ،
 (والسطة ذاتها تصور مدلولها) وتجاوزهم عند معيها فلا تقع عليهم
 ولقد تستطيع السيمياء بجهد أن تصور هذه الحركة العجيبة التي تصورها
 الأنفاظ في سهولة غريبة .

ثم سطرهم «وهم في محرة منه» إن الألفاظ لتقوم بالمعجزة مرة أخرى ، فنقل هبتهم وحركتهم كأنما شخصٌ وتتحرك على التوالي :

﴿وَنَحَسَّهُمْ أَثْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنَقَلَهُمْ دَاتَ اليمينِ وَدَاتَ الشمالِ ، وَكَلَّمَهُمْ بِسَطِّ دِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ بَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فِرَارًا ، وَلَمَلَّيْتُ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ .

وهكذا تصطلع الألفاظ بالتصوير وبالحركة في كل هذه السهولة

وفجأة تلب فيهم الحياة ، فنظر ولنسج .

﴿وَكَذَلِكَ نَعْتَاهُمْ لِنِشَاءَ بَنِيهِمْ قُلْ قَاتِلْ مِنْهُمْ كَمْ لَشْتُمْ ؟ قَالُوا نَشَأَ يَوْمًا أَوْ نَعَصَّ يَوْمَ ، قَالُوا رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَشْتُمْ فَأَنذَرُوا أَحَدَكُمْ بِرُوقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَلْيَنْصُرْ أَيُّهَا الرُّكْبَى طَعْمًا ، هَذِي نِيَّتُكُمْ بِرُوقٍ مِنْهُ ، وَلْيَتَنَطَّفْ ، وَلَا يُشْعِرَنَّكُمْ أَحَدًا ، إِيَّاهُمْ إِنْ يَطْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ، وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذْ أَبَدًا﴾ .

وهذا هو المشهد الثالث - أو بقية المشهد الثاني - فهم قد استيقظوا ، فكان أول ما سألوا عنه كم بشتم ؟ فكون الجواب نشا يوماً أو نعص يوماً وبنّا سعلم أنهم نشوا أطول من ذلك حداً ، فقد عرف ملخص قصتهم قبل تفصيلها ، أما هم فحائزون معطلون

عن التحقيق : ثم إسم مؤمنون ، فليكن مظهر إيمانهم أن يقولوا :
 « ربكم أعلم بما نشتم » وهم متحورون أن ينقصح أمرهم ، فهم
 يوصون رسولهم أن يتطلف ولا يشعرنَّ بهم أحداً ، لئلا يعرف القوم
 مقرهم ويرجموهم أو يعيدوهم في ملتهم أما نحن فعرف أن لا
 أحد هناك يرحمهم أو يرددهم عن دينهم ولكن لتتبع هذا الرسول
 في المشهد الثالث :

أين هو هذا المشهد ؟ ها فجوة متروكة للحياة . نحن لا نحد
 إلا أن أمرهم كُشف وعثر الدس عليهم وإن كان الناس يومئذ
 مؤمنين لا كافرين .

﴿ وكذلك أَعْتَرَا عَلَيْهِم بَعَلْمُوا أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ، وَأَنَّ السَّاعَةَ
 لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ ..

وهنا يمرر العرض الاندي من القصة ؛ ولكن الصيب انهي
 كدبت قد اسوي ، فللحياء أن يتصور ماذا حدث عندما ذهب
 رسولهم وعندما كشف أمره أيضاً .

وهنا كذلك فجوة أخرى فهم قد ماتوا فيما يصهر
 ماتوا فعلاً والقوم خارج الكهف يتدعون ويتشاورون في شأنهم ،
 على أي دين كانوا ؟

﴿ إِذِ يَتَدَارَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ، فَقَالُوا : اشْرَا عَلَيْهِمْ بِبَنَانٍ ،
 بِهِمُ أَعْنَمُ بِهِمْ فَإِذَا الَّذِينَ عَلِمُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَتَجِدَنَّ عَلَيْهِمُ
 مَسَاجِدَ ﴾

وهنا فجوة ثالثة فيتحد الحياء هذا المسجد عليهم أما الناس

بعد أن انتهى الأمر ، فيها هم أولاء - كمادة الدس - يناقلون
أحبارهم ، ويتجادلون في عددهم وعدد النسيب التي انقصت
عليهم :

﴿ سَيَقُولُونَ : ثَلَاثَةٌ رَأَوْنَاهُمْ كَذِبًا ، وَيَقُولُونَ خُمْسَةٌ رَأَوْنَاهُمْ كَذِبًا ، رَحْمًا نَالَيْتُمْ - وَيَقُولُونَ سِتَّةٌ رَأَوْنَاهُمْ كَذِبًا ﴾

لقد طواهم المجهول بعد أن تمت الحكمة الدسية من عندهم ،
فيوكل سرهم إلى المجهول أيضاً .

﴿ قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ ، مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، عَلَا نَمَارٌ فِيهِمْ
إِلَّا مَرَاءَ ظَاهِرًا ، وَلَا تَنْتَفِتْ فِيهِمْ مِنْهُمْ خُذًا ﴾

ثم تهيأ الممارسة للتوجيهات الدسية المعهودة ، فبحسب في أعقاب
قصة المبعث والقدرة الإلهية والاستثثار بالغيث ، فهي تقول

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا يُشْيَرُ إِلَيْنَا فَعَلْنَا ذَلِكَ عَذَابًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ،
وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا سَبَّحْتَ ، وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِي رَبِّيَ لِأَقْرَبَ مِنْ
هَذَا رَشَدًا ﴾ .

(ويذكر هذا التوجيه حسب حاصر محمد - صلى الله عليه
وسلم - ولكن تفصيل هذا السب لا بعنا هنا ، إنما هو مظهر
عام من التوجيه الديني في ثياب القصص وأعقابها ، وفي اللحظة
المناسبة المناسبة (وهذا ما سأتكلم فيه) وفي النهاية أخرج محقق
عن مدى لشهم ، وهو الملهم في القصة ، أم عددهم فيبقى سرّاً
معهم « ولشأنهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً » وهذا

البحر فرصة أخرى للتوجيه الديني

﴿قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَسُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
تُصِيرُ بِهِ وَأَسْمِعُ مَا هُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ، وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ
أَحَدًا . وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ زُكَّا ، لَا مُمَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ،
وَلَنْ نَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ .

لقد استوردت في تنوع جميع خصائص القصة التي عرست
هنا . ولكن مما لا شك فيه أن « قوة العرص والإحياء » هي السمة
البارزة في مشهد القصة جميعاً وأن هذا اللب هو الذي يطبعها ،
ويعلب فيها على الألوان الأخرى

* * *

والآن إلى اللون الثاني من أنوار التصوير في القصة تصوير
العواطف والانفعالات وإبرارها .

لقد عرصنا من قبل قصة صاحب الخنتين وصاحبه الذي
يحاوره ، وقصة موسى مع رجل « من عبادنا آتينا رحمةً من عندنا »
وكلتاهما تصور العواطف المختلفة وتررها بحسب رسم الشخصيات
وإحياء المشاهد . فالآن نضيف إليهما قصة أخرى تفصيلاً . نصيف
إليهما قصة مريم عند ميلاد عيسى

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اسْتَضَاءَ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ،
وَتَحَدَّثَ مِنْ دُونِهِمْ حَجَابًا ﴾

فها هي ذي في حلوتها ، مطمئنة إلى امرأاتها ، سيطر على
وحدتها ما يسيطر على الفتاة في حمامها ، ولكن ها هي ذي تُفاجأ

مفاجأة عيفة تنقل تصوراتها بقلة بعيدة ، ولكنها بسبب مما هي فيه أيضاً « فرسلنا إليها روحاً ، فتمثل لها بشرًا سويًا » قالت إني أعود بالرحمن منك إن كنت تقياً » إنها انتصاصة العذراء المدعورة بفجوها رحل في حلومها ، فتلجأ إلى استشارة التقوى في نفسه .
« إن كنت تقياً » !

ولئن كنا نحن نعلم أنه « الروح الأمين » فإنها هي لا نعلم إلا أنه رحل . وهذا يتمثل الخيال تلك الفتاة لطيفة البريئة ، ذات التقاليد العائدية الصالحة ، وقد ترنت تربية دينية وكملها « زكريا » بعد أن ندرت لله حبيباً هذه هي المرة الأولى

﴿ قال إنما أن رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾
ثم ليتمثل الخيال مرة أخرى مقدار الفزع والاحول ، وهذا الرحل اعريب - اندي م تثق بعد بأنه رسول ربها ، فقد تكون حبة فانتك يستعمل طبيعتها - يصارحها في تحدث مع الفتاة الاحول ، وهو أنه يريد أن يهب لها غلاماً . وهو في خضوة وحدها وهذه هي المرة الثانية .

ثم تتركها شحاعة الأنثى تدافع عن عرضها
﴿ قلت . أتني تكون لي غلاماً ، ولم يمسنني بشر ، ولم أكن نعيًا ﴾

هكذا صريحة ، وبالألفاظ المكشوفة فهي والرحل في حلوة ، والعرص من مدعنته ها قد صدر مكشوفاً - فما تعرف هي بعد كيف يهب لها غلاماً ، وما يهدف من روع الموقف أن يقول لها : « إني أما رسول ربك » فقد تكون هذه خدعة فانتك كما قلنا - فالحباء إذن ليس يجدي ، والصراحة هنا أولى .

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيَّ هَيْسٍ وَلَسَجَعَلَهُ آيَةً
لِّنَّاسٍ ، وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مُّفْصِيئًا ﴾

ثم ماذا ؟

هـ نجد فجوة من فجوات القصة ، فجوة هبة كبرى ، تترك
للحيال يتصورها كما يهوى ثم تكسي القصة في طريقها ، لرى
هذه العذراء المسكينة في موقف أحر أشد هولاً

﴿ فَحَمَلَتْهُ ، فَاسْتَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى
حِذِّعِ النَّحْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ، وَكُنتُ نَسِيًّا مُّسِيًّا ﴾

وهذه هي اهرة الثالثة

لش كانت في الموقف لأول تواحه الحصانة والبرية والأحلاق
بينها وبين نفسها ، فهي هـ وشيكة أن تواحه المجتمع بالمصيبة ،
ثم هي تواحه آلاماً جسدية تحاب الآلام النفسية تواحه الأم الحسني
المحاذ الذي « أحاءها » إجاءة إلى حذع النحلة ، وهي وحيدة فريدة ،
تعدي حيرة العذراء في أول محاسن ، ولا علم لها شيء ، ولا مع
هـ في شيء فإداهي قالت « يا ليتني مِتُّ قَبْلَ هَذَا ، وَكُنتُ
نَسِيًّا مُّسِيًّا » فإداهي لنكاد يرى ملامحها ، ونحس اضطراب حواظرها ،
وننمى مواقع الألم فيها :

﴿ وَدَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا نَحْرَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّنًا
سَرِيًّا ، وَهَرَى إِلَيْكَ بِحِذِّعِ النَّحْلَةِ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا خَبِيًّا ،
هَكَئِي وَشَرِي ، وَفَرِي عَيْبًا ، فِيمَا نَرَبُّنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ، فَقُولِي
إِنِّي نَزَرْتُ لِالرَّحْمَنِ صُومًا ، فَلَنْ أَكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾

وهذه هي اهرة الرابعة والمباحة العظمى . وإياها لكاد يحس
- لا مريم - سباً على الأقدام وثناً . وعة من هذه اهرة وعجلاً .
طفل ولد للحظة ، يدها من تحتها ، ومهد لها مصاعها ، ويهيئ
ها طعامها . الا إياها اهرة الكبرى !

وحسبها قد دهشت طويلاً ، وسهت طويلاً ، قل أن تمد
يدها إلى حدع اللحظة تنهره لساقط عليها رطاً حياً - لتؤكد على
الأقل ، وبطمش قلبها لما تواحه به أمها - ولكن لها فحوة ترك
للخيال أن يقيم عندها قطرة ، ويمبرها . .

﴿ قَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيهِ ﴾ !

فلنطمش الآن مريم ، وستقر اهرات انفسية إلى سواها
﴿ قنوا يا مريم لقد حثت شيئاً فرياً يا أخت هارون ! ما
كان أبوك امرئ سوء . وما كانت أمك نعتاً ﴾
إن اهرة لطلق نسهم « سحر وانهمكم على « أخت هارون » !
وفي تذكير هذه الأخوة ما فيه من مفارقة ، فهذه حادثة في هذه
بيت لا ساقه ها

﴿ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأً سَوْءَ ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ نَعِيًّا ﴾

« وأشارت إليه » وسدوا أنها كت مصشة سكرار المعزة
ها : أما هم فما عسى أن يقول في الحب الذي يساورهم ، والسحرية
التي يحيش بها نفوسهم . وهم يرون عدراء نراحتهم بطفل ، ثم
تصح فتشير إليه يسأله عن سرها « قلو كيف تكلم من
كان في المهد صبيّاً ؟ » .

ونكرها هي دي المعزة المرتقة

﴿ قَدْ إِيَّيَّ عَدَّ اللَّهُ ، أَنَا فِي الْكِتَابِ ، وَحَعَلِي نَبِيًّا ، وَحَعَلِي مُبَارَكًا مِّنْكُمْ كُنْتُ ، وَأَوْصَانِي بِاصْلَاحٍ وَابْرَكَهُ مَا ذُكِّرْتُ بِهِ ، وَرَأَى بَوْدَتِي ، وَلَمْ يَحْزَنْ عَلَيَّ حَبَارًا شَقِيًّا ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ ، وَيَوْمَ أُتْعْتُ حَيًّا ﴾

لولا أنا قد حزننا من قبل ، لو أن على أقدامنا عرجاً ، أو سمرن في مواضعنا دهشاً ، أو لعرجاً أهواها عجباً ، ولكنا حزننا ، هلتمص أعيننا بدمع من لثائر ، وترتفع أكفها بالتصفيق من الإعجاب وفي هذه اللحظة سدل لستار ، والأعين بدمع بالانتصار ، والأيدي تدوي بالتصفيق وفي هذه اللحظة سمع في شجرة لتقرير ، وفي أنسب فرصة للإقناع والاعتناع .

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ عَمْرُونَ مَا كَانَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ مِن وَّنَدٍ سُبْحَانَهُ أَتَدْرِكُ أَهْمَ أَمْرٍ أَوْ يَدَّ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾

لقد برر العرض لئلا يهمل ، وبررت مشاهد القصة ولكن بما لا شك فيه أن قوة برر العوض والاصحالات هي العادلة ، وأن هذا اللون هو الذي يطعمها ، ويحببها على الأنوار الأخرى

رسم الشخصيات في القصة

ولأن تحدث عن سور الثالث من أنوار التصوير في القصة ، ولكن بمرده عنها ، وإن كان واحداً منها ، ذلك هو رسم الشخصيات وإبرازها

لقد عرصنا من قبل قصة صاحب الختين وصاحبه ، وقصة موسى وأستاذه وفي كل منهما نموذجان بارزان والأمثلة على هذا اللون من التصوير هي القصص القرآني كنه فتلك سمة بارزة في هذا القصص ، وهي سمة فنية محصنة - وهي بذاتها عرض للقصص الفني الطليق . وما هو د. القصص القرآني ، ووجهه الأول هي الدعوة الدينية ، يلم في الطريق هذه السمة أيضاً ، فتتكرر في قصصه جميعاً ، ويرسم بصح « نماذج إسمائية » من هذه الشخصيات ، تتجاوز حدود الشخصية المعينة إلى الشخصية السودجية . فتستعرض بعض القصص على وجه الإجمال ، ولنعرض بعضها على وجه التفصيل .

* * *

١ - سأحد موسى إنه نموذج لدرعيم المدفع العصي المراج
فها هو ذا قد رُئي في قصر فرعون ، ونُحت سمعه وبصره ،
وأُضح قتيّ قوياً

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ، وَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ
يَقْتُلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَدْعَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ
عَلَى لَدِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَارْتَكَبَهُ مُوسَى ، فَقَصَى عَلَيْهِ ﴾

وهو يبدو التعصب القومي ، كما يبدو الاضغاع العصي
وسرعان ما تذهب هذه الدفعة العنصرية ، فيثوب إلى نفسه
شأن العصيين .

﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ
رَبِّ إِنِّي ظَنَمْتُ لِنَفْسِي . فَاعْفُ رِي فَقَعَرُ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَمُورُ الرَّحِيمُ
قَالَ رَبُّ مَا أَتَعَمَّتْ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُحَرَّمِينَ ﴾

« فأصبح في المدينة حائفاً يرفق » وهو تعبير مصور هيئته
معروفة . هيئة المتفرع اسمعت المتوقع للشر في كل حركة وتلك
سمة العصبيين أيضاً .

ومع هذا ، ومع أنه قد وعد بأنه لن يكون طهيراً للمحرمين
فلسطر ما يصنع به يطر « فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرحه »
مرة أخرى على رجل آخر ، « قال له موسى : إنيك لَعُويٌّ مِين ،
ونكه بهم بالرجل الآخر كما هم بالأمس ، وسيسيه التعصب
والاندفاع استعقاره وبدمه وحقه وترقبه ، لولا أن يذكره من بهم
به فعلته ، فيتذكر ويحشى .

﴿ عندما أراد أن يبطش بالذي هو عدوُّهما ، قال ي موسى
أتريد أن تقتني كما قتلْتَ نفساً بالأمس ؟ إنَّ تريد إلا أن تكون
حماراً في الأرض ، وما تريد أن تكون من المضحجين ﴾

وحينئذ يصبح له بالرجيل رجل حاء من أقصى المدينة يسعى .
فيرحل عنها كما علمنا

فلدعه ها يلتقي به في فترة ثانية من حياته بعد عشر سنوات .
فلعله قد هدأ وصار رجلاً هادئاً الطبع حلیم النفس
كلاً ، فهي هو ذا يُبَادِي من حاب الطور الأعرس أن ألق
عصاك ، فألقها فإذا هي حيَّةٌ تسعى وما يكاد يراها حتى يش
حرياً ، لا يعقب ولا يُبوي . به الهني لعصي نفسه ولو أنه قد صار
رجلاً ، فعيره كان يخاف نعم ، ولكن لعنه كان يتعدى بها ، ويقف
ليناأمل هذه العجيبة الكبرى .

ثم لدعه فترة أخرى ، يرى ما يصنع لزمن في أعصابه

لقد انتصر على السحرة ، وقد استخلص بني إسرائيل ، وعثر
 هم البحر ، ثم ذهب إلى ميقات ربه على الطور وإليه لي ولكي
 ها هو ذا يسأل ربه سؤالاً عجيباً « قال رب أريني أطرك إيلك »
 « قال لن تراني ولكن اطرك إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف
 تراني » ثم حدث ، لا تحتمله آية أعصاب إسرائيلية له أعصاب
 موسى -

﴿ فلما يحى ربه للجبل جعله دكاً وحرق موسى ضيقاً ، فلما أفاق
 قال سبحانه : تست إيلك وأنا أدون المؤمنين ﴾

عودة العصي في سرعة واندفاع !
 ثم ها هو ذا يعود ، فيجد قومه قد نحدوا هم عجللاً إليها ،
 وفي يديه الألواح التي أوحاها الله إليه ، ثم يركض وما يبي « وألقى
 الألواح وأحده برأس أخيه يجره إليه » وإيه ليمضي مسعلاً يشد رأس
 أخيه ولحيته ولا يسمع له قولاً .

﴿ قل يا أيها الذين آمنوا لا تأخذوا بعيني ولا رأسي إلى حشيت
 أن تقول : فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ﴾

وحيث نعلم أن « السامري » هو الذي فعل الفعلة ، يلتفت إليه
 معصباً ، ويسأله مستكراً حتى إذا علم سر المحل :

﴿ قال وذهب هار لك في الجاه أن تقول لا ماسس ، وإن لك
 موعداً لن تحيقه ، وانظر إلى إلهك الذي طنت عليه عاكفاً ، لحرقة
 ثم سبته في ألم سفا ﴾

هكذا في حق طاهر وحر كه متوتره

فندعه سوات أخرى .

لقد ذهب قومه في اتيه وبحه قاصار كهلاً حياً ، ففرق عنهم ،
ولقي النرجل الذي طاب إليه أن يصحبه يعلمه مما آتاه الله علماً
وحر نعم أنه لم يستطع أن يصبر حتى يشه سر ما يصنع مرة
ومرة ومرة . ففرق .

ثلث شخصية موحدة بارزة ، ومودح يساني وصح في كل
مرحلة من مراحل القصة جميعاً .

» » »

٢ - تقابل شخصية موسى شخصية إبراهيم إبه مودح الهدوء ،
والترساح والحلم « إن إبراهيم لحليم وأه ميب »
عها هو ذا في صبه يحبو إلى تملاته ، يبحث عن إله

﴿ فلما حنّ عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربي فلما أفل ،
قال لا أحب لأفلين فلما رأى القمر بارعاً ، قال هذا ربي
فلما أفل ، قال ش م هدي ربي لأكوس من لقوم لصائلين
فلما أرى الشمس بارعة قال هذا ربي ، هذا أكر فلما أفت
قال يا قوم بي برىء مما تشركون بي وحّثت وحّمي للذي هطر
السموات والأرض حيفاً وما أنا من المشركين وحاحه قومه ، قال
أتدجوني في الله وقد هدّك ولا تحاف مما تشركون به إلا أن يشاء
ربي شيئاً . وسع ربي كثر شيءٍ علماً فلا تتذكرون ٢ ﴾

وما يكاد يصل إلى هذا اليقن ، حتى يحاول في بر وود أن
يهدي إليه أنه ، في أحب لفظ وأحصاء

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي هِيَ سُبُلَ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۚ ﴾
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي هِيَ سُبُلَ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۚ
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي هِيَ سُبُلَ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۚ
 ﴿ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَلَا تَعِصُوا أَمْرَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۚ ﴾

ولكن آياه سكر قوله ويعطيه له في القول ، ويهدده تهديداً
 ﴿ قُلْ أَزَاعِبُكُمْ عَلَىٰ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۚ وَالْعَذَابُ أَشَدُّ مِنْهُم وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴾
 لَأَرْحَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿

فلا يخرجهم من العف عن ذنب الحتم ، ولا عن طبيعته النور ،
 ولا يجعله ينقص يديه من أنه .

﴿ قُلْ أَسْلَمْتُ عَلَىٰ اللَّهِ ۚ سَتَعْلَمُونَ لِمَ كُنْتُ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۚ ﴾
 وَاعْتَرِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي ۚ عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ
 بِدَعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿

ثم ما هو ذا يحطم أصنامهم - ولعله العمل الوحيد العفيف
 الذي يقوم به - ولكنه بما تدفعه إلى هذا رحمة أكبر عسى أن
 يؤمن قومه إذا رأوا آياتهم خُذَادٌ ، وعسوا أنها لا تدفع عن مصيبتهم
 الأذى ولقد كذبوا يؤمنون فعلاً « فارجعوا إلى أنفسكم ، فقنوا :
 إنكم أنتم الظالمون » . ولكم عدوهم هموا بإحراقه ، وحبيد « فلما
 ياتوا كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » .

ولقد اعترلهم عهداً طويلاً مع النمر الذي آمن معه ، ومهم
 أن أحبه لوط .

وفي كبره وهرمه يرفقه الله بإسماعيل ولكن يقع له ما يحتم
 عليه أن يبعد ابنه وأمه عنه (والقرآن لا يتعرض لهذا الذي وقع)
 فيغسه الطمع الرضي على الحنوّ الأبوي ، ويدركه إيمانه بربه ،
 فيدعهما بجوار يته وهماك يبادي ذلك الداء الحاشع الميب .
 ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادِرٍ غَيْرِ دِي رَزَعٍ عَمْدٍ بَيْتِ
 الْحَرَمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنْ آدَامِ نَهْوِي إِلَيْهِمْ ،
 وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ .

ثم ما يكاد هذا الطفل يشب ، ويصبح فتى ، حتى يرى في
 المدام أنه يدسحه ، فيعلمه الإيمان الديني العميق ، على الحب الأبوي
 العميق ، ويهم بإطاعة الإشارة ، لولا أن يرفق به ربه ، ففدده
 بذبح عظيم

وهكذا تتكشف الوقائع في القصة والمحاورات عن شخصية
 عميرة الملامح واصحة السمات : «إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ»

* * *

٣- ويوسف إبه بمودح الرجل الواعي الحصيف
 بها هو ذا يلقي العت من مراودة امرأة العرير له فيأبى
 إبه في بيت رجل نؤوبه ، فليحذر مواضع الحرج جميعاً ، ومع
 ذلك يكاد يضعف «ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأي برهان
 ربه» (١)

(١) أنا أرى أن المم هنا كان متادلاً في اللحظة الأولى ، ثم أي برهان ربه فثاب إلى نفسه
 ولست أرى أن المم ثم الترك مما يتعرض مع عصمة الأنبياء فيكفيه عصمة ان لم يفعل
 ومنعني (لولا) يس هو «وهم بها» حتى يكون مفساً إيا هو محسوب مفهوم مما بعده
 وهو قراره من وقت عصمه من دير ولا دعي لأي تاويل حر

وهذا تكرر «المرأة» في حالة من أنكر حالاتها ، وفي دعوة من
دفعات حريرها « واستنقا الداب وقدت قميصه من دُثْرٍ » وتفتح
المساجاة التي يحذرهما « وألها سيدها لدى الداب » وهذا تذرك
المرأة عريرتها أبصاً ، فتجد الخواب حاضراً ، إنها تهتم الفتى .
« ما حراء من أراد نَهْلِكَ سوءاً ؟ » ولكنها امرأة تعشق ، فهي تحشى
عليه الردى ، فتشير بالعقاب المأمور « إلا أن يسحر أو عذاب
أليم ! »

وعبر يوسف كذب سله « اللحمة » ولكن يوسف الواعي
يحجب صادقاً . « هي راودتي عن نفسي » ويستشبه بقميصه المفقود
من الخلف . ويحد من يؤيده في استشهاده من أهل المرأة دأها
﴿ وشهد شهيداً من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت
وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دُثْرٍ فكذبت وهو من
الصادقين ﴾ . فيوسف إذن بريء

ويلعبت ساء المدينة بالقصة - كعدة أساء في كل مكان
ورمان - وإياها قصة تحد لديهن إهناماً ورواحاً ، فتكرر « المرأة »
في روح العربي مرة أخرى إنها تدعوهم إلى حملة ، وبينما هن
مهيئات في تناول الطعام والسكك في أيديهن - فقد كانت
مصر منحصرة بأكل أهلها في الصحاف ويستخدمون السكاكين -
تُحَرِّج عليهن يوسف ، فيهن ويؤجلدن ، ويحرجن أيديهن بحريحا
شديداً « فما رأيه أكرمه وقطعن أيديهن » وقلن حاش لله !
« هذا شرأ إن هذا إلا ملك كريم » إهن ساء ، وإياها
لامرأة ، وإياها لتعرف كيف تفحم الساء !

﴿ ثم يدّهم - من بعد ما رأوا الآيات - بسحبه حتى حين ﴾

فن يسكت العبط وفي المدينة بسوه

وهو هو ذا يفسّر الرؤيا لصاحبيّ الملك في السحر ، فإذا عرف
أن أحدهما سيبحر وأنه سيعود إلى خدمة سيده ، لم يسر يوسف
الواعي أن يطلب إليه ذكره عند ربه :

﴿ وقال للذي صنّ له ساحر مهما اذكّرني عند ربك ﴾

وبكى الساقى سسى « فلبث في السحر بضع سنين » حتى
يرى الملك رؤياه ، ويعجز عن تفسيرها المفسرون ، فيذكر الساقى
يوسف ، ويأتي إليه ليفسّر الرؤيا ، فيحدثها تفسيراً ، فيطشه الملك
ببراه

وهنا يظهر الرجل الحصيف لقد دخل السحر ظلماً ، وإب
حولته لبعط ، وإبه لن يأمن إذ حرج أن يرد إلى السحر كما دخل
إليه أول مرة ، فهو ستر الفرصة لمناسة للحصول على لضياف
واندراء « قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بئ السوه الاناي
قطّع أيديهم ؟ إن ربي مكيدهم عيم » ويسأله الملك ، فيحسن
بحقيقة ، وتري امرأه العرير أن تترثه أيضاً ، فإظهار أنها كانت
قد أسست يد بحر برجح أنها فعلت فعلتها وهي في الأبعين أو
هوقها ، فهي فعلة امرأة مكتملة في نهاية المرحلة ، وإذا أصعبا إلى
سب « بضع سنين » كانت في الخمسين أو قرب الخمسين فلا
ضير حيث من كشف ادصي الدفين « قالت امرأة لعرير
الآن حصّص الحق أن راودته عن نفسه ، وإبه من الصادقين »
وفي عقيب يوسف على هذا سلك الرجل الحصيف المفتصد

في التعبير ، الذي لا يبالغ في شيء ، إنما يصح الاحتمالات والاحتياطيات
لكل حالة :

﴿ ذلك ليعلم أني لم أحنه بالعجب ، وأن الله لا يهدي كذبة
الحائثين وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾^(١)

فإذا رأى أنس الملك به ورتيابه بتأويله ، وسمع منه قوله
« إنك اليوم لدينا مكين أمين » لم يدع الفرصة تذهب بل قال :
اجعني على حرائر الأرض إلي حصيد علم » فيجاء إلى طيبة
في أنسب الظروف .

ويدل تصرف يوسف في سبي الحصب وأخذ على مهارة
واصحة في الإدارة والاقتصاد ، فقد أشرف على الماية والتموين
أربع عشرة سنة ، لا على تموين مصر وحدها ، بل على تموين
البلاد القرية المحاورة ، التي أحدثت كذلك ، وجاءت مصر
تستجدي الخبز والحياة سبع سنين

ثم إذا جاء إخوته فعرفهم وهم به منكرون ، جعل حصوله
مهم على أخيه ، ثمأ بحصوهم على القوت فإذا جاعوه بأخيه
وإذا احتجاره جعل السقاية في رخل أخيه ، ثم أذن مؤذن
أبها العير إنكم تسرقون » فإذا أنكروا السرقة ، وطلبوا تفتيشهم ،
وأخذ من تظهر الكأس في أمعته ثمأ للكأس ، تدت الحصافة

(١) في قول يوسف ذاته هذا ما يوجه تفسيره الذي أسلفه فالنفس أمارة بالسوء ولقد أمرته ،
فما أبرئ نفسي من الأمر ، ولكنه استعصم ، ورأى برهان ربه فأثبت وهي عصمه
لا شك فيها بعد الفتنة التي تعرض لشبهه بها بي الله ود كذلك في قصة النجعة الواحدة
والسبع والسبعين معه

« قد نأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه »
وتركهم يعودون بدونه ، ثم يرتدون نأوعيتهم إليه ، فيكشف لهم في
هذه المرة عن نفسه ، بعد أن بقي عندهم هذا الدرس ، وبعد أن
يحملهم تلك المشقة !

وعده كنها تصرفات الرجل الواعي الحصيف

* * *

٤ - وكذا نود أن نعرض شخصية آدم وشخصية إبليس هـ
اعرض الفصل ، ولكننا نكتفي بالإجمال فيهما لأن لدينا قصة
أخرى سنعرضها تفصيلاً

إن شخصية آدم في قصص القرآن نموذج « للإنسان » بكل
مقوماته وخصائصه ومن أظهر تلك المقومات والخصائص ذلك
الصعف الشري الأكر الذي يجمع كل نوحى الصعف الأخرى
فيها الصعف آدم الرعة في الحلود وقد لمس ابنس موضع الصعف
هـ فاستجاب له آدم واستجاب له حواء « قال هل أدلك
على شجرة الجن والملك لا تلبى » فالإنسان القاني حرص على
الجنود أبداً ، فيما لم يده كما يباه الشيطان ، ظل ومسطل يحاونه
مختلف الطرق ديسل وباندكر وبالجنال فإن م ينفعه هـ
كله ينفعه الذين الذي يصمن به العت مرة أخرى ، ويصمن له
نوعاً من الحلود أيضاً !

أما شخصية إبليس فهي شخصية الشيطان وكفى .

* * *

٥ - والآن نعرض أشد لقصص إرارات للسمات الشخصية في

رى ، وأدجنها في الفس الخالص كذلك ، مع وفاءها التام بالعرض
الديني

١- قصة سيدنا مع بلقيس وكلاهما شخصية واضحة فيها .
شخصية « لرجل » وشخصية « المرأة » ثم شخصية « الملك الذي »
وشخصية « الملكة » فليطرح كيف يرى أولئك جميعاً

﴿ وَفَقَدَ الظِّيرَ . فَقَالَ : يَا لَا أَرَى الْهَدُّهُدَ ؟ أَمْ كَرَّ مِنْ
نَعَثِينَ ؟ لِأَعْدَسَةٍ عَدَسٌ شَدِيدٌ . أَوْ لِأَدْنَحَةٍ . أَوْ لِسَيْيِّئِ سُلْطَانٍ
مُنِ ﴾

فهذا هو المشهد الأول . فيه « الملك الحارم » و « الذي العادل »
و « الرجل الحكيم » إنه الملك يعقده رعيته ، وإليه يعصب جماعة
النظام ، والتعب بلا يد . ولكنه ليس سلطاناً حائزاً ، فقد يكون
معاثب عدوه ، فإن كان فيها ، ولا فرصة لم تقت ، ويعدسه عداء
شديداً أو ليدبحه

﴿ فَمَكَثَ عَمْرٌ بَعْدَ . فَقَدْ أَخْصَتْ يَ لَمْ تُحْطُ بِهِ ، وَحُشُّكَ
مِنْ سَيِّئَاتٍ يَقْبَلُ إِلَى وَحَدَّتْ امْرَأَةٌ مَدْكُهُمْ ، وَأَوْتَتْ مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ ، وَفِي عَرْشٍ عَظِيمٍ وَحَدَّتْ وَقَوْمُهَا يَسْتَحْبُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونَ
الْقَمَرِ : وَرَبَّ لَهُمُ الشُّطْرَانُ أَعْمَدُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّيْلِ ، فَهُمْ لَا
يَهْتَدُونَ لَأَنْ يَسْتَحْبُوا اللَّهَ الَّذِي يَجْرَحُ نَحْبَهُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ،
وَيَعْلَمُ مَا يَخْفَوْنَ وَمَا يُعْبُونَ ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

فهذا هو المشهد الثاني - عودة العائب - وهو يعلم حرم الملك
 وشدة بطشه فهو يبدأ حديثه بمأجدة بعدما لملك نذر عيبته ،
 وافتتاحها يصغر إصبعه الملك إليه « أخطت يا لم تحط به .
 وحشتك من ساء ساء يقين » وأي ملك لا يستمع ، وأحد رعيه
 اصغار يقول به « أخطت بما لم تحط به » ثم هو ذا العائب
 يعرض السأ مفصلاً ، وإبه يحسن إصعاه الملك له ، وإهمامه سنه ،
 فهو يطلب فيه ، وهو يتعسف ، فسكر عن القوم « ألا يسجد
 لله الذي يحرح الحياء في السماوت والأرض » وإبه حتى هذه
 المدحظة نبي موقف المدب ، فالملك لم يرد عيه بعد فهو تلمح بأن
 هناك إله « هو ربّ انعرش العظم » ليصغر ملك من عظمه
 الإساية ، أمام هذه العظمة الإلهية ١

﴿ قار : سَنُطَرُّ أَصْدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . اذْهَبْ
 بَكْتَابِي هَذَا فَاتْلِقْهُ إِيَّيْهِمْ ، نَمْ نَوَى عَنْهُمْ ، فَانْطَرُ مَا دَ يَرْجِعُونَ ﴾

فهذا هو المشهد الثاني في شطره الآخر فيه الملك انحرى
 العادى « ليس العظم لم يستحق « ملك » وهذا العذر لم به قصيه
 اخدي المحافع للسام ، والفرصة مهياة للتحقيق ، كما يصغر
 « النبي » العادل ، والرجل « الحكيم » .

ثم ها نحن أولاء - انطارة - لا نعم شئت كما في الكتاب ،
 إن شئت منه لم يدع قبل وصوله إلى الملكة ١ فإذا وصل فهي التي
 تدعيه ويبدأ المشهد الثالث .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّ إِلَهِىَ إِلَهِىَ كِتَابُ كَرِيمٍ . إِنَّهُ مِنْ
 سُلَيْمَانَ ، وَإِنَّهُ سَمِىَ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ . أَلَا تَعْبَوْنَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْتَمِينَ ﴾

وها هي دي « الملكة » تطري لكتب ، وتوجه إلى مستشارها
الحديث .

﴿ قلت يا أيها الملكة افتوي في أمري ما كنت قطعة أمر
حتى تشهدون ﴾

وكعدة العسكريين في كل زمان ومكان ، لا بد أن يطهروا
استعدادهم العسكري في كل لحظة وإلا أضوا وضيعتهم مع
تفويض الأمر لرياسة العليا كما يقتضي النظام والطاعة
﴿ قالوا نحن أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، والأمراء لبيك
فانطري ماذا تأمرين ﴾

وها تطهر « المرأة » من حجب « الملكة » ، المرأة التي تكره
الحرب والتدمير ، والتي تنصي سلاح الحيلة والملاينة قبل سلاح
القوة والمخشنة ، والتي تنهت في صميمها لمواجهة « الرجل » بغير
اعداء والحصام

﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وحملوا أغرة
أهلها أدلة ، وكذلك يفعلون ، وبني مرسله إليهم هدية ، فاحذروا
ثم يرجع المرسلون ﴾ !

ويسدل الستار هنا ، ليرفع هناك عبد سليمان :

﴿ فلما جاء سليمان قال الحمد لله مالاً ما آتاني الله خير
مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع إليهم فلنأبينهم بحود
لا قبل لهم بها ، ولنحرقنهم بها أدلة وهم صاعرون ﴾

والآن لقد ردّ الرسل هديهم ، فليدعهم في الطريق قافلين
 يا سليمان لبي الملك ، وإيه كذلك برحّل وإي « عبتك »
 لبدرك من تحاربه أن هب الرد العفيف سيهي الأمر مع ملكة لا
 تريد العداء - كما يبدو من هديتها له - وإنما ستحيب دعوته على
 وجه الترحيح ، بل التحيق ، وهنا يستيقظ « الرجل » الذي يريد
 أن يهر « مرة » بقوة وسلطانه (وسليمان هو ابن داود صاحب
 التسع والتسعين نعجة الذي قتل في نعجة واحدة) ^{١١} « هي هو دا »
 يريد أن يأتي بعرش الملكة قبل أن يحيى ، وأن يمهدها انصرح من
 قوارير (وإي كانت القصة تبي انصرح سرّاً - حتى عا نحن لبطارة -
 نتعاجتنا به مع نقيس في المشهد الأخير) .

﴿ قال : يا أيها الملأ . أياكم يأتي بني بقرشها ، قل أن تأتي
 مسلمين ، قال عقرت من الحن . أنا آتلك به قل أن تقوم من
 مقامك ، وإني عليه لقوي أمين ﴾ .

ولكن الأهداف الدينية لا تريد أن يكون لبحر قوه ، ولو
 كانوا من جن سليمان ، هي هو د رجل من المؤمنين - عنده علم
 من الكتاب - تفوق قوته قوة ذلك العمريت !

(١١) في قصة داود في القرآن شارة إلى قصة داود - مع كثرة مسنده - فأرسل الله إليه ملكين
 بحاصيات عنده ، إذ دحبو على داود بصرع منهم قايو لا تحف حصيان يعني بعض
 على بعض فاحكم بين داود ولا يسطط وهدا إلى سواء الصراط ، إن هذا حي -
 سبع وسبعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال كفلها وعزلي في الحطاب ^{١٢} ^{١٣}
 لقد ظلمت سؤل بعتلت إلى نعجة ^{١٤} وعرف د رد في العتة « فاسمهم
 به وحرّ راكمأ وأدأ »

﴿ قَالِ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ
إِلَيْكَ طَرَفُكَ ﴾

وهي حجة كما تحضر العين ، ثم تفتح .

﴿ فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ، لئلا
أشكر أم كَفَرُ ومن شكر فبما شَكَرُ بنفسه ، ومن كَفَرُ فإن
ربي غني كريم ﴾

لقد سقط الي « في نفس سليمان ، أمام نعمة الله التي
تتحقق على يدي عبد من عبد الله . وهذا يستطرد سليمان في الشكر
على النعمة كما يحقق العرض الديني للقصة

ثم ها هو ذا « الرجل » يستيقظ في سليمان مرة أخرى

﴿ قال : نكروا لها عرشها . نَظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ نَكُونُ مِنَ الَّذِينَ
لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

وهي يهتأ المسرح لاستفسار الملكة : وممست بحس أفاسا في
ارتقاء مقدمها .

﴿ فلما جاءت قِيلَ أَمْكِدَا عَرْشُكَ ؟ قَالَتْ : كَأَنَّهُ هُوَ ﴾

ثم ماذا ؟ إن الملكة لم نسلم بعد من هذه المواجهة - فيما يبدو -

﴿ وَصَّاهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ
كَافِرِينَ ﴾

وهي تم المواجهة الثانية للملكة ولنا معها .

﴿وقيل لها ادخلي الصُّرْحَ﴾ بعد رَأْتُهُ خُسْنَهُ لِحَتَّهْ وَكُنْثَتَ عَنْ
سَاقَيْهِ قَالَ إِنَّهُ صُرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ أَقَالَتْ رَبُّ إِيَّيْ طَمَعْتُ
نَفْسِي وَأَسْتَمْتُ مَعَ صَيِّمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿

وهكذا كانت بقبس «مرأة» كاملة • تنفي الحرب والتدمير •
وتستخدم الحيلة والملاطفة • تدن المحهرة والمحاشنة • ثم لا تسُم
لأول وهلة • فلهذا جاء الأول تمر فلا تُسَم • فإذا سهرت المصاحاة
الثانية • وأحسست بعريزها أن إعداد المصاحاة لها دليل على عذبة
«الرجل» • ألقت السلاح • وألقت نفسها إلى الرجل الذي
سهرها • وأدى اهتمامه بها • بعد الحذر الأصيل في طبيعة امرأة •
والتردد الحائل في هوس حواء |

وهنا يسدل السار في القصة من الوجهة الديبية • ولا من
الوجهة النفسية ريبه لمستزيد • إلا أن يحوون عقداً أخرى فيه سحنة •
لا تتصل بالعرض الديبي ولا تساوقه • وإنه بحسب قصة ديبية وحيث
الدين وحده • أن تترر هذه الانفعالات النفسية • وأن ترسم هذه
«المادح الإنسانية» وأن تعرض هذا لعرض • وتسقها ذلك
التسقي •

وهذا البيان يحتم فصل القصة في القرآن • وعنها وراء ذلك
متسع لمن شاء البيان

مَنَاجِ إنْسَانِيَّة

رسم القبرال في حلال بغيره عن الأعرص الديبية المحتمة
عشرات من « المادح الإنسانية » في غير القصص . رسمها في سهولة
ويسر واحصار ، ثم هي لا حملة أو حميتان حتى يرسم « المودح
الإنساني » شاحصاً من حلال الممسات ، ويتفصص محبوة حباً
حالد السمات !

تارة تكون هذه المادح صورة للجسب الإنساني كله ، وتارة
تكون صورة لأفراد منه مكرودين ، وهي في كدت الحالتين ممدح
حالة ، لا يحطنها الإنسان في كل مجتمع ، وفي كل حيل
ولقد جاءت هذه الآيات لماسات حصة ، ولرسم ممدح
شخصية واقعة . ولكن المعجزة الفنية في التصوير ، جعلت هذه
المادح أبدية خالدة ، تتخطى الزمان والمكان ، وتندور القرون
والأجيال

وحرر ستعرض ها بعض هذه المادح استعرصاً سريعاً - على
طريقة عرصها في القرآن - وقد أسلفنا بعضاً منها في فصل « التصوير
الهي » ومكاتب كد في الواقع هناك ، ثم هي إلا مسات الرتبة
الحقيقة في التصوير ، وكما تمت إلى المادح القصصية بسبب ،
لذلك أثرنا أن نقلها إلى هن من هناك

* * *

١- من المادح الإِسْامة التي تصور الخمس كله

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ ، دَعَا لِحَبِيرِهِ أَوْ وَعِيداً ، أَوْ قَانِئاً ،
هَذَا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّةً كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ ﴾ !

يختتم هذا الممدوح السريع كل عناصر الصدق المهي ،
والتناسق المهي ، فالإِسْان هكذا حقاً حين يمسّه الضر ، ويتعطل
فيه دفعة الحياة ، يتجهت إلى الحلف ، ويتذكر القوة الكبرى ،
ويلجأ عندئذٍ إليها ، فإذا انكشف الضر ، ودالت عوائق الحياة ،
انطلقت الحيوية الدفوعة في كيانه ، وهضحت دواعي الحياة فيه ،
فتسّى دعاءها المستجاب ، و « مر » كأن لم يكن « لأمس شيء »
إن الحياة قوة دافعة إلى الأمام ، لا تلتصت بُدأً إلى الوراء ،
إلا حين يعوقها حاجز عن الحريات

وأما التناسق المهي فيها فهو في تلك الإطالة في صور لدعوة
عبد الضر « دعاء حبيه أَوْ قَاعِداً أَوْ قَانِئاً » ثم في ذلك الإسراع
عند كشف الضر « مر » كأن لم يدعنا إلى ضر منه « إن هاتين
الصورتين تمثلان بالوسط وقوف لشار عن الحريات أمام الحجر
القوي ، فقد يطول هذا الوقوف ويطول ، فإذا فتح الحجر تدفق
التيار في سرعة ، و « مر » كأن لم يقف قل أصلاً .

يُرسَم هذا الممدوح مرات كثيرة في القرآن ، ولكنه يُرسَم من
حواسب محتفة ، تنبني عبد النقطة الأساسية ، ثم سير في طرائق
شتى ذلك مثل :

﴿ وَإِذَا نَعَّمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ اعْتَزَّ بِوَئِيِّ عِبَادِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ
الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً ﴾ أَوْ ﴿ وَلَكِنْ أَدْعَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمْنَا ، ثُمَّ نَزَعَهَا

بِهِ إِنَّهُ لَيُؤْوِسُ كُفُورٌ وَلَنْ تُدْفَعَهُ بَعَاءٌ نَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَهْ لَيَقُولَنَّ
 ذَهَبَ اسْمِيَّتَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرَحَ فَحُورٌ ﴿١٠﴾ إِنْ لَابَسَدَ حُلُقٌ
 مَنُوعٌ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ خَرُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْحَيْرُ مَنُوعٌ ﴿١١﴾

ومثها كثير في نايما القرآن

وهكذا يصور هذا المودح الحد من روبا النفس الإنسانية
 الكثيرة ، ومن ملاسات حياته المتعصرة وكلها تلتقي في النهاية
 عند الحقيقة النفسية الكبرى : الإنسان في قوته - على اختلاف
 مظاهره وألوانه - مدفوع إلى الأمام ، معز دافقة مستحيب
 محبوبة - نشئ طرائق الاستحانة - حتى يوحد المحاجر - على
 اختلاف أنواع المحاجر - فيضطر إلى الحلف بطرائق متباينات !
 ٢ - ومن المادح الإنسانية الخاصة ذلك المخلوق الضعيف
 العفيدة يتمسك بعقيدته ما ناله الحير منها ، فإذا أودي فيها ترعرع
 وحاد عنها ، مثاله : « ومن الناس من يعبد الله على حرف .
 إلح » ومثاله مع شيء من التحوير .

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أؤذي في الله جعلَ
 فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصرٌ من ربك ليقولنَّ إِنَّا
 كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ !

٣ - ومن الناس من يعتز بالحق إذا كان من عمله ، فإذا
 جاء بالحق غيره ، انقلب عليه ، ونكر له

﴿ ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ . وَكَانُوا

من ثَمَّ يُسْتَفْتِحُونَ^(١) عَلَى الدِّينِ كَفَرُوا - فَلَمَّا حَاجَّهُمْ مَا عَرَفُوا ،
كَفَرُوا بِهِ ﴿ ١ 〉

وقريب من هؤلاء أولئك الذين لا يعرفون إلا مصلحتهم ،
ولا يسعون للحق إلا حين تنكشف لهم هذه المصلحة تلك هي
الحيلة وهذا هو الأسوأ .

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ
مُعْرِضُونَ ، وَإِنْ يَكُنْ هُمْ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ﴾ ١

٤ - ومن الناس من ينفر من الحق ، ويكره أن يطع عليه ،
لأن اسمه تجمع الكآبره والصعف جمعاً الكآبره التي تصد عن
الحق ، والصعف الذي لا يستطيع المواجبة .

﴿ يُعَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا سَسَّ كَأَنَّهُمْ يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ
وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ ١

٥ - وبعضهم ينفر من الحق في هذه الصورة الفريدة
﴿ فَمَا هُمْ عَنْ التَّذْكِيرِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ قُرَّتْ
مِنْ قَسْوَةِ^(١) ﴾

وهي صورة حافلة بالحركة ، داعية إلى السحرية
٦ - وكمن من المادح نواها كل يوم عتلو :

(١) يطلبون أن يأمرهم فتح من الله ونصر يبي يخرج منهم في آخر الزمان

(١) الأسد

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَبَخَّخْتُمْ أَجْسَامَهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمِعْ لِقَوَّهِمْ
كَانَهُمْ خَشَبٌ مُسْتَدْعٍ ﴾ ١

إِذَا لَصُورُهُ بَارِعَةٌ وَسُخْرِيَةٌ لَادِعَةٌ .

٧- وهؤلاء الذين لا يفعلون شيئاً « وَيُحْسِنُونَ أَنْ يُحْمَدُوا »
لم يفعلوا ١ إِيَّاهُمْ لِكَثِيرٍ حَدَّثَ فِي كُلِّ رَمَازٍ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ ٢
٨- وَكَمْ مِنَ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ عَلَى حَمِيعِ الْمَوَائِدِ ، وَيَنْظَاهِرُونَ
بِهِمْ أَوْلِيَاءَ كُلِّ فَرِيقٍ ، وَأَمَّا هُمْ صَرُورِيُونَ لِكُلِّ فَرِيقٍ .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ نَصْرَكُمْ ، فَإِنْ كَانَ نَصْرُكُمْ مِنْ اللَّهِ فَالْحَقُّ
أَنْ تَكُونَ مَعَكُمْ ٣ وَإِنْ كَانَ نَصْرُكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ فَانْصُرُوا لَهُمْ
أَمْ يَتَّبِعُونَ الَّذِينَ يَدْعُونَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ قُلْ إِنَّ نَظْرِي خَالٍ
عَنِ السَّمِيعِ وَالْبَصَرِ ٤ ﴾ ١

٩- وَمَعْدُوحُ الْمَكَارَةِ الْعَجِيَّةِ يَنْحَلِي فِي هَدْيِ الْبَصِيرِ - وَقَدْ
سَقَا فِي التَّصْوِيرِ الْفَنِّي - .

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَهُونَ ، يَقُولُوا
إِنَّمَا سَكُوتٌ مِّنَّا وَخَيْرٌ لَّكُمْ ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مُّسْتَحْزَرُونَ ﴾ ٢ ﴿ وَنُوحٍ رَّبِّهِ
عَلَيْكَ كِتَابًا فِي فِرْعَوْنَ فَفَسَحُوهُ نَارَ لِّمَنْ كَانَ مِنَ الْغَايَةِ كَفَرُوا
بِهِ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ٣

١٠- وَمَعْدُوحُ الَّذِي يَخَافُ وَلَا يَسْتَحِي .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَى أَعْيُنِنَا ، فَسَأَلُوا رَبَّنَا أَنْ تُرِيدَ لَنَا
بَآيَاتٍ زُنًى وَمَكُورٍ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ نَذَارٌ لَهُمْ مَا كَانُوا يَحْقِرُونَ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْغَمُّ مِنْ غَافِلِينَ ﴾ ١

١٥- والمودح الذي يريد انحياء أي نفس ، ويريد لها حياة
كَيْفَمَا نَكَرَ ، ويحرص عليها حتى ليقلل في سبيلها ما لا يقدره
دو شمم :

﴿وَتَجِدْنَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾

هذا التحهيل والتكبير ، وسهد التحقير والتصغير !

١٦- والحاملون على القديم كأنهم يعصر المتحجرات

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا تَرَكَ اللَّهُ ، قَالُوا نَلْزَعُ مَا الْقَلْبُ
عِنْدَهُ آثَرًا ، أَوْ لَوْ كَانَ آثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟﴾

١٧- والجماعة المنفرقة التي لا تجمع على رأي ، ولا تحافظ
على عهد :

﴿أَوَكَلَّمْنَا عَاهِدُوا عَهْدًا سُدَّهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ؟﴾

١٨- واندين يحادون بالحق وهـ للباطل ، وفيما يعلمون وما
لا يعلمون ألا يصيق بهم الإنسان صدراً في كل مكان

﴿مَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوْنَ فِيمَا
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ عِلْمٌ ؟﴾ أو ﴿ومن الناس من يُحَادِثُ فِي اللَّهِ بَعِيرَ
عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابَ مُسَرٍّ ثَابِي عِظْمِهِ ، لِيَصُلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ؟﴾ !
وفي الوصف الأخير يرسم صورة محسوسة لتكر المتطع في
الجماعة وهو يشي عظمه وهـ يتفزع !

١٩- واندين يتباطؤون عن البذل والصحية في ساعة العسرة ،
فإذ أصيب المادلون بنشر حملوا لأنفسهم حصاقتها ، وإن أصابوا

حيراً حراً ، جهادهم بدم أصحابنا أو وذوا نو كانوا مدلو
﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَسْطَرَّ مِنْ أَصَابَتِكُمْ مُصِيبَةٌ أَوْ قَدْ أَنْعَمَ
لِلَّهِ عَلَيْكُمْ بِذَمِّ أَكْثَرِ مَعَهُمْ شَهِيداً ، وَلَوْ أَنَّكُمْ فَضَّلْتُمْ مِنَ اللَّهِ لَيَقْوَسَنَّ
- كُنْ لَمْ تَكُنْ بِيَكْمِ وَبِهِ مَوْدَّةٌ - بَلْ لَبِثْتُمْ مَعَهم قَالُوا قَوْرٌ
عَظِيمًا ﴾

٢٠- وجماعة من الناس يخشون ما ظهروا عن ظهرهم
حتى كأنهم شحوص في شخص
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ لِلَّهِ
عَلَى مَا فِي قَنَبِهِ ، وَهُوَ أَلَدُّ الْجِغَامِ ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ
لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسَادَ ﴾

٢١- والذين لا يعرفون ربهم إلا في ساعة الموت فسوف
﴿ وَلَيَسَّ التَّوَنُّ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا خَصِرَ أَحَدَهُمُ
مَوْتُ قَالَ : إِنْ تَنْتُ الْآنَ ! ﴾

٢٢- ولا عيباً مخلوقون الذين سمعوا وكأهم لا سمعوا
﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ ، قَالُوا
لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : مَاذَا قَالَ آنَاءاً ؟ ﴾ !

♦ ♦ ♦

وكيف في لإساسة حيراً ، فهي لم تعدم الهدى الطيبة الشجاعة
الكرامة الصادرة البادية :

٢٣- من هؤلاء :

﴿ الَّذِينَ قَاتَ هُمُ الدِّسُ إِنَّ لَدَيْسَ قَدْ حَمَعُوا بِكُمْ فَأَحْشَوْهُمْ
عَرَادَهُمْ بَدَأَ ، وَقَالُوا : حَسْبُ اللَّهِ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ .

٢٤- وَمِهِمُ ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الدِّسَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا
سَتَظْلِمُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ، نَحْسُهُمُ الْخَاهِلُ أَغْيَاءٌ مِنَ التَّعَفُّفِ ،
تَعْرِفُهُمْ سِيمَاهُمْ ، لَا تَسْأَلُونَ أَسَاسَ الْخَافِ ﴾

٢٥- وَمِهِمُ ﴿ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذْ ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ قُلُوبُهُمْ ،
وَأِذَا تُلِّتْ عَنْهُمْ آيَاتُهُ رَأَوْهُمْ إِيمَانًا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

٢٦ ﴿ وَعَدُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا
خَاطَبَهُمُ الْخَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾

٢٧- وَالَّذِينَ ﴿ يُطْعَمُونَ الطَّعْمَ - عَلَى حَنٍّ - مَسْكِيًا وَبَيْنَمَا
وَسِيرًا إِمَّا تُطْعَمُكُمْ يَوْجَهُ اللَّهُ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ حَرْمًا وَلَا شُكْرًا ﴾

٢٨- وَجَمَاعَةٌ ﴿ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ
قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾

٢٩- وَكَذَلِكَ الَّذِينَ ﴿ يُحْشَوْنَ مِنْ هَاخِرِ إِلَيْهِمْ وَلَا يَحْشَوْنَ فِي
ضُرُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ ﴾

٣٠- وجماعة ﴿لِكَاطِبِينَ الْعِظَةِ وَالْعَامِينَ عَنِ الدَّسِ﴾ .

وأمثلهم في الإسهابة كثير

* * *

هذه مدح أشنها هكذا ، متناثرة بغير ترتيب ، تباثرها في
أطواء المجتمع في كل زمان ومكان وقد صوّرها التعبير القرآني
شاحصة لا تحطها العين في هذه البشرية المتشابهة على ممر الأزمان

المنطق الوجعاني

واحد الإسلام ما يوجهه كل دعوة من الإبر : وحادل
عن دعوته من نصبتوا لحداها ولما كان القرآن هو كتاب هذه
الدعوة ، فقد تضمن الكثير من الحدل . فكيف نراه قد جادلهم ؟
في الوسائل سكت ، وأي الأدلة اختار ؟
قل أن يجب عن هذه الأسئلة يجب أن نطرح في المهمة الأولى
التي جاء لها القرآن

نقد جاء القرآن ليس في عقيدة ضخمة - عقيدة التوحيد - بين
قوم يشركون بالله آلهة أخرى ، ويكون من العجب العجيب عندهم
أن يقول لهم قائل : إن الله واحد :

﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ وَأُتْلِقَ
إِلَهُهُمْ أَنْ أَمْشُوا ، وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ
مَا سَمِعْنَا هَذَا فِي الْمَلَّةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿ ١ ﴾

ولقد نظر نحن اليوم إلى هذه القصيدة نظرة أخرى : ولقد
صححت من هذه الطمولة النادية في هذه المقالة : ولكن لا مفر من
أن نطرح إلى المسألة على وضعها يومذاك ، حيث كان التوحيد يتلقى
بكل هذا العجب في ذلك الزمن .

ولم يكن كل من واحدهم القرآن بدعوته من هؤلاء لعرب السدح
أشركين بالله لقد كان هناك أهل الكتاب هؤلاء كانوا بكرهون

أَنْ يَأْتِي دِينٌ حَدِيدٌ يَعْقِي عَلَى دِينِهِمْ ، وَسِرٌّ عَلَى رَحْلِ بَيْسٍ مِهِم .
وَلَوْ كَانَ هَذَا الدِّينُ مُتَعَقِّاً مَعَ دِينِهِمْ فِي الْأَسَاسِ

﴿وَكَانُوا مِنْ قَتْلٍ يَسْتَحْتَبُونَ عَلَى الدِّينِ كَفَرُوا﴾ فَلَمَّا حَاجَهُمْ
مَا عَرَفُوا ، كَفَرُوا بِهِ . ﴿

وَجِبَ أَنْ يُلَاحِظَ كَذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْإِتِّعَاقَ كَانَ فِي أَصُولِ
الدِّينِ ، لَا فِي عَقَائِدِ أَهْلِهِ حَيْثُكَ هَهُؤُلَاءِ الْيَهُودُ كَانُوا يَقُولُونَ
«عَزَّيْرُ ابْنِ اللَّهِ» وَهَهُؤُلَاءِ النَّصَارَى كَانُوا يَقُولُونَ «الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ» ،
وَهَهُؤُلَاءِ كَانُوا يَقُولُونَ «حَسَّ أَسَاءَ اللَّهُ وَنَحْنُؤُهُ» أَوْ يَقُولُونَ
«لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ» كَمَا يَحْكِي الْقُرْآنُ عَنْهُمْ فِي
شَتَّى الْمَنَاسَاتِ .

هَهُؤُلَاءِ وَأَوَّلُهُ عَلَى السَّوَاءِ كَانَتْ مَهْمَةُ الْإِسْلَامِ بِالْقِيَاسِ
إِلَيْهِمْ هِيَ إِشَاءُ عَقِيدَةٍ حَدِيدَةٍ فِي الْحَقِيقَةِ . وَعَلَى هَذَا وَذَلِكَ تَكُونُ
وَطَبِيعَةُ الْقُرْآنِ الْأَوَّلَى ، هِيَ إِشَاءُ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ عَقِيدَةُ
التَّوْحِيدِ . عَلَى السَّوَاءِ الْخَدِيدِ .

وَنَقُولُ عَقِيدَةُ صَحِيحَةٌ - وَبِئْسَ كَانَتْ تَدُو لَنَا الْيَوْمَ بِدِينِهِ أَوْ
كَالِدِينِيَّةِ - فَلَيْسَ مِنَ السَّهْلِ عَلَى هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي تَعَلَّقَتْ بِهَا
طَفَوْنَهَا شَتَّى قَوَى الطَّبِيعَةِ ، وَشَتَّى أَطْيَافِ الْمَجْهُولِ ، وَلَا سَتَ
حَيَاتِهَا آلَافُ الطَّوَاهِرِ الْحَارِفَةِ ، وَآلَافِ الْوَحْدَانَاتِ الْبَاطِنَةِ أَنَّ
تَتَحَلَّى عَنْ هَذِهِ الشَّتِيتِ الْعَمِيقِ فِي صِمَائِثِهَا ، وَأَنْ تَهْرَعَ إِلَى إِلَهٍ وَاحِدٍ
يَسِيطِرُ عَلَى كُلِّ هَذِهِ الْقَوَى .

وَحَقِيقَةُ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَكُنْ أَوَّلَ دِينٍ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ وَلَكِنْ
لَقَدْ وَحَّدَتْ الْأَدْيَانَ كُلَّهَا مِنْ أَعْيُنِ سَبَبِ دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ مَشْمَا

لا تقي الإسلام على أن التوحيد الذي دعا إليه الإسلام كان توحيداً
محردياً مطلقاً ، أمعن في التحريد من كل توحيد قبله ، فهو أشد
معارضة ، وقر في نفوس من التحسب و لتشييه من كل أديان التوحيد

كانت وظيفة القرآن يدن أن يثنى هذه العقيدة المحالصة
بمجردة وموطن العقيدة الحاد هو الصمير والوحدن - موطن
كل عقيدة لا يعقيد الدينية وحدها . وأقرب الطرق إلى الصمير
هو المداهة ، وأقرب الطرق إلى نوحدن هو الحسن وما الدهن
في هذا المجال إلا منفرد واحد من مصاد كثيرة . وبس هو عن ثمة
حار أوسع المصاد ولا أصدقها ولا أقرها طريفاً

وبعض الناس يكبرون من قيمة هذا الدهن في هذه الأيام ،
عندما من الناس بأثار الدهن في المخترعات والمصنوعات والكشوف .
وبعض السطاء من أهل الدين تنهره هذه الفتنة ، فيؤمن بها ويحاول
أن يدعم الدين بتطبيق نظريته على قواعد المطلق لدهي ، أو
التحريد العلمي |

إن هؤلاء في اعتقادي يرمعون الدهن إلى آفاق فوق
آفاقه فالدهن الإنساني حقيق بأن يدع للمجهول حصته ، وأن
يحسب له حسابه لا يدعو إلى هذا مجرد القداسة الدينية ولكن
يدعو إليه اتباع لآفاق انفسية ، وتفتح مصاد المعرفة « فاعقول »
في عالم الدهن و « المحسوس » في محارب العلم ليس هما كل « المعروف »
في عالم النفس وما العقل الإنساني - لا الدهن وحده - إلا كوة واحدة
من كوى النفس الكثيرة ولن يعنى إنسان على همه هذه المصاد ،
إلا وفي نفسه ضيق ، وفي قواه انحسار ، لا يصلح بهما للحكم في
هذه الشؤون الكبار .

فلدع الدهر يدبر أمر الوحدة اليومية الواقعة ، و يتناول من مسائل ، هو سبب من هذه الحياة ، أما العقيدة ، فهي في أعقها العالمي هناك ، لا يرقى إليه إلا من يسلك سبيل الداهية ، ريهتدي بهدي البصيرة ، ويفتح حسه وقسه ، لتلي الأصداء والأصواء .
ولقد آس بالداهية والبصيرة وما ران يؤمن - بعد الأكر من المؤمنين بكل دين وعقيدة في الوجود ، ولقد ظل علماء الكلام في لإسلام قرواً كثيرة ، يبدئون ويعيدون في الحدس الذهني حول مباحث التوحيد ، هم يلحون بذلك شيئاً مما سمع منطق القرآني في صبح سين فلسفـر الآن في هذا المنطق السديهي الميسور

* * *

نقد عهد القرن دائماً إلى لمس البدهة ، ويقاظ الإحساس ، لبعد مهـد مباشرة إلى البصيرة ، ويتحطهما إلى الوجدان وكانت مادته هي المشاهد المحسوسة ، والحدوث المظورة ، و مشاهد المشخصة ، والمصائر المصورة كما كانت مادته هي لحقائق الدينية الحادثة ، التي تفتح ها البصيرة مستبرة ، وتدرکہا البظرة المستقيمة

أما طريقته فكانت هي الطريقة العامة طريقة التصوير والتشخيص ، بالتحليل والتجسيم على النحو الذي فصلناه في الفصل ماضية جميعاً (ونحن نستخدم ها كلمة لتجسيم بمعناها الفني لا بمعناه الديني بطبيعة الحال إذ الإسلام هو دين التحرید والتزیه)

كان هـد هو المنطق لوحدي الذي حادس به القرآن وناصل ، وكسب المعركة في النهاية

في هذا المطلق اشتركت الألفاظ المعبرة ، والتعابير المصورة ،
والصور الشاحصة ، والمشاهد الماطقة ، والقصص الكثيرة ، التي
تحدثنا عنها حتى الآن .

وكل ما عرّض من مشاهد القيامة وصور النعم والعداب ،
يعد في جملة هذا مطلق الذي يمس الحس ، ويوقظ الخيال ،
فيمس البصيرة ، ويوقظ الوجدان ، ويهيئ النفس للاقتناع والإدعان
ثم سلك القرآن غير الصور النفسية والمعنوية ، وغير القصص
الكثيرة ، وغير مشاهد القيامة وصور النعم والعداب سلك غير
هذا ، كنه طريق إدخال التصويري في المطلق الوجداني الذي يقر
له هذا الفصل الآن

وطسمي إن الذي يهب في هذا البحث ليس موضوع
إدخال ، ولكن طريقة التعبير عنه ، والطريقة التصويرية التي سلكها
هي التي نجده عصاراً من عناصر بحثنا ، إذ الخبث النفسي وحده في
القرآن هو موضوع الواحد . ولا شأن لنا هنا بمعداه من مباحث
القرآن .

* * *

كاتب المشكلة الأولى لتي واجهها الإسلام - كما قلنا هي
مشكلة التوحيد مع جماعة تذكر هذا التوحيد أشد الإنكار ، ونعده
إحدى الأعجب الإنكار . فليست كيف حاجتهم في هذه القصة
المعقدة .

لقد حاولت بساطة وبسر ، وحاصت البساطة والبصيرة ، بلا
عميد كلامي ولا جدل ذهني .

﴿ ثُمَّ أَخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ ﴾ لو كان فيهما

إلهة إلا الله لفسدتا فسجد الله رب العرش عما يصبغون ، لا يسأل
عما يفعل ، وهم يسألون . أم اتحدوا من دونه آلهة ؟ قل هاتوا
برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا
يعلمون الحق ، فهم معرضون ﴿ ١ 》 .

أو ﴿ ٢ 》 ما اتحد الله من ولد ، وما كان معه من إله إذن
نذهب كل إله بما خلق ، ولعل بعضهم على بعض ﴿ ٣ 》 .

هكذا في ساطعة اندامه ، التي لا ترى في السماوات والأرض
ساد ، بما ترى نظاماً محكماً ، يوحي بأن المدبر واحد ، قادر
عالم حكيم

وهذه الصورة التي يجهلها - لو كان هناك آلهة - « إذن نذهب
كل إله بما خلق » وإياها بصورة مضحكة ، أن يحار كل فريق من
المحذقات إلى إله ، وأن اتحد كل إله مخلوقاته ويذهب إلى
أين ؟ لا سري ، ولكننا نتحيل هذه الصورة مضحك من فكره
تعدد الآلهة ، إذا كانت تتجلى هي هذه النتيجة ^١

ثم ماذا يصنع أولئك الآلهة الآخرون ؟ هذه هي الأرض ،
وتلك هي السماء ، آثارهم هنا أو هناك ؟

﴿ ٤ 》 قل : أرايتم ما تدعون من دون الله ؟ أروني ماذا خلقوا من
لأرض ؟ أم هم شرك في السماوات ؟ يتولى كتاب من قبل هذا .
أو أنارة من علم إن كنتم صادقين ﴿ ٥ 》 .

ثم هذه صور الخلق ومصدر الفسدة التي نراها للحوس ،
وتدركها المذبة ، وتتملأها المصائر .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ حَيُّ ۖ
 أَمْ مَا يُشْرِكُونَ ؟ أَمْ مِنْ حَلَقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ
 السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَنْبَتْنَا بِهِ خُلُقًا دَاتِ مَحَّة ۚ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُشْتَوْا
 شَجَرَهَا ؟ أَوَلَيْتُمْ مَعَ اللَّهِ ؟ نَلَّ هُمْ قَوْمٌ يَغْدُلُونَ ۚ أَمْ مِنْ حَقْلِ الْأَرْضِ
 فَرَارًا ، وَحَقْلٍ حَلَاها أَهَارًا ، وَحَقْلٍ هَدَّ وَاسِي ۚ وَحَقْلٍ بَيْنَ الْحَرِيرِ
 حَاخِرًا ؟ أَوَلَيْتُمْ مَعَ اللَّهِ ؟ نَلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۚ أَمْ مِنْ يُحِبُّ الْمُضْطَرَّ إِذَا
 دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ؟ أَوَلَيْتُمْ مَعَ اللَّهِ ؟ قَلِيلًا
 مَا نَذَكَّرُونَ ۚ أَمْ مِنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّجْرِ ، وَمَنْ يُرْسِلُ
 الرِّيَّاحَ بُثْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؟ أَوَلَيْتُمْ مَعَ اللَّهِ ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۚ
 أَمْ مِنْ يَنْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟
 أَوَلَيْتُمْ مَعَ اللَّهِ ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

وهكذا تشترك مشاهد الأرض واسماء ، مع ما يقع هم من
 لأحداث كل يوم ، مع لأحسيس الفطرية التي تلحى الإنسان
 إلى القوة الكبرى عند لشده ، مشترك في محاطة الحس والخيال ،
 ونس المصيرة والوحدات ، لتكرير عقيدة التوحيد في النفوس .
 ومثل هذا كثير جداً في القرآن ، مكرر - مع تنوعه - تكرر صور
 القيمة ، ومشاهد اسعيم والعدب ، فكها في الحقيقة مطلق وحداني
 سجل في هذا الباب

• • •

وكامت المشككة الدنية هي مشككة العث واليوم الآخر ، مع

جماعة تقول : « إنَّ هي إلا حياتنا الدنيا ، نموتُ ونحيا ، وما نحن بمعمودين » بل ٣ نرى في حكاية العث من العجب ، أشدَّ مما نرى في حكاية لآله الواحد ، ٤ لنظر من يقول بهذا القول محبواً لما يمكن أن يتحدث هذا إلا المجازين !

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَحُلٍ ، يُسْتَكْم - إذا مُرِّقْتُمْ كَنْ مُرَّق - بِكُمْ لِي حَقِّ حديد ؟ أفترى على الله كذباً ، أم به حجة ؟ ﴾

إلى هذا الحد من العرب كانوا يتلقون حكاية العث فكيف جادهم في هذا الشأن العجيب !
إبه عرص عليهم صور الحق الظاهرة الحفية ، وسط هم شاة الحياة في لأرض عامة وفي الإنسان حصه ، يبروا أن الذي بدأ الحق يستطيع أن يعده :

﴿ أَفَعَيَّبَ مَا خَلَقَ الْأَوَّلَ ٥ مِ هُمْ فِي لَيْسَ مِنْ خَلْقِ حديد ﴾

وبطريقة التصوير المعهودة راح يعرض عليهم مشهد الحياة في الأرض وفي الإنسان :

﴿ قُلْ لِلْإِنسَانِ أَمَّا أَكْفَرُهُ ١ مِنْ أَيْ شَيْءٍ حَقَّقَهُ ٥ مِنْ نُطْفَةٍ حَقَّقَهُ فَقَدَّرَهُ ، ثُمَّ النَّسَبِ يَسَّرَهُ ، ثُمَّ أُمَّتُهُ فَأَقَرَّهُ ، ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ كَلًّا لَمَّا يَقْصِرْ مَا أَمَرَهُ فَلْيَسْطِرْ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . إِنَّ ضَرْبَ الْمَاءِ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْشَأْنَا فِيهَا حَبًّا وَغِثًا

وتسلت حرقها هيته إلى عوسهم وهو بوجههم إلى هذه المشاهد
 بعرضها عليهم كأنها مشاهد جديدة - وإن مشاهد الطبيعة الجديدة
 أبدأ عند من سطر إليها بحس مرهف وعين مفتوحة - دون أن
 شير ذلك الخجل الذهبي ، الذي قد يعتمد على المهارة ، أكثر مما
 يعتمد على الحقيقة .

* * *

ولقد سحطى مطقة الدهر كلها ، ومطقة الحوس جمعها .
 لتصل مباشرة بمكمن العقيدة ؛ حيث تتصل النفس مباشرة
 بالمجهول ؛ ونجد في عموصه ونعده عن الحس والدهن ملأاً ومتاعاً
 مجتمعين ! ولكنه حتى في هذا نحتار طريقة التصوير والتحليل

﴿ أَنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يُسَخِّحُ لَهُ سَبِيلَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاطَّيَّرَ
 صَوَاتُ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ؟ ﴾ .
 ﴿ يُسَخِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتِ السَّعْ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ فِيهِمْ ، وَإِنْ مِنْ
 شَيْءٍ إِلَّا نُسَخِّحْ بِحَمِيدِهِ ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾
 ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ،
 وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَسُتَعْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً
 وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَتَتَّبِعُوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَرِيمِ
 رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ حَتَّى غُفِّرَ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ
 وَأَرْوَاحِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ
 - وَمَنْ لَوْ السَّيِّئَاتِ يُؤْمِنُ فَقَدْ رَحِمْتَهُ - وَدَيْكَ هُوَ الْفُورُ الْعَظِيمُ ﴾

وهكذا يوقع هذا التصوير والتحجيل في النفس ، تلك الرهبة
التي تحسها أمة المجهول ، ونبتك اللفة التي تسشعرها وهي تحول
في ذلك العالم الحي حيث

﴿الَّذِينَ يَخِشُونَ الْعَرْشَ مِنْ حُورِهِمْ نُسُوحًا يَجْعَلُونَ رِجْمًا
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ . ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ
وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾

وقد لا يكون العيب هكذا بعداً لقد يكون محسوساً ،
ويكنه مجهول ، فهو كذلك يلمس لوجدان ، ويشت القدرة
الكونية ، ويملا النفس بالإيمان

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ
الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾

فهذا دليل العلم بكل حي وهو دليل وحداني ومع ، لا يكذب
الدهن في فهمه وتخريجه
ومثل هذا في محيط أوسع . وتصوير أروع .

﴿وَعِندَهُ مَفْصَلُ الْعَذَابِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُفْمَةٍ
لِلْأَرْضِ وَلَا رَءْيَبٌ وَلَا يَأْسٌ ، إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

في هذه الكلمات القلائل ، تعبير قوي رهيب عن شمول
علم الإله ، مختار به أصل الألفاظ المعبرة ، والعبارات المصورة
فليس محرّد تعبير عن معنى العلم الدقيق الشامل أن يقال « وما

تسقط من ورقة إلا يعلمها « ولا حجة في طلمات الأرض »
 « ولا رطب ولا يابس » إنما هي صورة تمثيلية مذهشة وبن
 الخيال يرود آفاق ادبياتها كلها ، ومحادثها جميعاً ، ليستع هذه
 الأوراق الساقطة ، وتنتج الأحداث المحبوبة المشمومة في محادثها
 ومحادثها نعم الله ، ثم يرتد إلى النفس ، فيعبرها بالخلال والانشوع ،
 ويتوجه بها إلى الله الذي يشمل نعمه هذه بمحافل والآفاق

* * *

ذلك هو المنطق الوحداني ، والحدث لتصويري فليس منه
 ذلك لحدل الذهني الذي ظل علماء الكلام يدثون فيه ويعيدون
 قروناً من الزمان ؟

نصرت هذا مثلاً واحداً من الحدس الذهني الذي عرف عنه
 لقرآن ذلك حين قال : « إنكم وما تعبديون من دون الله حصص
 جهنم أنتم لها واردون » أو ما هو مثلها في المعنى فوجد المشركون
 من العرب في هذا محلاً لحدل ذهني رخيص طواهم يحرجون
 به محمداً مع أهل الكتاب قالوا : وعسى أن مریم ؟ هؤلاء
 جماعة من قومه يؤهونه بدخل جهنم هو الآخر ؟
 فكأن الرد الحكيم « ما صربوه لك إلا حدلاً بل هم قوم
 حصون »

فهذا مثل من لمطلق الذهني صحيح من وجهة قواعد المنطق
 ويكر أن هو من المنطق السليم ، ومن الحقيقة الطبيعية البسيطة ؟
 ثم يكر المنطق الإلهي بصل إلى شيء لو اتبعه القرآن ، لا
 لأن ما فيه من حقائق لا تثبت هذا المنطق ، ولكن لأن العقيدة لا
 يشتمل هذا لحدل . إنها دائماً في أفق أعلى من هذه الآفاق وما

يغيب العقيلة أن يكون عمل الدهن فيها محدوداً فما الدهن إلا
قوة صغيرة محدودة ، تتعلق باليوميات ، وما هو بسبب من
اليوميات

* * *

لقد لمس القراء الواحد ، وأتبع في ذلك طريقة التصوير ،
فمع العناية بمادته وطريقته ، وجمع بين العرص الديني والعرض
الشي ، من أقرب طريق ومن أرفع طريق .

طريقة القرآن

يخلص بنا من جميع المباحث السابقة ، أن للقرآن طريقة موحدة في التعبير ، يتجدها في أداء جميع الأعرص على السواء ، حتى أعرض البرهة والحدال تلك هي طريقة التصوير التشخيصي بوساطة التحليل والتجسيم .

فلنظر الآن في تقويم هذه الطريقة ، من حيث هي طريقة فية من طرق الأداء - وذلك هو مجال بحثنا في هذا الكتاب - فالأهداف الأدبية التي حياء القرآن لتحقيقها ، والموضوعات الإلهية والتشريعة التي تناولها . كل أولئك مباحث ليست من هممها ، وإذا كان بعضها قد حياء عرصاً في بابا الفصول الماضية ، فبما حياءه لنسطر كيف تناوله القرآن ، وكيف سلك في التعبير عنه

وبعض الناس حين ينظر في هذه الموضوعات ، ويرى ما فيها من دقة وعظمة ، وصلاحية ومرونة ، وإحاطة وشمول ، يحسها ميرة القرآن الكبرى ، ويحسب أن طريقة التعبير القرآنية تابعة لها ، وأن الإعجاز كله كامن فيها ، كما أن بعضهم يفرق بين المعاني وطريقة الأداء ، ويتحدث عن إعجاز القرآن في كل منهما على

افراد

أما نحن فنبين أن نقول : إن الطريقة التي اتبعها القرآن في التعبير ، هي التي أبرزت هذه الأعرص والموضوعات ، فهي كماء

هذه الأعراض والمصوغات

ولا يرد، هـ في نللك اسبحث العقيمة حول اللفظ والمعنى
- وقد استعرفت من النقد لعرب ما استعرفت من أن آثاره الخاطئة ،
فرغم أن المعاني متقاة على قارعة الطريق ؛ ثم تامة في البحث اس
قتة وقدامة ونو هلال العسكري وغيرهم محالين ومؤيدين -
وإنما لبحث أن « عبد القاهر » قد وصل فيها إلى رأي حاسم حين
انتهى في « دلائل الإعجاز » إلى أن اللفظ وحده ، لا يتصور
عقل أن يدور حوله بحث من حيث هو لفظ ، إذ من حيث
دلالاته يدور البحث فيه ، وإن المعنى وحده لا يتصور عقل أن
يدور حوله بحث من حيث هو حاطر في الصميم ، بما من حيث
أنه يمثل في لفظ يدور البحث فيه ، وإن المعنى مقيد في تحديده
بأساطم التي يؤدي به ، فلا يمكن أن يحتف اسطمار ، ثم يتحد
المعنى تمام الاتحاد .

م يصح « عبد القاهر » القصيدة هذه « صبأه المحتصره » ،
بحس نرحم عنه ، وإلا فقد استغرق فيها كتاباً لا يستطيع بقده
هـ ، ولا نقل فقرات منه كالتي نقلها في أول هذا الكتاب ،
بذلك الأسلوب المعقد الذي رأيه هناك

ولكن له فسه العظيم في تقرير هذه القصيدة ولو حظ خطوة
واحدة في التعبير الحاسم عنها ، لعل السروة في النقد المعنى بقول
بحس عنه ، إن طريقة الأداء حاسمة في تصوير المعنى ، وإنه حينما
اختلفت طريقتان بتعبير عن المعنى الواحد اختلفت صورتا هـ
المعنى في النفس والدهن ، وبذلك تربط المعاني وطرق الأداء ربطاً
لا يحور البحدث بعده عن المعاني والألفاظ ، كل على انفراد

فإن يدرر المعنى الواحد إلا في صورة واحدة ؛ فإذا تعيّرت الصورة
تعيّر المعنى بمقدارها ، وقد لا يتأثر المعنى الذهني لعدم في ذاته ، ولكن
صورته في النفس واندس تنعير ، وهي المعنّون عليها في النفس - إذا
التعير في النفس للتأثير - فإذا اختلف الأثر الناشئ عنه ، فالمعنى
المقول مختلف بلا مرأه !

ونتهي من هذا البيان ، إلى فصل الطريقة التصويرية في
القرآن فهذه الطريقة هي التي جعلت للمعاني والأعرص والموضوعات
القرآنية ، صورتها التي براها ، ومن هذه الصورة كانت قيمتها
الكبرى فهي في هذه الصورة عبره في أية صورة أخرى كما
أسلفنا .

ونحب أن نريد المسألة يصاحاً بالمادح ، وإن كانت قد
تفرقت في شأيا ، الكتاب ، وتفرق التعليق عليها في مواضعها عما
يهيد مزية الطريقة القرآنية فيها ، ولكسا هنا في معرض التلخيص
الأخير ، وندينا من المادح الكثير .

* * *

نقد كانت السمة الأولى للتعبير القرآني هي اتساع طريقته تصوير
المعاني الذهنية والحالات النفسية ، وإبرارها في صور حسية ،
وانسير على طريقة تصوير المشاهد الطبيعية ، والحوادث المأهية ،
والقصص المروية ، والأمثال القصصية ، ومشاهد القيامة ، وصور
العم والعداب ، والمادح الإنسانية كأسها كنها حاصرة شاحصة
بالتحيين الحسي اندي بمعنها بالحركة المتحيلة

في فصل هذه الطريقة على الطريقة الأخرى ، التي تنقل المعاني
والحالات النفسية في صورتها الذهنية التحريدية ؛ وتنقل الحوادث

والقصص أحراراً مروية ، وتعبر عن المشاهد والمناظر تعبيراً لفظياً ،
لا تصويراً تخيلياً ؟

يكفي لبيان هذا الفصل ، أن تصور هذه المعاني كلها في
صورتها التجريدية ، وأن تصورهما بعد ذلك في هيئة الأخرى
التشخيصية

إن المعاني في الطريقة الأولى تحاصب الدهس والموعي ، وتصل
إليهما محرّدة من صلاحها الحمينة وفي الطريقة الثانية تحطّب الحس
والوحدان ، وتصل إلى النفس ، من مفاصل شتى - من الحواس
بالتحليل - ومن الحس عن طريق الحواس ، ومن الوحدان انفعال
بالأصداء والأصواء ويكون الدهس منفرداً وحداً من مفاصلها
الكثيرة إلى النفس ، لا منفذها المفرد الواحد

وهذه الطريقة فصلها ولا شك في أداء الدعوة لكل عقيدة ،
ولكنها إما تنظر إليها من الوجهة الفنية البحتة ، وإنها من هذه
الوجهة لثناً - وظيفة النفس الأولى هي إثارة الانفعالات الوجدانية ،
وإشاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة ، وإجاشة الحياة الكامنة بهذه
الانفعالات ، وتعدية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه وكل
أولئك تكمله طريقة التصوير والتشخيص للنفس الخليل وإليّك
أمثال فوق ما ضربنا من أمثال

١ - معنى النفور الشديد من دعوة لايمان بنقل إليّك في صورته
لتجريدية هكذا - بهم ليتمروا أشد النفر من دعوة الإيمان
فيتملى الدهس وحده معنى النفور في برود وسكون

ثم ينقل إليّك في هذه الصورة العجيبة : « ما لهم عن التذكرة
مُعْرِضِينَ كأنهم حمر مسنّره : فَرَّتْ من قَسْوَرِهِ ؟ » فتشترت مع

الذهن حاسة النظر ، وملكة الخيال ، والفعل السخرية ، وشعور
الجمال السحرية من هؤلاء الذين يعرفون كما تفرّ حمر الوحش
من الأسد ، لا شيء إلا لأهم يُدْعَوْنَ إلى الإيمان ! والجمال الذي
يرتسم في حركة الصورة حيناً يتملأه أحيال في إطار من الطبيعة ،
تشرده فيه هذه الحمر يتبعها « قسورة » المرهوب !

فللتعبير هنا ظلال حوله ، ترد في مساحته البصية - إذا
صح هذا التعبير !

٢ - ومعنى بحر الآلهة التي كان العرب يعبدونها من دون الله ،
يمكن أن يؤدي في عدة تعبيرات ذهنية مجردة ، كأن يقال :
إننا تعبدون من دون الله لأعجز عن خلق أحقر الأشياء فيحصل
المعنى إلى الدهن مجرداً باهتاً

ولكن التعبير التصويري يؤديه في هذه الصورة

﴿ إِنَّ الدِّينَ مَدْعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ بِمَخْلُوقٍ دُونَكَ ، وَلَوْ اِخْتَمَعُوا
لَهُ ، وَإِنْ يَسْأَلُكَ الدَّيَّاتُ شَيْئاً لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ
وَالْمُصْطَوِ ﴾ ١

فيشخص هذا المعنى ويرر في تلك الصور المتحركة المتعاقبة
« لن يخلقوا دباباً » هذه درحة « ولو اختلفوا له » وهذه
أخرى . « وإن يسألهم الديّات شيئاً لا يستفيدوه منه » وهذه ثالثة
أرأيت إلى تصوير الضعف المردي ، وإلى التدرج في تصويره ، كما
يشير في النفس السحرية اللادعة ، والاحتقار المهين ؟
ولكن أهذه مألوفة ؟ وهل البلاغة فيها هذا الغموض ؟
كلا ! فهذه حقيقة واضحة بسيطة إن هؤلاء الآلهة « لن يخلقوا

دنياً ولو اجتمعوا له « والدواب صغير حقير ، ولكن الإعجاز
في خلقه هو الإعجاز في خلق الحمل والليل ، إنها معجزة « الحياة »
يستوي فيها الجسم والهربل فليست المعجزة في صميمها هي خلق
الهائل من الأحياء ، إنما هي خلق الحليّة الصغيرة كالهواء

ولكن الإبداع الذي هنا هو في عرض هذه الحقيقة في صورة
تلقّي طلاب الصعف عن خلق أحقر لأشياء ، والحمل الذي هنا
هو في تلك الطلال التي تصعب محتويات الصورة ، وفي الحركة
لحيلية في محاولة الخلق ، وفي النجم له ، ثم في محاولة الطيران
جلب الدباب لاستفاد ما يسله ، وهم وأتباعهم عاحرون عن هذا
لاستفاد !

٣- ويترّ عن حالة تحي الأولياء عن أوليئهم أمم هول
القيامة هذه الصيغة التحريدية لقد تباكر الأصفياء ، وتباير
الأولياء ، وتحكي المتنوعون عن التابعين حينما شاهدوا أهول يوم الدين
فيكون من أدق التسميات التي تصاع ولكن أين هذا التفسير الذهبي
من هذا الاستعراض المفعم بالحياة .

﴿ وَرَبُّوْا لِلّٰهِ جَمِيْعًا ۚ قَالِ الصُّعْمَاءُ لِلَّذِيْنَ اسْتَكْرَوْا ۖ يَا
كُنَّا لَكُمْ نَعًا ، هَلْ اَنْتُمْ مَّعْبُوْدُوْنَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ
قَالُوا ۚ لَوْ هَدَانَا اللّٰهُ لَهْدَيْنَاكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْنَا اَمْهَلْتَ اَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا
مِنْ مَّحْصٍ ۚ وَقَالَ الشُّصُوْنُ لَمَّا قُضِيَ الْاَمْرُ ۚ اِنَّ اللّٰهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ
الْحَقُّ ، وَوَعَدْتَكُمْ فَاحْلَفْتُمْ ، وَمَا كَانَ لِيْ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ اِلَّا
اَنْ دَعَوْتَكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِيْ ، فَلَا تَتُومُوْنِيْ وَلَوْ مَوَّ اَنْفُسَكُمْ ، مَا اَنَا
بِمُصْرِحِكُمْ ، وَمَا اَنْتُمْ بِمُضْرِحِيْ ۚ اِنِّيْ كَفَرْتُ بِمَا اَشْرَكْتُمُوْنِيْ مِنْ

قل . إن الظالمين هم عذاب أليم ﴿

في هذا الاستعراض يتحتم للحيال مشهد من ثلاث فرق .
الضعفاء الذين كانوا دنواً للأقواء وهم ما يرالون في
صعهم ، وقصر عقولهم ، وحرور نفوسهم يسجأون إلى الذين
استكبروا في الدنيا ، يسألونهم الخلاص من هذا الموقف . ويعتصرون
عليهم إغواءهم في الحياة ، متمشين في هذا مع طبيعتهم الهزيلة
وصعهم المعروف

والذين استكبروا وقد دلت كبرياؤهم ، ووجهوا مصيرهم
وهم صيقوا الصدور هؤلاء الضعفاء ، الذين لا يكفهم ما يروهم
فيه من دنة وعذاب ، فيسألونهم الخلاص ، وهم لا يملكون لدات
أنفسهم خلاصاً ، أو يدكروهم بحرمة إغوائهم هم حيث لا تمنع
الذكرى فما يربطون على أن يقولوا هم في سأم وصيق « لو
هدانا الله هديناكم » !

والشيطان بكل ما في شخصيه من مراوغة ومعاينة ، واستتار
وتبجح ، ومكر « وشيطنة » يعترف لأناعه - الآن فقط - بأن
الله وعدهم وعد الحق ، وأنه هو وعدهم فأخلفهم ثم يخلصهم
ويؤنبهم ، وهو ينقص يديه من تعانهم :

﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبم لي .

فلا تلموني ولوموا أنفسكم ﴾

لا بل يزيد في تبجحه ، فيقول .

﴿ إني كهرت عما أشركتمون من قبل ﴾ .

حقاً . إنه لشيطان !

وإن هذا الإبداع في تصوير الموقف الفريد ، الذي يتحلى فيه
الثامع عن المتوَع ، ويتكرر المتوَع للتداع ، حيث لا يحدي أحداً
مهم أن يتحلى أو يستمست ، ولكنها طبيعة كل فريق ، تدر
عدرية أمام الهول العظيم .

وإن لـ شيطان ها مطمي مع صسه ، ومع الصورة التي يرسمها
القرآن له ، وإلا ها يكون شيطان يعير هذه التلاعب والتبجح والإبكار ،
وهكذا تصل إلى النفس تلك الأصداء كلها ، وتلك الصلال
جميعها ، من وراء التعبير المصور المشخص فأن يقع التعبير
الذهني ، من هذا التصوير الفني ؟

٤ - ونقول . إن أعمال الدين كهروا لا حساب لها ولا وزن ،
وأهم يحدعون أنفسهم حين يطلوها شيئاً ، أو أنهم في صلال دائم ،
لا محرج هم مه ، ولا هادي هم فيه فيؤدي المعنى إلى الدهر حيث
يركد هناك .

ولكنه يحيا ويتحرك ، ويحيش به الحس والخيال ، حين يؤدي
في هذه الهيئة التصويرية

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ، أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ، يَحْسِبُهُ الظَّمآنُ
مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ، وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ، هَوَاءَهُ حِسَابُهُ ،
وَأَنَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ ، يَنْشَاهُ مَوْجٌ ، مِّنْ فَوْقِهِ مَوَّجٌ ،
مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ . طُلُمَاتٌ نَّعْصُهَا فَوْقَ نَعْصٍ ، إِذَا أُخْرِجَ يَدَّهُ لَمْ
تَكْدِ يَرَاهُ . وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً ، فَلَا لَهُ مِنْ نُّورٍ ﴾

ها صور هبة ساحرة ، فيها روح الفصنة ، وفيها تحيل قوي .

وهي بعد في حاجة إلى ريشة مددعة ، لو أريد تصويرها بالألوان ،
 وإلى عدسة بقطعة ، لو أريد تصويرها بالحركات
 بل أين هي الريشة ، أو أين هي العدسة ، التي تستطيع أن
 تبرز هذه الظلمات :

﴿ فِي نَحْرِ لُحْيٍ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَخَابٌ ،
 ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أُحْزِحَ بِدُهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا ﴾ ؟

أو تصور الظلمات ، يسير وراء السراب « حتى إذا جاءه لم
 يحده شيء » ووحيد ممدحة عجيبة - لم تكذب تحظر له على نال -
 « وحده الله عدده » وفي سرعة حاطقة تناوله « فوفاه حسابه » ؟
 فإذا ذكرنا العرص الديني الذي رسمت به هذه الصورة ، فليذكر
 معه المتاع الهنيئ الطريف ، في هذا التصوير الحي الحميل
 هـ - ومن هذا الوادي تصوير معنى الاتصال بعد الهدى ،
 وصنيع الجهد معه سدى ، تلك الصور الحية المتتابعة :

﴿ أَوَلَيْكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الصَّلَاةَ بِالْهَدْيِ ، ثُمَّ رَحَّتْ تَحَارَتِهِمْ ،
 وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ
 مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ، وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ، صُمُّ
 نَكْمٌ عَمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ .

﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِنْ أَسْمَاءٍ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ
 أَضْأَعَهُمْ فِي آدَائِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ
 بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يُحْطِفُ أَضْأَهُمْ ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا

فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم
وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴿

إن هنا حشداً من الصور المتتالية في شريط متحرك هؤلاء
هم قد أوقدوا النار فأصابت واحة يذهب الله بوزنهم ، ويحجم
حواسهم بالظلام أو ها هي دي العصاة صيبت من السماء فيه
ظلمات ورعد وبرق هؤلاء هم مدعوون بتوقعون الصاعقة ،
ويجأون الموت ، فيحطون أصابعهم في آذانهم ، وما تعي الأصابع
في الآذان ، ولكنها حركة العريضة في هذا الأوان ، وها هو د لرق
يحطف النصر ، ولكنه سير الطريق لحظة ، فهم يحطون على صوته
خطوة وها هو د ينقطع فيطلون واقفين ، لا يدرون كيف يحطون

لو سجلت عدسة الصور المتحركة مشهداً كهذا ، بما فيه من
الحركة والتتابع ، بكات موقعة كل التوفيق فكيف واضطرها
تسجيله الأناض ، فلا نقص منه حركة واحدة تستطيع عدسة
الصور المتحركة إنباتها ؟ لا بل تتيح للمس متعة أشهى ، بأن تدع
للحيات عملاً ، وهو يرسم الصور ويمحوها ، ويضع الحركات
ويتبعها ، ويرسم الطلال ويشهدا والمس تحيش ، والوحدات
يفعل ، والقلب يسرع في الساعات ، تحت تأثير ماذا ؟ تحت
تأثير الكلمات !

* * *

ومن تمام القول في طريقة القرآن التصويرية أن يحملها ما
تفرق في مواضع مختلفة في الكتاب عن الحياة التي يشها التعبير
في التصوير ، فهي سمة بارزة فيه ، تحدد نوع التصوير ومستواه
إن المعاني الدهنية والحالات المعنوية ، لم تستبدل بها صور

وحسب ، ونكرت احتيرت لها صرر حية ، وفيسر كفايس حية
ومرت من خلال وسط حي^(١)

فهول السعة العظيم يصور في دهول المرصعات عما أرصع ،
ونحلي الحملات عن حملهن ، وترج لسكاري وما هم سكارى ،
ونقاس بمدى فعل الهول في هذه النفوس الأدمة ، لا بالألفاظ
والأوصاف التحريضية

أو بصور في فرار المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وفصيته التي
تؤويه حيث يكون « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يعيه » فهو
يقاس بأثره في النفس الإنسانية لا بالمقاييس الأخرى الوصفية
فإذا اشتركت الخوامد في تصوير هذا هول خلعت عليها الحياة
أو أشرك معها الأحياء « يوم نرحف الأرض والحبال وكانت
الخيال كتيلاً مهياً » فهي حية ترتجف كالآدميين أو « فكيف
تقفون إن كهرتم يوماً بحسن الولدان شيئاً لسماء منقطعة به » فالسماء
المنقطعة بخوارها الأصمالي الشيب

وهول الطوفان بصور في الطبيعة ، وإلى حاسها بصور في والد
وولده ذلك روح في لسفينة ملهوف على قلدة كنده ، وهذا
يجرفه الطوفان حيث « لا عصم اليوم من أمر الله إلا من رحم »
وإن أهول هنا ليكاد يكون أعظم من أهول في طبيعة . « وهي
تجري بهم في موج كالحبال » فما كان الموح في المشهد إلا إطاراً
دهول انفسى الذي يفرق بين الابن وبه ، ويفصم الصلة التي لا
تفصمها الأهوال !

(١) كان للأستاذ العبد نص ترحيبي من أفراد هذه السمة القرآنية بالإشارة ، بعد ما ورد
مها في ثنايا الكتاب من أمثلة متفرقة

وآلام العذاب الشديد في لآخرة ، تملؤ من حلال صرخات
إسبانية ، تنفي ظلمها من حلال التعبير :

﴿ وادعوا : يا مالك ليَقْصُ عليكَ ذَنْبَكَ قال : إنكم ما كنون ﴾ .
﴿ وهم يَصْطَرَحون فيها ﴾

ووحرات الحري في هذا اليوم ، لا توصف بالألفاظ ، ولكن
ترد من وسط آدمي حي .

﴿ ولَوْ تَرَى إِذْ نُفِصُوا عَلَى رِجْلِهِمْ قال : أَلَيْسَ هَذَا بِحَقٍّ ؟
قالوا : بلى وَرَبَّنَا أَقْدَرُ مِنْهُمْ الْعَذَابُ عما كنتم تكفرون ﴾ .

وصرخات الدم هتف بها لسان إسبان ، سدم بعد فوات
الأوان :

﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الْعِطَالُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ
الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَبِيلًا ﴾

وتسرب الإيمان براه من حلال نفس شرهه في قصه إبراهيم :

﴿ فَمِمَّا جَزَّ عِندَهُ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَدْ هَدَا رَبِّي هَلُمَّ أَعْلَى
قال : لا أحب الآفلين .. ﴾

وانحصر على الجهاد يأتي في تصوير موقف المؤمنين والكافرين :

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي اتِّبَاعِ الْقَوْمِ إِنَّ تَكُونُوا تَأْمِنُونَ بِهِمْ يَأْمِنُونَ
كما تأمنون ، وترحون من الله ما لا يرعون ﴾

وهو تصوير يعرف بين حقيقة الموقفين تمرقة حاسمة في صنع

كدمات ، و يقيس الفوراق نفوس الفريقين وما ينتظرهما من مآل
ولا يعود إلى استعراض ما استعرضت من الصور في شتى العصور ،
فحسب هذا القدر لبيان نوع التصوير القرآني ، وتوصيح معنى
الحياة في هذا التصوير الحياه التي تنفل الأثر من الحس إلى أعماق
النفس ، لأنها تنتقل من كائن حي ، إلى كائن حي ، في وسط
حي ، فتتعلل في أعماق الصمير من خلال التعبير ولتصوير

* * *

ومعة ثالثة في تعبير القرآن .

إن هذه لريشة المدعة ما مسّت حامداً إلا نص بالحياة ،
ولا عرصت مألوفاً إلا بدا حديداً وتلت قدرة قدرة ، ومعجزة
ساحرة ، كسائر محركات الحياة |

الصبح مشهد مألوف مكرور ، ولكنه في تعبير القرآن حي
لم تشهده من قبل عيان . إنه « الصبح إذا تنفس »
والليل آن من الزمان معهود ، ولكنه في تعبير القرآن حي حديد
« والليل إذا يسر » وهو يطلّب لهار في مساو جآر « يُعشي الليل
انهار بطله حثيثاً » .

والطل صاهرة تشهد وتعرف ، ولكنه في تعبير القرآن نص
تحس وتنصرف « وطل من بحوم لا رد ولا كريم »
واحدار سية حامدة كاخلمود ، ولكنه في تعبير القرآن يحس
ويريد : « موحداً عيا حداراً يريد أن يقصّ فأقمه ! »
والطير سية حية ولكها مألوفة لا تلت للإنسان أما في تعبير
القرآن فشهد رائع يثير الجنان :

﴿ وَلَمْ نَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُوَقِّعًا مِمَّا يَمْكُنُ
إِلَّا الرَّحْمَ . ﴾

والأرض والسماء ، والشمس والقمر ، والحدال والنوديان
والدور العامرة والآثار الدائرة والسات والحيوان . والأشجار
ولأفنان كل أولئك أحياء أو مشاهد تحاطب الأحياء فليس
هناك جامد ولا ميت بين الجوامد والأشياء !

* * *

تلك طريقة القرآن وإيها لمن قائم وحده إراء المعاني والأعراس
وهو في أفقه الربيع ، كمااء تلك المعاني ، وصو هذه الأغراض

الطبعة الثالثة

من

هذا الكتاب

مد سعة أعوم صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب وأحمد الله على أن صادف التوفيق ، فعول من الأوساط الأدبية والعلمية والدينية على السواء مقابلة طيبة إن دلت على شيء ، وإنما تدل على أن الدين لا يقف في طريق البحوث النفسية والعلمية التي تتناول مقدساته تناولاً طليقاً من كل قيد وعلى أن البحوث النفسية والعلمية لا تصدم الدين ولا تخشيه حينما تخلص فيها البنية ، وتتجرد من الحذلقة والأدعاء وأن حرية الفكر لا تعني حتماً مجاعة الدين ، كما يفهم بعض المقلدين في التحرر ، حين يرون الحفوة بين الدين والفن والعلم في أوروبا لطروف تاريخية خاصة باليوم هك ، فيقلوبه نقلاً إلى العالم الإسلامي ، الذي لم تقع الحفوة بين الدين والعلم والفن فيه في يوم من أيام التاريخ !

هذه انطاهرة يهمني تسجيها هـ بمناسبة الطبعة الثالثة هـ

الكتاب

• • •

وطهره أخرى يهمني تسجيها كذلك عن * طريفة التصوير في التعبير * وهل هي القاعدة الأولى في أسلوب القرآن ؟ وهذا السؤال قد أبحث عنه في مقدمة كتاب * مشاهد القيامة في القرآن * في هذه السطور :

« هذه القصيدة لديّ كل ما يؤكد لها من الإحصاء الدقيق لنصوص القرآن فاقصة ، ومشاهد القيامة ، واليهادح الإنسانية ، «المنطق الوجداني في القرآن» ، مصافاً إليها تصوير الحالات النفسية ، وتشخيص المعاني الذهنية ، وتمثيل بعض الوقائع التي عاصرت الدعوة المحمدية . . . تزحف على التقريب أكثر من ثلاثة أرباع القرآن من ناحية الكم وكلها تستخدم طريقة التصوير في التعبير فلا يستثنى من هذه الطريقة إلا مواضع التشريع ، وبعض مواضع الجدال ، وقيل من الأعراس الأخرى التي تقتضي طريقة التقرير الذهني المحرد وهي على كل حال محصورة فيما يوارى ربع القرآن

« فليس هنالك من شطط حين نقول إن التصوير هو الأداة المفصلة في أسلوب القرآن

« وإدّ وفقي الله فأصدت الحنفت الكالية من هذه المكتنة - مكتنة القرآن - وهي « الفصة بين التوراة والقرآن » و « اليهادح الإنسانية في القرآن » و « المنطق الوجداني في القرآن » و « أساليب العرض الفني في القرآن » فسجد الناس مصداق هذه القصيدة من أيديهم ، وتستريح إليها صمائرهم ، كما استراح إليها صميري . . . و به ليسرني أن أعلم أن هذا الكتاب كان لفتة إلى طريقة التصوير في التعبير القرآني ، أتاحت للكثيرين من دارسي القرآن ، ومن أساندة المدرس أن يحددوا سمعة التصوير الفنية في مواضع كثيرة ثم ترد في كتابي ، وأن يستروحوا فيها حملاً فياً حاصلاً يستخلصونه بأنفسهم ، ويتلوه بشعورهم ، ويصطقونه على الشعر وأثر الفني في غير القرآن

وليس بالقليل أن يشعر كاتب أن الطريقة التي اهتدى إليها

في إدراك الحماة التي صارت منكاً لكثير من قلوبنا لسعادته روحية
أرى أن أفصح عنها تحدثاً بعملة الله

* * *

وهذه المسألة أرى أن هناك إيضاحاً واحداً يعني أن يقال ،
بعد ما بدأت كلمة «الف» بـ «استخدامها» ، أو بـ «بهمها» ،
أو بـ «تأويلها» في مجال القرآن

وبني لأعترف أنني حين أتحدث عنوان «التصوير الفني
في القرآن» لهذا الكتاب مدد سمع سوات ، لم يكن لها في نفسي
إلا مدلول واحد هو جمال العرض ، ونسب الأداء ، وبراعة
الإخراج ولم يحل في خاطري قط أن «الف» «الف» «الف» إلى القرآن
معناه الملق ، أو المخترع ، أو القائم على مجرد الخيال ! ذلك
أن دراستي الطويلة للقرآن لم يكن فيها ما يلجئني إلى هذا الهم أو
هذا التأويل .

وأنا أحقر هذه الحقيقة الأخيرة ، وأحقر معها أنني لم أفصح
في هذا لعقيدة دبية تعمل فكري عن الهم ، بل ذهني إلى أنني
لم أجد مبرراً لسواها ، وعلى العكس وجدت أن احرم العقل الشرعي
دائه هو الذي يحتم عليّ ألا أجاور به طاقته ، ولا أهدف به في
مجاهيل ، ليس عليها لديّ من دليل !

وبني لأعجب لم تصرف كلمة «الف» حتماً إلى الخيال
الملقى ، والاشداع الذي لا يسده الواقع ، والاختراع الذي يحرق
على العقول ؟

لماذا ؟

ألا يمكن أن نعصر الحقائق الواقعة عرصاً فياً وعرصاً علمياً ،

ثم نقى هـ في الحالتين صفتها الأساسية من الصدق الواقعية ؟
الألـ « هوميروس » كان يصوغ إلهيته وأوذيسته من لأساطير ؟
الألـ كتاب الرواية والأقصوصة والتمثيلية في أوروبا هم يكتوبون
بنحو الوقائع الحقيقية في فهم انطباعي ؟

إن هذا من ولكنه ليس من كنهه ، والحقيقة تصلح أن
تعرض عرضاً عاماً كاملاً وليس من العسير أن تتصور هذا ، متى
خلصنا لحظة من « العقيدة المرحمة » التي يعيش بها ، ومتى خلصنا
نصوريا من المادح العربية السخنة ، ونظرا إلى الاصطلاحات نظرة
موضوعية شاملة

إن تحرر العقل لا يستدعي حتماً التهميم والتوقع والشك ،
ولسجرد القرآن من كل قدسه ديبية ، ثم يسطر إليه كمصدر
تاريخي بحث هادئ بجد ؟ بجد أما لا علمت كتاباً آخر ، لا أثراً
تاريخياً آخر في تاريخ البشرية كلها ، توافرت به أسباب التحقيق
العلمي السخنة ، كما توافرت هذا الكتاب .

وينبغي أن لا نكتفي في إثبات صحة الحوادث التي تحدث
في القرآن أو عدم صحتها إلا وسيلتين اثنتين ولكن واحدة مهمما
ليست قطعية ، وليس لها من قوة الثبوت ما للقرآن

إحدى الوصلتين اثنتين في أيدينا : الأسانيد التاريخية الأخرى
هنا نحن جردنا القرآن من قداسته - كما قلت - فإنه ككتاب
تاريخي ، يكون أقوى إسناداً من الوجهة العلمية السخنة من كل
مرجع تاريخي آخر في الوجود . راوي هذا الكتاب هو « محمد
ابن عبد الله » وهو رجل يعترف خصومه قديماً وحديثاً بأنه رجل
صادق ، ولا يشك على هذا إلا شذاد أفاكون متعصبون ! وقد

جمع هذا الكتاب بطريقة علمية لا يطعن فيها أحد ، حتى السادة
المستشرقون الذين يؤمن بهم عندنا من لا يحبون أن يؤمنوا بالأديان !
ومثل هذا التحقيق العلمي لم ينهياً لكتاب آخر ، لا من الكتب
المقدسة ، ولا من الكتب التاريخية ، ولا من الآثار التاريخية أيضاً ؛
فالكتب المقدسة الأخرى ، قد انقضت فترات طويلة بين حياة
أصحابها وعصر تدوينها ، ولم ترو بالأسناد الذي روي به القرآن .
والكتب التاريخية والآثار التاريخية لا ترتفع فوق مستوى الشبهات .
وليست هناك حادثة تاريخية واحدة في تاريخ البشرية تعد يقينية
يقيناً علمياً خالصاً .

إذن لا تجوز محاكمة القرآن - ككتاب تاريخي - بحث -
إلى أي كتاب تاريخي آخر ، أو أي سند تاريخي ، ليس له من
قوة الثبوت ما لكتاب القرآن .

والوسيلة الأخرى التي بين أيدينا هي العقل . ولست أتردد
في التصريح بأن احترام العقل البشري ذاته ، يوجب عليه أن يفسح
للمجهول مجاله ، وأن يحسب له حسابه . لا عن طريق الإيمان
الديني ، ولكن عن طريق التفكير العقلي . وإن العقل البشري ليسقط
احترامه حين يدعي أنه يعلم كل شيء . وهو لا يعلم نفسه ، ولا
يدري كيف يدرك المدركات !

وليس في هذا إنكار للفكر الإنساني وحرية ؛ ولكن فيه
احتراماً لهذا الفكر ، بمعرفة قدره ومجاله .

وإذا كان رجال الدين في أوروبا - لا الدين ذاته - قد وقفوا
في طريق حرية البحث العلمي - حتى في العالم المادي - فنشأت
عداوة جارفة بين رجال الفكر ورجال الدين ، فلا يجوز أبداً أن

نقل الموضوع برمته إلى الشرق ، وإلى الإسلام ، فيكون مظهر حرية الفكر الوحيد عندنا ، هو التهجم والتفحيم ، بلا سند إلا هذا السند الذي يتجاوز دائرته . فهذا نفسه هو التقليد المعيب ، الذي يدل على أن حرية الفكر هذه زي من أزياء « المودة » نقلده تقليد القروء !

° ° °

وبعد فلست أنكر أن صعوبات اعترضت طريقي ، وأنا أبحث موضوع « القصة في القرآن » و « مشاهد القيامة في القرآن » .
أهذا كله مسوق على أنه حاصل واقع ؟ أم إن بعضه مسوق على أنه صور وأمثال ؟

ووقفت طويلاً أمام هذه الصعوبات . ولكنني لم أجد بين يدي حقيقة واحدة من حقائق التاريخ أو حقائق التفكير ، أطمئن إلى يقينيتها وقطعيتها ، فأحاكم القرآن إليها . وما كان يجوز لدي أن أحاكم القرآن إلى ظن أو ترجيح .

لم أكن في هذه الوقفة رجل دين تصده العقيدة البهتة عن البحث الطليق . بل كنت رجل فكر يحترم فكره عن التجديف والتلفيق .

فإذا وجد سواي هذه الحقيقة التي يحاكم إليها القرآن ، فأنا على استعداد أن أستمع إليه ، في هدوء واطمئنان . أما قبل أن توجد ، فإنه يكون من الخفة والطيش ، إن لم يكن من احتقار « الفكر » وتعريضه للمهانة - أن يقضي الإنسان برأي ، يكذب به هذا الكتاب ، ولو لم يكن له نصيب من عقيدة أو دين .

الفن في القرآن : إبداع في العرض ، وجمال في التنسيق ،
وقوة في الأداء . وشيء من هذا كله لا يقتضي أنه يعتمد على الخيال
والتلفيق والاختراع . متى استقامت النفوس وصحت الأفهام !

سيد قطب

المحتويات

الصفحة

٥	الإهداء
٧	لقد وجدت القرآن
١١	سحر القرآن
١٧	منبع السحر في القرآن
٢٥	كيف فهم القرآن
٣٦	التصوير الفني
٧١	التخييل الحسي والتجسيم
٨٧	التناسق الفني
١٤٣	القصة في القرآن
١٤٤	أغراض القصة
١٥٥	آثار خضوع القصة للغرض الديني
١٧١	الدين والفن في القصة
١٨٠	الخصائص الفنية للقصة
١٩٠	التصوير في القصة
١٩٩	رسم الشخصيات في القصة
٢١٦	نماذج إنسانية
٢٢٦	المنطق الوجداني
٢٣٩	طريقة القرآن
٢٥٣	هذا الكتاب

رقم الإيداع : ٧٦٣٤ / ٨٨

ترقيم دولي : ٥ - ٢٨١ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ٨: شارع سيويه القصرى - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ١٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)